ابن بطوطة

الرحلة الأوروبية

1919

محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي

حققها وقدم لها: د. سعيد الفاضلي

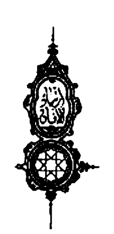


المؤسسة العربية للدراسات والنشر

دار السويدي للنشر والتوزيع

الرحلة الأوربية

1919



الرحلة الأوروبية (١٩١٩)

محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي/مؤلف، [حققها وقدم لها: د. سعيد الفاضلي]

الطبعة الأولى، ٢٠٠٣





دار السويدي للنشر والتوزيع

أبو ظبي ، ص. ب : ٤٤٤٨٠

الإمارات العربيّة المتحدة ،

هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :

بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،

ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،

هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨

التوزيع في الأردن :

دار الفارس للنشر والتوزيع

عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١

E-mail : mkayyali@nets.com.jo

التنفيذ والإشراف الفنّي :

الخطوط وتصميم الغلاف :

منير الشعراني / مصر

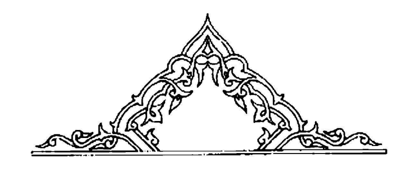
الصفّ الضوئي :

القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي + مطبعة الجامعة الأردنيّة / عمّان

التنفيذ الطباعيّ :

سيكو للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-36-096-0

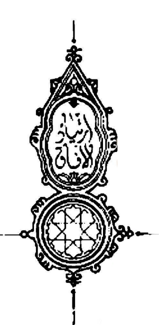


الرحلة الأوروبية

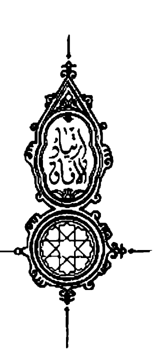
1919

محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي

حققها وقدم لها: د. سعيد الفاضلي







يشرف على هذه السلسلة :

نوري الجراح

"من جملة ما رأيته في باريز دار الصور المجسّمة من الشمع. ولما دخلتها، وجدتُ فيها أشباح رجال قائمين على أرجلهم، لابسين لملابس عسكرية وغير عسكرية، فما يظن الظان إلاّ أنهم ناطقون أحياء، وهناك وجدنا صورة بعض الخنادق الحربية والعدُو قد دخلت عليه الجنود تضرب جنوده داخلها، وغير ذلك من الصور المهولة العجيبة."

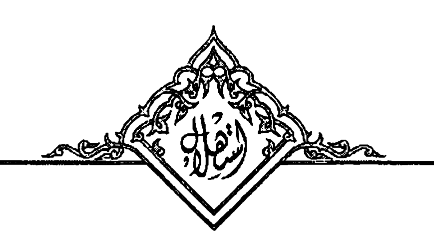
من نص الرحلة ص.........

"...وصعدنا إلى غرفة متسعة مثّلوا فيها إقبال ظلام الليل وطلوع القمر، وظهور النجوم ثم بزوغ الفجر وظهور غزالة النهار، وغير ذلك من الأمور التي يندهش لها ذهن الحاذق الجسور. كل ذلك بعمل الكهرباء، ومثّلوا هناك غابات وأشجاراً ودوراً ومنازل يراها الرائي ماثلة شاخصة، وليس هذا من باب ما يُمثل في الصور المتحركة، بل هذا أعجب من ذلك يُرى مُمَثَّلاً في فضاء متسع دائر بك حتى يظن الظان أنه من باب السحر لا من باب التمثيل. وبالجملة، فباريز دار العجائب ومَجمع الغرائب."

من نص الرحلة ص.........

"لباس أهل لندرة هو كلباس باريز: الرجال كالرجال، والنساء كالنساء. لكن باريز أجمل وأهلها أزيد حذقاً ومهارة في ذلك وإتقاناً له، ولا سيما النسوان، فقد بلغن في باريز حدّ النهاية حتى أنه يُضرب بهن المَثَل في أوربا وغيرها. فإنك إذا كنت في باريز تظن أهلها في عيد دائم، فلا ترى إلاّ متجملاً أو متجملة كما تقدم، بل ما يمر في باريز من العربات وعربات النقل لا ترى فيها إلا الشيء الجميل، وهي في نفسها كذلك، بخلاف لندرة فإن أهلها أقل في ذلك كله، بل لا ترى هنا شيئاً جميلاً أو مُتَجَمِّلاً حتى ترى أضداد ذلك من بشيع أو شنيع في الحامل أو المحمول أو فيهما."

من نص الرحلة ص.........



تَهْدُفُ هذه السّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيّاتِ أدبِ الرّحلةِ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه، قريبةً وبعيدةً، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرقِ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيء لترويج صور عن "شرق ألف ليلة وليلة" تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الإستعمارية بوجهيها العسكري والفكري.

على أن الظّاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في

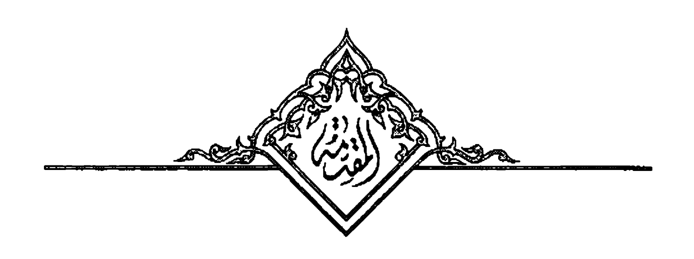
مواجهة صور غربيّة لمجتمعاتها جديدة عليها، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري، لتجد نفسها تملك، بدورها، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال نحو الآخر، بحثاً واستكشافاً، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته، ونمط عيشه وأوضاعه، ضاربة بذلك الأمثال للناسِ، ولينبعث في المجتمعات العربية، وللمرة الأولى، صراع فكري حاد تُستَقْطَبُ إليه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمِّسٍ لأفكاره وصياغاته، وبين معادٍ للغرب، رافض له، ومستعدّ لمقاتلته.

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسم صورِ دنيا لهم، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيّ والعجائبيّ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من بابِ طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيَّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسِّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرّحالة، والانتباهات التي ميّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكّرُ بها.

أخيراً، لابد من الإشارة إلى أن هذه السّلسة التي قد تبلغُ المائة كتابٍ من شأنها أن تؤسس، وللمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص نثريّة تكشف عن همّة العربيّ في ارتيادِ الآفاقِ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربعِ جهات الأرض وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء، وغيرهم من الرّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

محمد أحمد السويدي



الحجوي طهطاوي المغرب: قد يبدو في هذا العنوان بعض نزوع إلى المبالغة والتهويل غير أن مَن يطلع على آراء الحجوي ونتاجه الثرّ العميق وروح فكره التي تَرْشَحُ من مؤلفاته الفقهية والتاريخية والنوازلية يدرك أن في هذا الإطلاق نوعاً من الغض من شأن علم الرجل وتفتحه، ذلك أن الحجوي بالإضافة إلى ما سبق كان من دُعاةِ الإصلاح. ولا شك أن جهله اللغة الفرنسية وعدم نشر رحلته في إبانها حالَ دون تبوُّئه المكانةَ التي يستحقها.

غير أن مسار الحجوي السياسي وموالاته للمستعمر الفرنسي، ولعب بعض أبنائه أدواراً طلائعية في حكومة ابن عرفة[1] سلطان فرنسا المفروض على المغرب بعد نفي الملك الشرعي محمد الخامس، جعل الرجل يُطَّرَحُ ونتاجَه في رف الإهمال[2]، إلى أن بدأ الدارسون مؤخراً في نفض الغبار عن مخطوطاته القابعة بالخزانة العامة بالرباط. فمن هو إذن محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري؟ يعود أصله إلى ثعالبة الجزائر، ومن أبرز أعلام هذه الأسرة عبد الرحمن بن محمد ابن مخلوف الثعالبي (-1471 م)[3]. ولد

---

(1) محمد بن الحسن الحجوي والحماية: 217.

(2) من أوائل من استثمروا مخطوطاته المفكر عبد الله العروي.
Les origines sociales et culturelles du nationalisme Marocain. Esquisses historiques: 114- 121. ومن أبرز المهتمين به بعد ذلك د. سعيد بنسعيد العلوي في جملة من مؤلفاته.

(3) معجم أعلام الجزائر: 88 ـ 90. وانظر في هذا الشأن: وثيقة عن المهاجرين التلمسانيين بفاس: محمد المنوني، ضمن مجلة دعوة الحق: العدد 2، السنة 10: 104 .الموسوعة المغربية،

الحجوي سنة 1874[4]، وعلى غير عادة علماء عصره عرَّف بنفسه في مناسبتين: كتابه "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي"[5]، هذا بالإضافة إلى ملخص فهرسته المطبوع بعنوان: مختصر العروة الوثقى[6]. ويرقى نسبه إلى جعفر بن أبي طالب كما ذكر بذلك في رحلته[7]. غير أن الكتاني شكك في ذلك[8]. عاش حياة حافلة إذ بالإضافة إلى اشتغاله بالتجارة والفلاحة[9] ورحلاته المختلفة[10] واشتغاله بالتدريس والتأليف تولى عدة مناصب منها:

- أمين ديوانة وجدة سنة 1902.
- نائب السلطان في حدود المغرب مع الجزائر.
- عضو المجلس الأعلى للتعليم.
- مندوب المعارف 1912 ـ 1914 ثم 1921 ـ 1939 (وزير المعارف).
- رئيس مجلس الاستئناف الشرعي.
- وزير العدل[11].

وقد مكنته هذه المناصب من الإسهام في ماجريات السياسة المغربية في عصره، كما مكنته من الصدع بمشروع تحديثي طَموح في محاولة للإجابة على سؤال النهضة، مشروع يمزج بين الدعوة إلى العلم والإيمان به وبين تقبل ما يفيد من الغرب وخوض باب الاجتهاد لتسويغه. كل ذلك أمام تيار

معلمة المدن والقبائل، 2/ 163؛ فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المشايخ والمسلسلات: 2/ 131.

(4) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: 2/ 201.
(5) المرجع السابق: 4/ 199-213. (طبعة المغرب).
(6) مختصر العروة الوثقى، مطبعة الثقافة، سلا، 1938.
(7) الرحلة الأوربية: 68.
(8) زهر الآس في بيوتات أهل فاس: 1/ 343.
(9) محمد بن الحسن الحجوي والحماية: 82-83.
(10) انظر ص: 12.
(11) انظر عن ذلك بتفصيل: الفكر السامي...: 69 ـ 80. التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين: 138-141؛ معلمة المغرب: 10/ 3337-3338

ارتدادي منكمش على الذات، يتجلى ذلك من خلال مؤلفه الهام الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي[12]. ومن فتاويه المتفتحة التي نُشِر بعضها بذيل كتاب: "الاجتهاد دراسة في الفكر السلفي في المغرب"[13]. ولعل ذلك ما جعل مؤلف الكتاب المذكور يقول إن "قراءة الحجوي تجعلنا أمام صورة عجيبة ومثيرة بل ونادرة من حيث قوة الوعي بها، تلك هي صورة الفقيه - التاجر التي يوجد فيها جنباً إلى جنب، السلفي المتنور، والليبرالي المتمسك بالفكر (السلفي)"[14].

والواقع أن قراءة مؤلفات الحجوي ومسار حياته تجعلنا نحيزه أقرب إلى الليبرالية[15] لأسباب منها أنه كان ينظر إلى أن جواب سؤال النهضة يوجد في الاقتداء بالغرب والنظر إلى الأمام، فقد ألف كتاب "النظام في الإسلام[16]"، لتأكيد وجود أنماط ثرية من النظام في التاريخ العربي الإسلامي، لكنه لم يقطع بوجود الحل في هذه الأنماط بل دعا إلى "ضرورة تبني مبدأ النظام المتجدد في حياة المجتمعات بمعنى أن أحوال الأمم لا تستقر على حال، بل تكون مرغمة على التجديد، حيث تتأثر بالتغيرات الظرفية المحيطة بها وتؤثر فيها، وحول هذه المسألة نراه يقول (نعم كل نظام قابل للتغيير بحسب تطور الأزمان والعوائد والمألوفات وبحسب تغير الأحوال)"[17]، شرطه الوحيد هو عدم المس بالثوابت[18]؛ فهو يصر على الاجتهاد في "الفكر السامي" في كل مناسبة ولا يفتأ يردد أن الحل في

---

(12) يعتبر كتابه هذا ثورة لتجديد الفقه الإسلامي دون الاقتصار على مذهب دون آخر.

(13) سعيد بنسعيد العلوي، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط 2، 2001. على أن أغلبها مخطوط بقسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط.

(14) المرجع السابق: 69.

(15) انظر وصف ذ. العروي الحجوي بالإصلاحي الليبرالي المعتدل: Esquisses historiques: 116.

(16) المطبعة الوطنية، الرباط، 1928. وتوجد نسخته المخطوطة بالخزانة العامة بالرباط رقم ح 199.

(17) محمد بن الحسن الحجوي والحماية: 225.

(18) انظر مثلاً تأكيده على هذه النقطة في الرحلة الأوربية: 67 و169 و188؛ وانظر: محمد بن الحسن الحجوي والحماية: 166-167.

العلم: «إن دعوة الحجوي إلى الاجتهاد تعني الانفتاح على الحضارة الغربية ومن ضمنها الدولة الحامية، والأخذ بأسباب رقيها وتقدمها، لأن الاجتهاد يمكنها من اقتباس ما هو صالح لها من هذه الحضارة. وفي ذلك يقول (لا يتوهمن أحد أن الدين يزهدنا في كل ما عند غيرنا، لأنه نهانا عن التشبه بهم، فكلا ثم كلا) »[19].

كما يقوم مؤشراً على توجهه هذا إلحاحه على الأخذ بالعلوم الحديثة وتشجيع تعلم اللغات بل وتشجيع الترجمة. وإنشاء المدارس التقنية مع ربط العلم بالتجربة[20]، كل هذا بالإضافة إلى نظرته الاقتصادية السابقة لعصره، ودعوته للتصنيع[1] منطلقاً من الميدان ومن خبرته العملية وعلمه.

وفي قراءتنا لعلاقة الحجوي بالسلطانين العزيز والحفيظ ما يشي بروح توجهه هذا، ففي الوقت الذي اتخذ موقفاً إيجابياً من الأول باعتباره ملكاً «دفع بخطة التحديث، أو الانفتاح على الغرب، إلى الحدود القصوى التي لم يكن من شأن الوعي الديني أن يجيزها»[21]، فإنه يتحامل على الثاني لارتداده وتراجعه عن توجه سابقه إذ «أهمل هذا السلطان أمور العلم فلم يَبنِ مدرسة ابتدائية-قرآنية لتعليم النشء دينه ولغته، ولا شيَّدَ مدرسة حربية لحماية شخصه ومُلكه، إذ كان العلم في نظره، كما يذكر الحجوي، هو علم الدين فقط»[22].

لقد كان مآل الحجوي مؤسفاً إذ فقَد قدراته العقلية مما أدى إلى عزله[23]، فهل كانت خيبة أمله في التحديث من الأسباب التي قادته إلى

---

(19) محمد بن الحسن الحجوي والحماية: 247-248؛ وانظر: خطب ومحاضرات: 56.

(20) انظر في ذلك في الأطروحة الهامة: محمد بن الحسن الحجوي والحماية: 265-269 و306-324.

(21) الاجتهاد والتحديث: 48. وقد أدى هذا الدفع القصي إلى رميه بالكفر من طرف البعض نظراً لميله إلى مظاهر الحضارة الغربية حتى اتُّهِم بالكفر مما اضطره إلى كتابة إشهاد للعلماء بمعاينته وهو يصلي .محمد بن الحسن الحجوي والحماية: 30 و128-129.

(22) المصدر السابق: 144.

(23) محمد بن الحسن الحجوي والحماية: 217-218. بعد أن بقي في منصبه مدة يوقع الوثائق في حالات كثيرة باسم غير اسمه في لحظات يفقد فيها ذاكرته. كل ذلك في مشهد سوريالي ولكنه رمزي دال على خيبة أمل اتجاه تحديثي في مناخ غير مطاوع.

هذا المصير؟ كما خاب أمل السلطان العزيز الذي آمن بالتحديث في مناخ سياسي عالمي غير ملائم، وفي ظل واقع محلي متخلف، مصير تحديثي تختزله ببلاغة رمزية قصته مع استقدام أول سكة حديدية للمغرب؛ ذلك أنه رغب في استيراد سكة حديدية ينتقل بها بين قصره وحدائقه بدار دبيبغ بفاس، وفعلاً وصلت إلى فاس قاطرة جميلة وعربتان متقنتا الصنع والزخرفة وأُثبتت السكة لكن لم يتسنَّ أبداً العثور على عجلات القاطرة رغم كل المحاولات، وفي انتظار ذلك قرر السلطان جر القاطرة بواسطة البغال والجياد[24].

توفي الحجوي سنة 1956 بالرباط ودُفن بفاس "ولم يحضر جنازته أحد بعدما امتنع الحزابون من القراءة عليه، وبعد دفنه امتنع سكان القصبة من الصلاة في ذلك المحل الذي فيه، فأُخرجَ من قبره، ونُقل إلى مكان آخر، ورجع الناس إلى الصلاة بالمحل المذكور، وكُتِمَ المحل الذي دُفن فيه"[25]. وكان كل ذلك لمواقف الحجوي المساندة للاستعمار خصوصاً بعدما طالب السلطان بعزله سنة 1947 وعدم الاستجابة لطلبه مما جعله يبعث باحتجاج إلى رئيس الجمهورية الفرنسية[26].

وقد خلف الحجوي زخماً من المؤلفات في ميادين شتى تتراوح بين الفقه والتفسير والتاريخ والتربية والرحلات بلغت حوالي مائة مؤلف[27] أغلبها

---

(24) في المغرب صحبة السلطان، كابرييل فيير، ترجمة ع. أبو حمزة، ضمن جريدة "العلم": 22/ 7/ 2000: 4.

(25) موسوعة أعلام المغرب: 9/ 3320، وقد حكم عليه بعد الاستقلال، بعدم الأهلية الوطنية وبالتجريد من كافة حقوق المواطنة لمدة 15 سنة، وعدم تنفيذه لوفاة المعني بالأمر، كما حُكم عليه بالتجريد من ثلاثة أرباع أملاكه: جريدة "العلم": 2/ 8/ 1958.

(26) انظر وثيقة فرنسية في هذا الشأن في: محمد بن الحسن الحجوي والحماية: 373-374. وانظر نفس المصدر: 216-217. ويمكن الرجوع إلى هذا المصدر الهام للتعرف على شعور الحجوي بالتهميش من طرف المخزن وخذلانه من طرف فرنسا بل وفقدانه ثقة ابن غرفة السلطان المفروض بعد أن فقد ثقة قواد الحركة الوطنية الذين، يقول الحجوي: كانوا ينشرون دعاية ضده ويرمونه بما يقول إنه منه بريء.

(27) أغلبها ما زال مخطوطاً. وذكر ابن الماحي الإدريسي أن الحجوي كان عضواً في المجمع العلمي بدمشق: معجم المطبوعات المغربية: 96.

تويليفات صغرى، على أن أهمها كتاب "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي".

ويهمنا من مؤلفاته نتاجه في مجال الرحلات وهي:

- حديث الأنس عن تونس[28].
- الرحلة الأندلسية الفيشية[29]، غير تامة.
- الرحلة الحجازية المصرية[30].
- الرحلة الأوربية[31] التي إليها يُساق الحديث في هذا العمل.

هذا التحقيق

مخطوطاً يوجد كتاب "الرحلة الأوربية" بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 115/4[32] في نسخة بخط مؤلفها، وقد أكد نسبتَها للحجوي تلميذُه المؤرخ عبد السلام ابن سودة المري مع بعض تحوير في العنوان، يقول: «الرحلة الأورباوية لشيخنا أبي عبد الله محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، استهلها بقوله: "حمداً لمن أمر بالسير والنظر إلخ"»[33].

وقد قام المؤلف بهذه الرحلة سنة 1919 عضواً في الوفد المغربي المشارك في احتفالات العيد الوطني الفرنسي 14 يوليوز الذي قُرن تلك السنة بالاحتفال بإحراز النصر في الحرب العالمية الأولى[34]. ويأتي ذلك في إطار

---

(28) انظر: **العروة الوثقى**: 74. وهي رحلة مفقودة.

(29) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: ح 260.

(30) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط: ح 161.

(31) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط: ح 4/ 115. هذا بالإضافة إلى تلخيص رحلة ابن عثمان المكناسي: **أنس السائر في اختصار البدر السافر**، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ح 245.

(32) وهي الكتاب الرابع ضمن مجموع، يحتوي 28 تأليفاً أغلبه قصير النفس. مرقم بقلم الرصاص من 1 إلى 580، وأغلب الظن أنه من وضع الخزانة العامة. كُتب بين واجهتي غلاف المجموع الخارجي بحروف مذهبة اسم الحجوي بالفرنسية .EL HAJOUI ثم تحته مباشرة رقم 19.

(33) **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**: 2/ 359، وذكرها له بنفس هذا التحوير ابن الماحي الإدريسي في: **معجم المطبوعات المغربية**: 97.

(34) **الرحلة الأوربية**: 24.

سياسة الحظوة التي نهجها اليوطي «اتجاه النخبة الحضرية، وتتجلى بعض مظاهرها في إرسال وفود من هذه الفئة إلى فرنسا على نفقة الدولة الحامية لحضور الاحتفال بذكرى 14 يوليوز، وذلك لترسيخ مجد هذه الدولة وعظمتها، وقد صارت هذه الظاهرة عادة منذ 1918 م»[35].

يبلغ عدد صفحات المخطوط 154، وكذا رقّمه المؤلف بحبر مائل للحمرة، مسطرته تتراوح بين 18 و10، مقاسه 23 سم/ 18 سم، بخط مغربي وسط مع تشطيب وإلحاق مما يدل على أنه بخط المؤلف، غير مضبوط بالشكل، مكتوبٌ أغلبه الأعم بحبر أسود اللون ما عدا العناوين[36] وأرقام الصفحات وبعض الطرر المثبتة بحبر أميل إلى الحمرة، كما أُثبتت بعض الهوامش والإضافات بقلم الرصاص، وأخرى أقل بحبر أزرق، ومن هذه الأخيرة الهامش المضاف بعد سنة 1943 في الصفحة رقم 136 من المخطوط[37] تبلغ مساحة الورق المكتوبة 18-10,5-15-10.

أما الورق فهو أبيض مائل إلى الصفرة في حال جيدة، وبعض الأوراق مدموغة بطابع منقوش على الورق يحمل عبارة «المهدي لحلو وبن سوسان».

وضمَّن الكاتبُ مخطوطهُ التعقيبةَ (الرقاص في الاصطلاح المغربي)، إلاّ أنه لا يلتزمها في بداية الكتاب ثم يلتزمها في وسطه ليعود إلى إغفالها في الصفحات الأخيرة.

وتتضمن الصفحة الأولى من المخطوط عنوان الكتاب: "الرحلة الأوروبية" فقط، في الوسط إلى أعلى. أما الصفحة الأخيرة فخلو من تاريخ الفراغ من الكتاب أو النسخ.

وقد دامت الرحلة شهراً وعشرين يوماً من 4 يوليوز 1919 إلى 24

---

(35) محمد بن الحسن الحجوي والحماية: 45. وانظر نسخة من برقية أرسلتها الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب مؤرخة ب 8/ 7/ 1919 تلح فيها على ضرورة إيلاء العناية اللازمة لظروف وصول وتنقل الوفد: المصدر المذكور: 335.

(36) كُتبت قلة من العناوين بحبر أسود غير مفردة عن المتن.

(37) الرحلة الأوروبية: 146.

غشت منه[38] وكانت نواتها محاضرة[39] طوَّرَها المؤلف فيما بعد، شأنها في ذلك شأن كتابه الفكر السامي[40].

ويدلنا ضبط أوقات الوصول والتنقل بالدقائق كل مرة، وإثبات فحوى الخُطَبِ المتبادلَة، وكذا بعض المؤشرات النصية الأخرى كقوله: «الحضور عيدي الجمهورية وصلح النصر... في يوم واحد وهو 14 يوليوز الجاري»[41]، على أن الحجوي كان يُدون بعض العناصر والنقط أثناء الرحلة. كما تدلنا إشارة جريدة "السعادة"، التي زار مَقرّها بعد عودته إلى المغرب مباشرة، على عزمه الكتابة عن رحلته وموافاتها بها[42]، وعلى أن تحريرها كان مباشرة بعد رجوعه من فرنسا 24/8/1919، تُعضد هذا الطرح مؤشرات أخرى منها قوله في مستهل الرحلة: «رحلت إلى فرنسا وانكلاتيرة في هذه السنة 1347 موافقه 1919»[43]. وقوله: «وتقدم لنا في رحلة تونس في السنة الماضية وصف...»[44] ونُذكر أن رحلته الأولى إلى تونس كانت سنة 1918[45]. يقول المؤلف متحدثاً عن انخفاض قيمة المارك الألماني نتيجة مخلفات الحرب: «وفي هذا الشهر: ديسانبر الموافق لربيع الأول بلغت قيمته إحدى وعشرين سانتيماً»[46].

ونشير إلى أن هذا المقطع يتحيز قبل حوالي ثلاث صفحات من ختام الرحلة مما يرجح أن الفراغ من تدوينها كان بعد حوالي أربعة أشهر من عودة المؤلف أي في دجنبر 1919.

---

(38) الرحلة الأوربية: 23 و165.
(39) العروة الوثقى، فهرست: 74.
(40) المصدر السابق: 71. يقول المؤلف متحدثاً عن مؤلفاته: ﴿وبعض منها يكون مسامرة أو محاضرة ألقيها في موضوع علمي أو اجتماعي أو أخلاقي أو اقتصادي أو نحو ذلك، فيقع موقع الاستحسان فيصير تأليفاً﴾ .الفكر السامي...: 1/ 210. (طبعة المغرب).
(41) الرحلة الأوربية: 24.
(42) السعادة: 30/ 1919.
(43) الرحلة الأوربية: 23.
(44) المرجع نفسه: 154.
(45) مختصر العروة الوثقى: 74؛ وانظر: الفكر السامي...: 4/ 89. (طبعة المغرب).
(46) الرحلة الأوربية: 161. وقد وافق شهر دجنبر 1919 شهر ربيع الأول العربي.

ولا شك أن المؤلف كان يعمد بعد ذلك بين الفينة والأخرى، إلى تنقيح رحلته وإضافة وشطب ما عَنَّ له، مما يفسر وجود هوامش وطُرر مضافة بحبر مختلف وفي حيز ضيق جداً أحياناً، وكذا بعض التشطيبات الموزعة في ثنايا المخطوط. ومن الهوامش المؤشِّرة الدالة إثباتُ المؤلف هامشاً يسجل فيه وفاة إحدى الشخصيات السودانية بتاريخ 28 دجنبر 1943[47] مما يدل على أن عملية التنقيح استمرت إلى التاريخ المذكور على الأقل.

وحرصنا على كتابة الكلمات كما كتبها المؤلف دون تدخل: مثل كتابته: اصبانيا بدل اسبانيا والبُليس بدل البوليس وافرانسا بدل فرنسا وأميركا بدل أمريكا وانكلاتيرة بدل انجلترا إلخ. كما احتفظنا بالكلمات المهموزة مُسَهَّلة كما كتبها الحجوي على عادة المغاربة كمَمْلوّاً بدل مملوءاً ومبادي بدل مبادئ والموانسة بدل المؤانسة وبذية بدل بذيئة.

وقد اهتم الأستاذ سعيد بنسعيد العلوي بهذه الرحلة وأعدها للنشر ضمن ملحقات كتابه: "أوربا في مرآة الرحلة.."[48]، كما ترجمها إلى الفرنسية، اعتماداً على هذه النشرة، كل من آلان روسيون وعبد الله ساعف[49].

غير أن هذه النشرة شابتها بعض الهَنَات فأثَّرتْ بذلك على الترجمة، ومن ذلك حذف مقاطع متفاوتة أحياناً بل وصفحات حيناً آخر، مما أثبتناه في هوامش التحقيق. هذا بالإضافة إلى سوء تقدير في قراءة بعض الكلمات مما غيَّر المعنى بشكل جذري أحياناً. ولتوضيح ذلك نكتفي بسوق بعض الأمثلة الدالة.

(47) المرجع السابق: 146.

(48) منشورات كلية الآداب ـ الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، 1995.

(49) *Voyage d'Europe, Le périple d'un Réformiste, Afrique Orient*, 2001.

بعض الأمثلة الدالة:

الأصل المخطوط	أوربا في مرآة الرحلة	Voyage d'Europe
لتستنتج منها أحوال عموم باريز وحضارته بحسب القياس والنظير". ص: 51 بهذا الكتاب.	لتستنسخ منها أحوال عموم باريز وحضارته بحسب القياس والتنظير". ص: 122.	Pour que tu puisses te faire une idée sur le mode de l'analogie et de la générali-sation. p. 41.
- "وإن عجائب أوربا كثيرة، وهي في الحقيقة ليست عجائب أوربا بل عجائب العلم". ص: 123 بهذا الكتاب.	- "وإن عجائب أوربا كثيرة، وهي في الحقيقة ليست عجائب أوربا بل عجائب العالم". ص: 57.	Les merveilles de l'Europe sont nombreuses. mais. en vérité. il ne s'agit pas des merveilles de l'Europe mais des merveilles l'univers P. 116.
- "وعلى سفرنا، وتعلمُ تعبَ السفر، فقد استرحتُ وحمدت الله...". ص: 124 بهذا الكتاب.	- "وعلى سفرنا وتعلم تعب السفر، فقد استرحت وحمدت الله...". ص: 175	Pour ce qui est de notre périple lui même et l'ap-prentissage des fatigues du voyage je fus soulagé أدى عدم ضبط النص العربي بالشكل والفواصل إلى انزياح عن المقصود في الترجمة11 .P. A .
- "وقالوا: حتى عوائدنا كعوائد العرب العرباء قبل البعثة في مجتمعاتهم واحتفالاتهم وولائهم...". ص: 148 بهذا الكتاب.	- "وقالوا: حتى عوائدنا كعوائد العرب العرباء قبل البعثة في مجتمعاتهم واحتفالاتهم وولائهم..." . ص: 193.	Quant à nos coutumes, poursuivirent-ils, elles sont semblables à celles des ara-bes les plus authentiques avant même la mission du prophète, pour ce qui est des façons de s'assembler et des modes de l'allégeanceÂ. p. 145.
- "الحرب أول ما تكون فتية". 162 بهذا الكتاب	- "الحرب أول ما تكون فتة" .ص: 202.	but,¡La guerre au d'- quand elle est encore . p. 160. 'duction¡s
- "فمالية ألمانيا وهنت أكثر من غيرها بكثير" . ص: 185 بهذا الكتاب.	- "فمالية ألمانيا أكثر من غيرها بكثير". ص: 202 .	-ÂLes finances de L'Alle-magne sont bien plus con-sidérables que celles de n'importe quel autre pay-sÂ. p. 160.

و قد عملنا على تعريف وتوثيق ما هو وارد في الرحلة من آيات قرآنية وأحاديث شريفة وأحداث وأعلام[50] وأماكن وكلمات عامية مغربية وغير ذلك مما هو مبثوث موثَّق في الهوامش. وشفعنا كل ذلك بفهارس كشافة متنوعة تغطي ما هو وارد في المتن تيسيراً للاستفادة من الرحلة: فهرس الآيات القرآنية وفهرس الأحاديث الشريفة، وفهرس الكتب الواردة في المتن وفهرس الأعلام البشرية وفهرس الأعلام الجغرافية والأماكن، وفهرس الألفاظ الحضارية المستحدثة وفهرس المصطلحات السياسية والعسكرية، وفهرس المصطلحات الدينية، وفهرس الألفاظ العامية المغربية. وكثيراً ما تكرر ذِكْرُ معلومات في متن الرحلة لذلك عهدنا إلى التنبيه إلى كوننا عرفنا بها من قبل معتمدين على القارئ في الرجوع إلى الفهارس للتعرف على أول صفحة وردت فيها المعلومة، وهي الصفحة التي تتضمن الإضاءة الخاصة بها.

(50) تجنبنا التعريف بالمشاهير مما يعد إطناباً.

مفتاح رموز التحقيق

م		مخطوط الرحلة.
س	:	نص الرحلة المنشور ضمن كتاب أوربا في مرآة الرحلة.
D.E.H	:	Dictionnaire Encyclopédique Hachette.
هـ/ رقم	:	رقم الجزء/ رقم الصفحة بالنسبة للمصادر والمراجع.
*	:	هامش من وضع المؤلف الحجوي.
(- تاريخ)	:	سنة الوفاة بالنسبة للأعلام.
(د. ت)	:	طبعة بدون تاريخ بالنسبة للمصادر والمراجع.
()	:	الكلمات الموضوعة بين قوسين في الفهارس الكشافة غير واردة في المتن وأثبتت للتوضيح.

بسم الله الرحمن الرحيم   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

الحمد لله أمر بالسير والنظر في ممالك الأرض وأحوال البشر من بدو وحضر

ومن حضر من قضى منهم ومن حضر ليكون في ذلك عبرة لمن اعتبر والصلاة

والسلام على صفوة مضر وعلى آله وصحبه الذين رحلوا لنشر ديـ

ـن الله بين شعوب الأرض في مختلف البقاع من قارة لقارة أما بعد

فهذه رحلتي التي قمت بها إلى انكلترا في ماي من السنة 1337 التي

من الهجرة وأول بلاد من بلدان بر النصارى لم نرها وعن أمر وزارة

الأمور الخارجية في رحلة مفيدة [شاهدت فيه] اطلعنا على أحوال مدنية

بحار الأمة التي بها أهل المغرب الذين لم يرحلوا إليها ولم يعرفوا شيئا

من أحوال الأوروباويين أردت أن أقيم رحلة مسترشدا بالله تكلم على

جميع ميزات البلاد وما رأيته من الأمور والعمران فإن لكل قوم

[بقاع الأرض]

68

صفحة من الرحلة بخط الحجوي

مسار الرحلة

- فاس
- مكناس الجمعة 5 شوال 4 يوليوز
- عين الجمعة
- القنيطرة
- سلا
- الرباط 5 شوال
- الدار البيضاء 5 شوال
- بورودو 9 شوال
- مدينة روا (12 شوال / 11 يوليوز)
- باريز 12 شوال / 11 يوليوز)
- نانسي 20 يوليوز 21 شوال
- فيردن 21 يوليوز 22 شوال
- متس
- سطر سبورغ 22 يوليوز
- كولمار مدينة
- ملهوز
- بلفور
- العودة إلى باريز 26 شوال ـ 25 يوليوز

المكان	التاريخ
- أميان	30 يوليوز
- مرسى بولون	
- فو لكسطون	
- لندرة	30 يوليوز
- منشستر	31 يوليوز
- ستوكطبوط	
- كريو	
- ستوفورد	
- برمنكام	
- ركبي	
- نورتافتون	
- إيشتون	
- واتفورد	
- لندرة	2 غشت
- فو لكسطون	4 غشت
- باريز	4 غشت
- ليون	6 غشت
- مرسيليا	5 غشت
- طنجة	18 غشت 1919 / 12 ذي القعدة 1337هـ
- الدار البيضاء	22 غشت
- فاس	

الرحلة الأوربية

نص الرحلة

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

حمداً لِمَن أمرَ بالسير والنظر في ممالكِ الأرض وأحوال البشر[1]، مِن بَدْوٍ ومن حضر، من مضى منهم ومنْ حَضَر، ليكون ذلك عبرة لمن اعتَبَر، والصلاة والسلام على صفوة مُضَر، وعلى آله وصحبه الذين رحلوا لتهذيب شعوب الأرض بمحاسن الدين فنالوا من ذلك كلَّ وطَر.

أما بعد فإني رحلتُ إلى فرنسا وانكلاترا في هذه السنة 1337 هـ/ موافقه 1919 م بأمر مولوي يوسفي[2] دام نصره وعزَّ أمرُه، ورأيتُ أن أقيد ما شاهَدتُهُ[3] في رحلتي هذه لإفادة أهل المغرب الذين لم يرحلوا ولم يعرفوا شيئاً من أحوال أوربا ولم أُرِدْ أن أضخِّمَ رحلتي هذه بالتكلم على جغرافيات البلاد وتاريخها القديم والحديث، فإن لكلٍّ من العِلْمَيْنِ كُتُباً معلومةً يُستغنى بها عن النقل منها؛ وقد تجافيت عن الإكثار، فقلَّما سلِمَ مِهذار، بل اقتصرتُ في الغالب على ما شاهدتُ واختصرتُ كثيراً مما عايَنت، لكون غيري بسط القول في ذلك، والتوسط في التأليف من أحسن المسالك، والله

---

(1) من ذلك قوله تعالى: {قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق}: العنكبوت ١٩.

(2) يوسفي: نسبة إلى السلطان يوسف بن الحسن المتوفى بتاريخ (17-11-1927 م). مذكرات محمد ابن الحسن الوزاني: 432؛ وانظر تقريراً لوزارة الخارجية الفرنسية نشر بجريدة العلم: 25/ 11/ 1998، ص: 4.

(3) لدى س "شاهدت".

المسئول أن يحفظنا من عثرات اللسان، وهفوات البيان والبنان؛ ثم أعتذر بعدم معرفتي لِلُغة القوم الذين أتكلمُ عن أحوالهم، وعندي يقينٌ أني ما وصفتُ إلا ما ظَهر لي من أحوالهم، وتركتُ كثيراً مما ينبغي ذِكره مما لا يُتوصل إليه إلاّ بمعرفة لسانهم، ومع ذلك لا تخلو رحلتي هذه من فائدة، لا سيما لعلمائنا الذين لم يرحلوا لتلك الديار، ويتصورونها بصورة لا تنطبق على الحقيقة عند الاختبار، وهو المسئول في الإعانة والتوفيق، لأقوم طريق.

في الساعة 5 عشية الأربعاء ثالث شوال سنة 1337 هـ/ موافق 2 يوليوز سنة 1919 م، صدر لي أمرُ جلالة مولاي السلطان نصره الله بالسفر إلى باريز لحضور عيدي الجمهورية وصُلح النَّصر اللذين سيكونان في يوم واحد وهو 14 يوليوز[4] الجاري، صحبة وفد مغربي من نخبة المغاربة[5] رئيسه الوزير الأكبر السيد الحاج محمد المقري[6]، ومعه تسعة أعضاء العبدُ الحقير أحدُهم بصفة كوني نائباً عن فاس عاصمة العِلم، وعن المغرب الشرقي[7]، وباقي الأعضاء هم: الحاجب السلطاني الفقيه العلامة الشهير سيدي التهامي اغبابو[8] ووزير الأملاك المخزنية السيد الحاج عمر التازي[9] ورئيس التشريفات الملوكية السيد الحاج عبد القادر ابن غبريط[10]، وباشا

---

(4) 14 يوليوز العيد الوطني الفرنسي.

(5) ورد خبر سفر هذا الوفد مع ذكر أعضائه بجريدة السعادة: 8/ 7/ 1919 م.

(6) محمد المقري، شغل المنصب المذكور أربعين سنة (-1956): موسوعة أعلام المغرب، 9/ 3330.

(7) أي كونه ممثلاً غير رسمي لهاتين المنطقتين، الأولى لأنها مسقط رأسه وسكنه والثانية لتحمله بها مناصب سامية فيما قبل إذ كان أمين ديوانة وجدة ومتفاوضاً مع الفرنسيين على الحدود الجزائرية 1320-1323 هـ .الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: 4/ 207-208.

(8) كان من أشد المقربين إلى السلطان يوسف ونُكب بعد وفاة هذا الأخير، (-1942 م .معلمة المغرب: 2/ 511.

(9) رجل دولة منذ عهد السلطان عبد العزيز، هاجر لفترة إلى تونس، عُين باشا الدار البيضاء 1914 م قبل أن يعين في المنصب المذكور أعلاه، (-1934) .معلمة المغرب: 6/ 2050-2051؛ موسوعة أعلام المغرب: 9/ 3292. وانظر نص ظهير تعيينه في المنصب المذكور أعلاه بتاريخ 10/ 11/ 1918 في: زهر الآس في بيوتات أهل فاس: 418-419.

(10) أصله من تلمسان، استهل حياته ترجماناً قبل أن يتدرج في المناصب إلى أن صار رجل فرنسا في المغرب، (-1954): معلمة المغرب: 1450-1451.

مراكش السيد الحاج التهامي المزواري الأجلاوي[11]، وقائد الرحامنة السيد العيادي الرحماني[12]، وباشا طنجة السيد الحاج عبد السلام ابن عبد الصادق[13]، وباشا العاصمة الإدارية السيد عبد الرحمن برگاش[14]، وباشا الجديدة السيد علال قاسمي الدكالي[15]؛ فأجَبتُ بالامتثال، وأُمرتُ بالسفر غدَهُ[16] فاعتذرتُ بكثرة الأشغال، فطلبتُ مهلة بطريق المقول السلكي[17]، فأُمْهلت ليوم الجمعة خامس شوال[18]، ساعة 6 صباحاً على متن أتومُبيل خاص إلى الرباط، فمررتُ على مكناس فعَيْنُ الجمعة[19] فالقنيطرة فسلا فالرباط، وقد وصلته في الساعة 2/1 11, وأفطرتُ هناك[20]، وأُمِرتُ بالسفر للدار البيضاء لمرافقة أعضاء الوفد الذين يسافرون معي عن طريق بوردو بحراً إلى فرنسا وهم: باشا الحمراء وقائد الرحامنة وباشا الجديدة،

---

(11) من أكبر القواد الذين والوْا الاستعمار الفرنسي قبل أن ينال عفو الملك محمد الخامس (-1956 م): المصدر السابق: 2/ 619-621.

(12) الميلودي العيادي أحد قواد الجنوب الكبار قبل الحماية الفرنسية وأثناءها إذ وضع نفسه في خدمتها (-1964).

(13) من أسرة مخزنية من عهد السلطان إسماعيل العلوي، تدرج في مناصب السلطة بطنجة في عهود السلاطين الثلاثة قبل السلطان يوسف بن الحسن الذي أثبته في المنصب المذكور أعلاه: معلومات مستقاة من كتاب:

Memorias de un viejo Tangerrino, Isaac larido، مطبعة برميخو مدريد، 1935، ص: 52-58-59. معلومات زودني بها مشكوراً الأستاذ المحترم عبد الصمد العشاب.

(14) تقلد عدة مناصب وعين في المنصب المذكور أعلاه سنة 1918 .معلمة المغرب: 4/ 1175.

(15) علال بن إبراهيم القاسمي، نسبة إلى الشرفاء القواسم المغاربيين ذكر في خبر سفر الوفد في السعادة باسم علال بن ضويو: السعادة، 8/ 7/ 1919. ولد سنة 1863، خلف والده على قيادة قبيلته سنة 1878؛ كان من القواد الموالين للاستعمار الفرنسي، عين في منصب الباشا المشار إليه أعلاه سنة 1327 هـ، .Aayane Al Maghrib Alakça: 533

(16) لدى س "غدا".

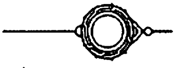
(17) يعني بالمقول السلكي التلفون.

(18) 1337 هـ/ موافق 4 يوليوز 1919.

(19) عين الجمعة: إحدى جماعات أحواز مدينة مكناس .الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة المدن والقبائل: 318.

(20) لدى س "هنالك".

وباقي الوفد توجه على طريق طنجة فإصبانيا براً إلى بوردو،[21] وهناك تجتمع هيأة الوفد ويتوجه رسمياً إلى باريز مجتمعاً، فبتُّ ليلةَ السبت في الدار البيضاء عند عاملها السيد عبد اللطيف التازي[22]، وكان وصولي لها في الساعة 6 عشية الجمعة.



ركوب البحر

وفي الساعة 11 نهارَ السبت ركبنا جميعاً متنَ الباخرة "فجيج"[23] إحدى بواخر الشركة تراز أتلنتيك[24]، اشترته الشركة المذكورة أخيراً من شركة الباكبطات[25] النجليزية. وحين رُكوبنا كان البحر الأطلانطيكي متهيجاً فوصلنا بمشقة عظيمة من قارب أطومُبيلي[26] إلى سلم الوابور[27] الذي كان راسياً بعيداً من المرفإ الصناعي الذي أُسس في المرسى المذكور، لكونه لا تدخله المراكب الكبار كهذه الباخرة، ولذلك احتجنا إلى عناء شديد في الوصول لدرج السلّم، وبوصولنا لها أيقنا بالنجاة والحمد لله. ولما استوينا على ظهره ذكرنا نعمة الله بالسلامة وقلنا الحمد لله{الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مُقرنين[28]بسم الله مجراها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم}[29].

---

(21) بوردو: مدينة BORDEAUX من أقدم مدن فرنسا وأكثرها أهمية اقتصادية منذ القرن الثاني الميلادي، تقع على نهري LA GARONNE و LA DORDOGNE اللذين يكونان LAGIRONDE : D.E.H. 1/. 148

(22) عبد اللطيف بن الحاج عبد الكريم التازي، كان ضمن السفارة التي وجهها الحسن الأول صحبة الحاج المهدي المنبهي لانجلترا وألمانيا سنة 1319 هـ / 1901-1902 وقد تولى مناصب أخرى، أعفي من منصب باشا الدار البيضاء سنة 1339 هـ/ 1920-1921: **زهر الآس في بيوتات أهل فاس**، 408-409.

(23) سميت الباخرة باسم إحدى دوائر إقليم وجدة بشرق المغرب. انظر **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية**. معلمة المدن والقبائل: 229.

(24) Transatlantique.

(25) لدى س: البكيطات والكلمة جمع لـ paquebot، ومعناها الباخرة الكبيرة.

(26) يعني: بقارب ذي محرك.

(27) الوابور أو البابور: تعني الباخرة مشتقة من كلمة فابور Vapor الإسبانية أي البخار Babord. **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**: 2/ 421.

(28) بداية الآية الكريمة: {سبحان الذي...}: الزخرف: 12.

(29) هود: 41.

وودّعَنا في الديوانة باشا الدار البيضاء وأقبل لوداعنا من الرباط جناب المقيم[30]، فصعد المركبَ على ما كان من هياج البحر لكون هيجان البحر يعجبه ولا يؤثر عليه بل ينشط له[31] لممارسته إياه، وودعَنا على ظهر المركب[32] قائلاً: إني مسرور بحضوركم في احتفال الجمهورية الفرانسوية بالنصر والصلح، وعرَّفنا بأسماء الأعضاء الذين سيذهبون على طريق إصبانيا، وأننا نجتمع بهم في مرسى بوردو، وأنه كلف ترجمانه الخاص السيد محمد نهليل[33] مع موسيو لُمير[34] خليفة مستشار الدولة المغربية بِلُقِيِّنا في بوردو ومرافقتنا؛ وقدم لنا طبيباً عسكرياً برتبة قبطان وترجماناً عسكرياً برتبة فسيان[35]، وهو ترجمان محكمة أكَادير، ليكونا رفيقين لنا بحراً وفي بوردو، وأنِسنا بعباراته الأنيسة الأنيقة برهة من الزمن ثم ودعَنا ورجع إلى بَرّه.

وفي الساعة 12 تحركت المركب حركةٍ السعادة والسلامة فلم نَنْشبْ[36] أن غاب عنا وطنُنا المحبوب، ودخلنا لُجةَ المحيط، و{والله من ورائهم محيط}[37]؛ ثم إن المركب كانت في غاية الامتلاء بالرُكاب بسبب كثرة من ذهب من المغرب لحضور الاحتفال بالنصر، وقلة المراكب المتسبِّبة عن

---

(30) يقصد المقيم العام اليوطي: Louis Hubert Gonzalave Lyautey (1934-1845) المريشال منذ 1921، من أساطين الحروب الاستعمارية الفرنسية، كان مقيماً عاماً للحماية الفرنسية بالمغرب بين 1212-1925 .معلمة المغرب: 2/ 571. 766/ D.EH. 2 والمقيم العام منصب أحدث بموجب اتفاقية حماية فرنسا للمغرب وهو مندوب مقيم عام ينوب عن الدولة الفرنسية لدى السلطان، وهو الواسطة بين السلطان والدول الأخرى، كما أن له سلطة المراقبة على الحكومة الشريفة .معلمة المغرب: 2/ 570-572.

(31) كلمة ساقطة لدى س.

(32) الكلمات الأربع السابقة ساقطة لدى س.

(33) محمد نهليل: لم يكن ترجماناً عادياً بل باحثاً في خدمة الحماية الفرنسية له مؤلفات منها: Lettres chérifiennes, M. Nehlil, Paris 1915,. كما كان مديراً لمعهد الدراسات العليا بالرباط .المصادر العربية لتاريخ المغرب: 2/ 176.

(34) لدى س: الير. ولمير: .Lemaire ووصف في تقرير فرنسي بكونه: Contrôleur suppléant. محمد بن الحسن الحجوي والحماية: 335.

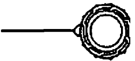
(35) فسيان: .Officier

(36) لم ينشب أن فعل كذا: لم يلبث: لسان العرب: نشب.

(37) البروج: 20.

الحرب، حتى أن بعض خدَمِنا لم يجد فِراشاً فكان ينامُ على الأرض.

وبعد الخروج من المرسى وَخَدت[38] المركب سيرها حثيثاً نحو الديار الفرانسوية، وكان البحر لم يزلْ في اضطراب فأثّر مَيْدُ[39] البحر عليَّ تأثيراً مُضراً على عادته معي ومع كل صفراوي، ولم يُفدني معه التجلد ولا ما استعملته منَ المُقِيء لعلي أتخلص من غوائل الصفراء، فكنتُ مهما أخرجتُ منها شيئاً إلا وحرك ميدُ البحر غيرَه، وبقيتُ أعالج داء الميْد من غير طعام ولا شراب، إلا ما يسدُّ الرمَق ذلك اليوم والذي بعده، نعم، في اليوم الثالث بعد ذهاب خلط الصفراء تماماً حصلَ لي انتعاشٌ ووجدتُ بعضَ الراحة من دوران الرأس وغثيان القلب فتناولتُ ماءً مثلَّجاً سكنَ به قلبي نوعاً، وتناولتُ بعض الطعام، ولكنْ أضرَّ بِيَ الزُّكام، ولَهُوَ أهونُ مما كنتُ أعالج من داء الميد. على أن البحر كان في اليوم الثالث أشدَّ منه في اليوم الأول، ومع ذلك لم يؤثر البحر علي؛ وفي اليوم الثاني قبله كان البحر أحسن منه في الثالث، ومع ذلك كنتُ مريضاً، فدلني على أن مرض البحر هو من الأخلاط الباطنة التي مهما ذهبتْ ذهب ولو هاج البحر ومهما بقيتْ بقي ولو سَكَن.



وصف وادي[40] بوردو الجميل المنظر

ولما كان يوم الثلاثاء أواسط النهار، رأينا ما أفرَحَ قلوبنا وأزال عنا

---

(38) الوخد: سرعة السير، مأخوذ من نوع من سير الإبل يتميز بسعة الخطو: لسان العرب: وخد.

(39) الميْد: هو ما يصيب راكب البحر من غثيان بسبب نتن ماء البحر حتى يُدار به ويكاد يغشى عليه: لسان العرب: ميد. وتتكرر معاناة الرحالة المغاربة من ميد البحر مما لا يحتاج إلى تمثيل، إلى درجة أنهم وضعوا وصفات لمقاومته: «إذا دخلت أولاً السفينة فالأنفع لك من الدوخة ونحوها أن تشرب من ماء البحر حتى تتقيأ ما يضرك فإنه نافع... قيل ومما يعين على زوال دوخة البحر الخبز السخن عقب القيء أو الطعام السخن وكذا دهن الرأس بالحامض وأكل البصل .»زينة النحر بعلوم البحر، إبراهيم بن محمد التادلي الرباطي، عرض وتقديم حسن أميلي، ضمن مجلة المناهل، شتنبر 1996: 216 و229.

(40) تدل كلمة "وادي" في الاستعمال المغربي على النهر.

الأكدار، وهو ظهور البَر، فبدا لنا مصب نهر بوردو في البحر الأطلانطيكي، وصرنا كلما نقصت المركب في سيرها قربت منا مناظر البرّ الجميلة، ولا تظن أنها ظهرت لنا جميلة في أعيننا إذ ذاك لشوقنا للبَر وأنها ليست جميلة في الواقع، بل أحقق لك أن مُد البحر ذهبَ عني وصَفًا ذهني وفكري، فيمكنك أن تعتمد على قولي في[41] هذه المرة، فأحققُ لك[42] أن الشاطئ الذي نراه جميل للغاية، بل لا يكاد يوجد أجمل منه، فهو شاطئ ممتد طويلاً ناشراً جناحين أخضرين على عرض البحر، ريشه أشجار الغابات اليانعة المتناغية في الجو المنتظمة الترتيب، المتقاربة في العلو، تبدو رؤوسها دقيقةً مُتناسقةً، يتميز بعضها عن بعض مهما صعَّدْتَ النظر في ملتقاها مع السراب، فإذا صوبتَ النظر إلى أسفلها تراها اشتبكت واتصلتْ، فكأنما هي بُردةٌ من يانع نُسجتْ[43]، وخُضرتها بالأرض اتصلتْ، وكأنما هي رفرفٌ أخضر، على حاشية البحر الأهدر، وبين الجناحين يبدو[44] وادي "الغارون"[45] الذي شقَّ البرَّ والبحر معاً في آن واحد، فهو في البرّ أبيضُ بين أخضرين، وفي البحر أبيضُ بين أزرقين، فالأزرقان متماثلان، والأخضران متشابهان متقاربان، {مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان}[46]. ولمّا دَنونا من القنال[47] خرج منه مركب صغير ليقود مركبنا الكبير لِما في دخول الوادي من الخطر ومزالق الزلل، فصار الصغيرُ إماماً والكبير مأموماً لما عند ذلك الصغير من زيادة العِلم، فعلمنا أن الرياسة ليست بكبَر سن ولا بعظمة جثة، وإنما يستحقها من له مزيدُ علم ومعرفة،

---

(41) كلمة ساقطة لدى س.

(42) لدى س "ذلك".

(43) لدى س "يسحب".

(44) الكلمتان الأخيرتان ساقطتان لدى س.

(45) وادي الغارون LA GARONNE ينبع من جبال البيرنة الإسبانية، يمر من جنوب غرب فرنسا، طوله 647 كلم إلى الجيروند يمر من عدة مدن منه: Bordeaux, Castets, Agen, Toulouse D.E.H: 2/555.

(46) الرحمن: 18.

(47) Canal.

فتقَدم الصغير وتلاه الكبير يقتفي أثرهُ مُمثلاً أمرهُ لا يخرج عن خطه المرسوم، ورمزه المفهوم، ولله درُّ القائل[48]: (طويل)

تَـعـلَّـمْ فـليس المرءُ يـولَـدُ عـالمًا	وليس أخو علـم كمَنْ هو جاهلُ
فإن كبيرَ القـوم لا علـمَ عنـده	صغيرٌ إذا ضُمتْ عليه الجحافل[49]
ولا ترْضَ من عَيشٍ بدونٍ ولا يكنْ	نَصيبُك إرْثاً قدْمتْه الأوائل[50]

مع أن اتساع مصب الوادي لا يقل عن اثني عشر كيلومِطرا، وطوله إلى المدينة يقدر بمائة (100) كيلومطر. وعند دخول الوادي نقَصَتِ المركب من قوة سرعتها وسارت الهوينى، وكان ذلك أجمل بنا وأشهى لنفوسنا، فكنا نمتع النظر يميناً ويساراً في مناظرَ بلغت النهاية في الحسن والجمال الطبيعي والصناعي، بل ما رأيت أكملَ ولا أجمل من هذا المنظر إذ بعد خروجنا من البحر ودخولنا في الوادي صرنا بين ساحلين جميلين متماثلين في أن كُلاًّ منهما ذو أشجار باسقة، وأغصان متناسقة، على أرض خضراء، مكسوة لا ترى فيها غبراء، ننقل طرْفنا من منظر ماء الوادي الذي كان هادئاً صافياً إلى أرض خضراء مكسوة بِحُلَةِ النباتات الجميلة الخميلة، ومنها نُصعِّدُ النظر في الشجر النابت فوقها المجانِسِ لونُه للونها. فلونُ الأرض ربيعي ولون الشجر يانع ضارب إلى السواد، ومهما بعدت الأرض عن الماء واتسعتْ إلا وارتفعت وعلَتْ فعَلاها الشجر، فكانت رؤوسُ الشجر عند مُنقَطع النظر مطاولةً للجو، محاولة بلوغ السماء، ذات ترصيف وتصنيف، وبين تلك الأيك والغصون، التي تذهب مناظرها بالأتراح والشجون، وتجلبُ الأفراح للقلب المحزون، أبنيةٌ أنيقة ودورٌ بين الأغصان الوريقة منبثَّةٌ بين تلك الأحراج الغنَّاء كلآلئ أو دُرَرِ الماس نُثرتْ على خميلة خضراء، أو نجوم تلمع في السماء، في ليلة قمراء، وكم هناك على ضفة الوادي من

---

(48) ديوان الشافعي: 70-71.

(49) في الديوان "التَفتْ" بدل "ضُمتْ"، في م: المحافل بدل الجحافل: والتصحيح من الديوان.

(50) بيت غير موجود بالديوان وبدله:

وإن صغيـر القـوم إن كـان عـالمًا	كـبيـرٌ إذا رُدّت عـليه المحـافـل

جزيرة خضراء، لكن لم يقع فيها مؤتمر دولي[51]، ولا عهدٌ قولي غيرُ فعلي، ولكنها جزيرة حقيقة محاطة بالوادي إحاطة السوار بالمعصم، والمنطقة[52] بالخصر المكلثم[53]، وفي داخل منطقة الماء منطقة من الأشجار ذات ثمار وغير ثمار، حتى كأن الجزيرة حديقة، أو آنية زهر وربيع في وسط سريج[54] ماء غريقة، ووسط الجزيرة شُجيرات العنب ذات صفوف منظَّمة، وفلاحة مُقومة، ظهرت فيها فلاحة العنب بأكمل مظاهرها، وأعانتها الأرض بخصوبتها وجمال طبيعتها وحُسن موقعها، ومجاورةُ الوادي توافقها وترفقُها برطوبته[55] ووفرة المياه الدافقة وفصاحة أَلْسُنِ الطير الناطقة، وإن لم تكن ناطقة؛ وما أحقَّ تلك الجزر أن تُسمى جُزرَ الذهب، وكل جزيرة لا تخلو من دار ظريفة الشكل، وحديقة عديمة المثل، فما أقدرَ خالق الإنسان، وموَفِّقَهُ إلى إبداع ما يكلُّ عن وصفه اللسان.

لَعَمْرِ الله إن منظر هذا الوادي يسحر الألباب، ويوجب الإعجاب، ما رأيتُ مثلَه فيما وصلتُ إليه من الأقطار الإفريقية، فلو ضُربَ لي في الشعر بنصيب، ورميتُ في ميدانه بسهم مصيب، لَتركتُ وصف وادي الجواهر* وأبي رقراق*، ونظمتُ لهذا ما يُزين الأطواق، ويُعَمِّرُ الأوراق، ويُستحسن في الأذواق، فالمجال هنا واسع للشاعر والناثر، لا كما وقع لِمَنْ وصف الواديين المذكورين: ضاق به المجال فترك المقصود من ذكر المكان، وخرج

---

(51) يلمح إلى مؤتمر الجزيرة الخضراء بين الدول الأوروبية المتصارعة على احتلال المغرب المنعقد سنة 1906 والذي كان تمهيداً رسمياً لاحتلاله .مذكرات من التاريخ المغربي: 9/ 284. وانظر نص عقد المؤتمر في: عقد الجزيرة الخضراء، عربي -فرنسي، مطبعة طنجة، 1907.
وكان السلطان قد عرض على المؤلف المشاركة ضمن الوفد الممثل للمغرب في هذا المؤتمر إلا أنه اعتذر عن ذلك .الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: 4/ 208، (طبعة المغرب).

(52) المنطقة: شبه إزار فيه تكة تشد به المرأة وسطها .لسان العرب: نطق.

(53) المكلثم: المستدير وافر اللحم .المصدر السابق: كلثم.

(54) تحريف عامي مغربي لكلمة صهريج، وهي كلمة فارسية الأصل.

(55) لدى س "ويرفعنا رطوبته".

* "وادي الجواهر هو وادي فاس الشهير" (هامش للمؤلف الحجوي).

* وادي أبي رقراق هو الوادي الفاصل بين سلا والرباط. (هامش للمؤلف الحجوي).

لوصف السكان[56]. فمنظره هذا آخذٌ بالأبصار، يستوقف لمشاهدته المستعجلين من السُفار؛ فمَبدأه بالنسبة للداخل، وهو منتهاه، وسيعٌ فسيح، وما دام المركب يقترب بنا من المرسى والوادي تتقاربُ حافتاه ويجتمع فَخذاه، ويضيقُ عرَضُه على امتداد طوله، فكان شكلُه قريباً من المثلث وإن لم يكن قائم الزوايا[57]، وفيه من المراكب الراسية عدد كثير، كبير وصغير، شراعي وبخاري، يميناً ويساراً، من مصبِّه إلى المدينة، وكلُّ حافيته تقريباً كمدينة لعمارتها بالأبنية والدور والبساتين، وبالجملة فلقد أنساني[58] جمال هذا الوادي وحسنُ موقعه وتعدد مناظره الجميلة كل ما تقدمَ من ميْد البحر ومعاناة دوار الرأس وغثيان القلب وكرب الغربة، وكيف لا ينسي الأتراحَ والهموم بسيطٌ من الماء الصافي الذي لا موجَ فيه ولا لُجة، بريء[59] من ارتجاج عافَه[60] الذوق السليم ومُجِّه[61]، محاط بكل ما يستحسنه الطرْف ويهواه الناظر، ويتسلى به كلُّ خاطر[62]، من خضرة الأرض التي تنبسط تارة وترتفع أخرى، وبانبساطها وارتفاعها تعنو أغصان الشجر وترتفع، ولكن البعض أقصر من بعض، متناسقة متوازية كالمصلين في المساجد الجامعة راكعين قائمين؛ وناهيك بهذه اللذة العظيمة الممزوجة بلذة بشارة وصولنا لمأمن البر، وأمننا من سطوات الخصم، وثقتنا برؤيتنا البرَّ معاينة، وثبات قَدَم مركبنا، ودخول عامل النصب بعد تلاعب عوامل الرفع والخفض

---

(56) يقصد الشاعر محمد السليماني، وكان صديقاً للمؤلف، في قصيدة مطلعها:

سلا هل إلى وادي الجواهر من قرب ... وهل أنبتتْ حافاته عاطر العشب

خص فيها النهر ومدينة فاس ب 8 أبيات بينما خصص الباقي، 47 بيتاً، للشكوى من سكانها .اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب: 151-153.

(57) واضح أن المثلث لا يمكن أن يتوفر على أكثر من زاوية واحدة قائمة. والظاهر أن الوصف الأدبي أذهل المؤلف عن ذلك.

(58) لدى س "أنسانا".

(59) لدى س "براء".

(60) لدى س "عانه".

(61) لدى س "مجد".

(62) لدى س "ناظر".

به[63]، فلقد وجدنا من ملاذّ المسرات بذلك وجداناً لا نَقْدر على وصفه، ولو بلغ قلمي من الطلاقة ولساني من الفصاحة ما عسى أن يصل، إذ لا سبيل لاستيفاء وصف الوجدانيات التي لم توضع لها أوضاع لغوية تُوفيها حقَّها في البيان، وتكشف عما يلج في الجَنان. فلقد تهللت الوجوه واستنارت بعد العبوس، وسبحان مَن يتدارك عبيدَه بعد البوس.

وظلت أبصارُنا متمتعة بتلك المناظر الباهية، وعَمَّا[64] سواها لاهية، مدة خمس ساعات أقصر من مرور طيف خيال، أو خطور خاطر بالبال، وليتها قُدم لها صِفر أو صفران[65]، ولكن ساعات المسرة دقائق أو ثوان، ما فيها مهلة ولا تَوان. وبينما نحن كذلك إذا بعامل الجزم قد دخل على مركبنا فأحدثَ السكون، إذ وصلتْ لموقفها الأَمُون[66]، وسامتت الرصيف المدعو في اللغة الدارجة بالمون[67]. ولما سامتت رصيف شركة ترازأتلنتيك وقابلت مخزنَها على نهر الغارون[68] جعلت تمشي على جنبها الهوينى بكل حذر حتى وصلت إلى الرصيف. وهناك نزلت السكينة على السفينة، واستوت على جوديٍّ[69] حوض تكون به أمينة، ونُصب عليها مجاز خشبي منها إلى البَر.

وأول من صعد إلى المركب الجنرال بوردو، حاكم المدينة وأركان حربه قَدِمَ للسلام على الوفد نيابة عن وزير الحربية الفرانساوية، فرحب بنا غاية الترحيب وهنأنا بسلامة الوصول ومعه موسيو لُمير، نائب مستشار الدولة المغربية، فعرَّفَ الجنرالَ بكل واحد منا وهو الذي صحبنا إلى المحل الذي أعدته الدولة لنزولنا وهو فندق بايون الذي لا أجمل منه فيما رأينا بمدينة

---

(63) عبر المؤلف عن الانتقال من الاضطراب والاهتزاز بالرفع والخفض وعن السكون والهدوء ووقوف المركب بالنصب موظفاً هذه المصطلحات النحوية.

(64) لدى س "وعمن".

(65) أي ليتها كانت 50 أو 500 ساعة.

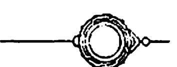
(66) لدى س "الأهون".

(67) المون: Mole وهو الحاجز الصناعي الذي يقام في الموانئ لتكسير حدة الأمواج تسهيلاً للملاحة: D.E.H. 2/ 838. ويعني بالدارجة اللهجة العامية.

(68) سبق التعريف به.

(69) إشارة إلى الآية الكريمة{وغيض الماء وقُضِيَ الأمر واستوت على الجودي.} هود: ٤٤.

بوردو. ونزل الجنرال معنا من المركب إلى أن أرْكَبنا الأوتومْبيلات التي أُعدت لنقلنا لمحل النزول. وكان وصولنا لمرسى بوردو في الساعة السابعة عشية الثلاثاء سابع شوال، ثامن يوليوز، وهنا تبدلتْ عنا الساعة المغربية لأن ساعة افرانسا بل وانكلاتيرة تتقدم على ساعتنا الآن بساعة واحدة ونصف، فالساعة السابعة هنا هي بحساب المغرب الخامسة ونصف تقريباً: فنصف ساعة كان معلوماً من قديم وزيدت ساعة في هذه الحرب العظمى اختلسوها من الليل وزادوها في النهار لقصد الاقتصاد في الضوء[70] وغيره.



وصف مرسى بوردو

وهي مرسى تجارية فرنسوية من المراسي العظيمة التي هي نقطة اتصال بين فرانسا وإفريقيا وأميريكا وأوربا بحراً، وهي من حيث كثرة الحركة التجارية في الدرجة الثانية بعد مرسيليا. وواديها هو مرساها الطبيعي الذي يحمل الألوف المؤلفة من المراكب آمنة من تيار البحر، فهي مرسى طبيعي آمن وهو الذي صيَّر بوردو ذا أهمية كبرى بين المدن الفرانسوية. نعم المراكب الكبرى لا تدخله ولا تخرج منه إلاّ عند المد دون الجَزْر، لأن عمق الوادي عند الجزرْ غير كاف لسيرها على عِظَمِه. وهذا الوادي هو المسمى وادي الغارون[71]. من الأودية الشهيرة في العالم بكِبَره، فهو أشبه ببحر منه بواد إذ يصب فيه نهر الدُّردون[72] فينشأ من اجتماعهما نهر الجيروند[73] وهو خليج بوردو، وقد صنعوا على حافتيه رصيفين عظيمين عن اليمين واليسار على طول نحو تسعة كيلوميطر. وهذه الأرصفة تَسَعُ أزيد[74] من ألف سفينة تقف حذوها للوَسْق والوضع[75] دون احتياج إلى زوارق بل تخرج البضائع من

(70) يعني الكهرباء: Eléctricité.

(71) سبق التعريف به.

(72) La Dordogne: نهر طوله 490 كلم يصب في نهر الكارون المشار إليه أعلاه: D.E.H: 1. /400

(73) الجيروند: La gironde تتكون من لقاء النهرين المذكورين سابقاً La Garonne و La Dordogne، بطول 75 كلم: D.E.H. 2/ 569.

(74) لدى س: "تتسع لأزيد".

(75) يعني بالوسق التصدير وبالوضع الاستيراد.

المركب إلى الخزين[76] فترى هناك أصواف وجلود الجمهورية الفضية[77]، وسُكر وقهوة البرازيل، وكاوكاو فنزويلا، ونحاس شيلي، وقطن الولايات المتحدة مع الكاز والتبغ، وفحم انكلاتيرة وفحم روسيا، ورخام وزيت إيطاليا، ومعادن إصبانيا، وليمون البرتغال، وحبوب المغرب وحيواناته وفوسفاطه وبقية محصولاته، ومحصولات السينغال وغيرها من الممالك الإفريقية والأوربية والأميريكية. وأكثر ما رأيناه[78] فيها المعدات الحربية الأميريكية، والذخائر والمؤن التي أتت بها الولايات المتحدة للاشتراك مع فرانسا وحلفائها في الحرب الأوروبية العظيمة، حتى أنها صنعتْ أرصفتها على حافة الوادي وبَنَتْ المخازن وجعلت مرسى عظيمة خصوصية لذلك، ومدت الخطوط الحديدية والتلغراف والتلفون ومهدت الطرُق الصناعية، حديدية وغيرها، من بوردو إلى ساحة القتال بحيث كانت المواصلة من أميريكا بحراً وبراً في غاية السهولة والنظام، وستأتي الإشارة إليه.

ودون هذه الأمور الحربية فإن مرسى بوردو تزيد على ثلاثة ملايين طون[79] بضائع توضع فيها كل سنة وتُحمل منها. وفي واديها عدة منائر تضيء الطريق للسفن الداخلة والخارجة من الوادي وأعظمها منارة كوردُفان[80] البالغ ارتفاعها سبعين ميطراً تبلغ أنوارها الممتدة مسافة ثلاثين كيلومطراً.

مدينة بوردو[81]

هي من أعظم مدائن فرنسا، ذات الصنائع النفيسة والفنون والعلوم،

(76) الخزين: المخزَن في العامية المغربية.

(77) الجمهورية الفضية: ترجمة حرفية من المؤلف للأرجنتين .Argentine

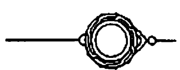
(78) لدى س "رأينا".

(79) طون: طن: .Tonne

(80) منار كوردفان: رجح ذ. سعيد بنسعيد العلوي أنه Phare de Cardouan: من مآثر بوردو أنشأه لويس الطيب في القرن التاسع للميلاد وجُدِّدَ عدة مرات .أوروبا في مرآة الرحلة: 110.

(81) انظر في شأنها المصدر المذكور بآخر هذا الهامش، ولعله يقصد أوان كونها عاصمة لـ Bituriges ثم مقاطعة رومانية (370-508 م)، غير أن أوج ازدهار تجارتها كان لما خضعت للانجليز (1154-1453 م)، وذلك بفضل تجارة الخمور: 148/ 1: .D.E.H

أبنيتُها غاية في الضخامة، لا سيما الكنائس والملهى، يسكنها نحو 700 ألف نسمة[82] وهي تبعد عن باريز 578 كيلوميطراً. وفيها منتزهات جميلة للغاية وطُرُقها في غاية الانتظام والاتساع المناسب لما فيها من الحركة وعدد السكان.



فندق بايون

فندق بايون هو من أحسن وأجمل نزل في المدينة: بناؤه لطيف، وفناؤه نظيف، وأثاثه أنيق، ورياشه رقيق، و[83] من أحدث طراز وأجمله وأفخره، وبيوته كاملة المرافق، في كل بيت من بيوت نزلنا الماء البارد والحار والمُغْتَسَل[84] (المغطس)، وبناؤه وشكله موافق للصحة ومطبخه من أحسن المطابخ. ولذلك كان هو نزل مولاي عبد العزيز، سلطان المغرب السابق[85] مدة الحرب حيث كانت إقامته في بوردو إقصاءً له عن المغرب الأقصى.

وفي يوم الأربعاء وجه لنا حكام البلدية الأتومبيلات فركبناها وطُفنا في المدينة فوجدناها من أحسن المدائن الأوروبية وأجملها. شوارعها غاية في النظام والاتساع المناسبينْ لكِبَرِها. وبناؤها جميل وشاهق ذو خمس طبقات إلى سبع، وهي من أقدم مدن افرانسا، إذ ثبتَ في تاريخ افرانسا أنها كانت عظيمة التجارة في القرن الثاني للميلاد وبها كنيسة عظيمة غريبة الشكل[86] على نمط كنيسة ميلان[87] الشهيرة في العالم، كل جدرانها مزخرفة من خارج وبها برج شاهق متسع من أسفله ولا زال[88] كلما علا يستدق شيئاً فشيئاً إلى أن صار رقيقاً جداً، فإذا علوتَه رأيت جميع مدينة بوردو.

---

(82) في م ولدى س "نحو 700 مائة ألف نسمة" وحذفنا لفظ "مائة" المضاف سهواً من الكاتب والذي يجعل عدد السكان مبالغاً فيه جداً.

(83) الواو ساقطة لدى س.

(84) لدى س: "المغسل".

(85) (-1362 هـ): موسوعة أعلام المغرب: 9/ 3168.

(86) انظر في شأنها أعظم كنائسها: D.E.H: I/148.

(87) انظر في شأنها المصدر السابق: 2/ 828.

(88) لدى س "يزال".

وطُفنا بجانب وادي الغارون الذي شق المدينة من أعلاها إلى أسفلها، فرسم فيها شبه[89] نصف دائرة، وتفرجنا على القنطرتين العظيمتين فوقه، وهما متوازيتان، إحداهما حديدية على أقواس بناء عالية عددُها ستة عشر قوساً غاية في الضخامة، تسلك تحتها المراكب الصغرى وفوقها الأتومبيلات والمشاة وغيرهم. تَسَعُ أربع عجلات على الأقل في وسطها، دون ممشى المشاة يميناً ويساراً، وهذه القنطرة من عجائب الدنيا وغرائب أعمال البشر، أعظم من قنطرة إسكندر الثالث التي على وادي لاسين[90] في باريز، لأن هذا الوادي أعظم من وادي لاسين بكثير، اللهم إلاّ ما كان من قنطرة قسمطينة[91] في أرض الجزائر فيظهر لي أنها أعظم من هذه فيما أظن. وقد تأسست هذه القنطرة قبل اليوم بنحو ثلاثين سنة، وبإزائها القنطرة الأخرى الحديدية أكثر منها ارتفاعاً وأقل اتساعاً تمر عليها السكة الحديد. ولما توسطنا القنطرة الأولى رأينا منظراً من أحسن المناظر، وهو متسَع من الماء أسفل منا، وجنات العنب يميناً ويساراً مما يأخذ باللب ويستهوي حاسة البصر، فترى الوادي على اتساعه محفوفاً بزرابي خضراء جميلة منمقة بالأزهار والأشجار، تحفها الأشجار العالية ذاتُ الظل الممدود، والماء العذب المورود، بينها أبنيةٌ لطيفة الشكل كلها غُرَر في جبين هاتيك الأرض الجميلة التي وجدناها كأنها أرض المغرب في شهر مارس، وهناك سِرْبٌ من البقر الضليع[92] سائمة[93]، وأجسامها ناعمة[94]، بكثرة ما حولها من أنواع النبات الخصيب، والجو الرطيب. ومررنا في طريقنا هذه على عساكر الأميريكان وخزائن ذخائرهم التي لا تزال البواخر ترُد الكثير منها إلى أميريكا الشمالية، من مدافع هائلة وآلات الجر والحمل والسكك الحديد الممتدة من هناك إلى مواقع القتال. ومن

---

(89) لدى س "ما يشبه".

(90) وادي لاسين: La seine، نهر باريس المعروف ينبع من هضبة Langers، طوله 776 كلم، يمر بالحوض الباريسي ويصب في المانش: D.E.H: 1165.

(91) قسمطينة: يعني قسنطينة المدينة الجزائرية على البحر المتوسط، انظر: معجم البلدان: 4/ 349.

(92) الضليع: طويل الأضلاع الضخم من الحيوان: لسان العرب: ضلع.

(93) السائمة: الأنعام المرسلة للرعي حيث تشاء ولا تعلف: المصدر السابق: سوم.

(94) لدى س "نائمة".

العجب أنهم يرُدّون كل شيء إلى بلدهم وما باعوا شيئاً ولو من أثاث بيوتهم التي لا فائدة في ردها، بخلاف النجليز، فقد باع في فرانسا كثيراً من المؤن ولوازم الحرب كالصوف، بل حتى الخيل باع منها شيئاً كثيراً ولا زال يبيع. وهناك يتصور الإنسان قوة أميريكا وما بلغت إليه من الثروة والاستعداد. وكذلك رأينا شيئاً كثيراً من خزائنهم وذخائرهم في الطريق بين بوردو وباريز. ففي مدة قرن ونصف تبلغ أمة حديثة الاستقلال هذه العظمة؟ إن ذلك لشيءٌ عجيب! وما كان استقلال هذه الدولة إلاّ سنة 1776 مسيحية[95]. فهنا يتحقق العاقل مغزى قوله تعالى: ﴿إن يشأ يُذهبكم ويأت بخلق جديد﴾[96].

ورأينا هناك بقربهم قنطرة برية طويلة عالية شاهقة ممتدة على البر من شاطئ الوادي إلى محطة السكة الحديدية الداخلة إلى أرض فرانسا وتلك القنطرة من أسلاك مكهربة تجري فيها جِفان حديدية معلّقة في عجلات صغيرة مُماسّة للسلك الكهربائي، وقوة الكهرباء تدفع العجلات التي عُلقت فيها الجفان، وتلك الجفان تُملأ فحماً حجرياً من المراكب البحرية وتذهب من الوادي إلى المحطة الحديد محمولة في الفضاء. فإذا سامتت المركبةُ المعلقة قطارَ السكة الحديد انكفأت فيه مُسرعة، فانهار ما فيها من الفحم بداخل القطار، وكل جفنة فرغتْ رجعتْ على غير طريقها بسرعة إلى المركب الحامل للفحم في الوادي فتمتلئ وتذهب ثانياً وهكذا. فهذا عمل ليس بهين، ولو أُريدَ أن تُستخدم له الأيدي لخدمت فيه المئات من الناس، لكن بواسطة هذه القنطرة وقوة الكهرباء توفرت الأعمال والأموال، ووقعت السرعة في بلوغ الآمال. وهذه القنطرة محمولة على جادّة الطريق المارة من المدينة إلى قنطرة الوادي، وتمر تحتها المشاة والركبان فلا يسقط شيء من تلك الجفان عليهم ولا مما هو محمول فيها، بل جعلوا تحت الجفان شبكة حديد احتياطاً خوف[97] أن يسقط

(95) أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية استقلالها في 4 يولوز 1776 م: D.E.H. 1/470.

(96) فاطر: 16؛ إبراهيم: 22.

(97) لدى س "فوق".

شيء منها على المارة. فإذا كنتَ ماراً هناك ترى صفاً من الجفان الحديدية، مُلْوّاً فحماً حجرياً ماراً فوق رأسك من الوادي إلى المحطة الحديدية: لا جارٌ له ولا دافع إلا قوة كهرباء السلك، وصفاً فارغاً راجعاً كذلك، وأنت في غاية الاطمئنان من سقوط شيء منها. وإن القوة لله وحده.

زيارة حكام بوردو والمجلس البلدي ومتحفه

وفي اليوم الثاني من دخولنا، وهو يوم الأربعاء، زرنا الجنرال حاكم المدينة العسكري، ومنه توجهنا لزيارة البلدية فزُرْنا شيخ المدينة، وكان غائباً عنها، فقام نائبه مقامه وقابَلنا مقابلة لطف وأدب مثل مقابلة الجنرال أيضاً، وهذا خُلُق عمومي[98] في الفرانساويين، ولكنه يزداد لطفاً وإيناساً في أكبرهم رتبة على قدر زيادة ترقيهم. فتجد شيخ المدينة مَثلاً أزيد أدباً ولُطفاً ممن تحته في الرتبة إذ لا يُرشح للمناصب الكبار عندهم إلاّ الكبار، وليس المراد الكبار الجثة أو العمامة أو، أو، بل الكبار قلباً وعلماً وأخلاقاً، ولقد أدخلَنا هذا الرجل لمحل اجتماع المجلس البلدي وأرانا كيفية جلوس الأعضاء في مقاعدهم. وأجمِعُ لك وصفَ هذا المجلس بأن نقول إنه على قدر عظمة المدينة ورفاهيتها وحرية أفكار أهلها وارتقائهم، فلا تَقِسْه ببلدية فاس[99] مثلاً. ثم أدخلنا لمتحف البلدية في جوار المجلس وهو متحف مهم في بيتين[100] أحدهما يُدخل منه للآخر[101]، وكل منهما عبارة عن قبة كبيرة مربعة في استطالة طولها نحو العشرين ميطراً فأكثر، وعرضها نحو النصف من طولها، عالية البناء جميلة الزخرفة. وأما التُحَف التي فيها فجُلها عبارة عن مجموعة تصاوير كثيرة غالبها صور أناس من اصبانيا كانوا قبل مائتي سنة. ورأيت لباس نسائهم يقرب من لباس نساء الجزائر، فعلمتُ أن غالب

---

(98) يعني خلق عام.

(99) أسس أول مجلس بلدي بفاس بظهير شريف في 2/ 9/ 1912 يضم 15 عضواً، كما صدر ميثاق بلدي لتنظيم المجالس البلدية بالمغرب، سنتين قبل تاريخ هذه الرحلة .فاس منبع **الإشعاع في القارة الإفريقية**: 1/ 370.

(100) يعني بـ "بيتين": غرفتين، وهو استعمال مغربي عامي.

(101) لدى س "الآخر".

زي نساء الجزائر أتاها من الأندلس. وكل ذلك مرسوم بيد رسام اصبنيولي كان حاضراً معنا يرينا ذلك، والمقصود تمثيل الذوق الاصبنيولي في التصوير الملوّن الذي يطابق طقس أرضهم الصافية الأديم من السحاب بخلاف جو فرانسا الذي يكون مغيماً غالباً فلا يكون فيه التصوير مماثلاً لإصبانيا. ورأينا هناك من جملة التحف[102] مقعد جلوس ملك إصبانيا، من أنفس المقاعد مدهون بدهن صَيَّره كأنه معدني لا خشبي، وبعض أثاث بيته وصورته وصورة زوجته وقرابته. هذا في القبة الأولى، أما[103] الثانية، وهي أعجب من الأولى، ففيها مثل تلك[104] الصور في عمل النسخ على طريق أهل الصين.

وبعد الزيارة رجعنا لنزلنا، فجاء الجنرال ورد الزيارة، ثم بعده رئيس البلدية وحاكم البلدة[105] وفي هذه الليلة قدِم بقيةُ أعضاء وفدنا عن طريق إصبانيا ونزلوا في فندق بوردو، وهو من المنازل المهمة في المدينة أكبر بناءً وأضخم من النزل الذي كنا فيه، ولكن من حيث حسن الشكل وظرافة الزخرفة الأولُ ألطَف، لأنه أحدثَ بعده: فهو من آخر طرز[106] هناك.

واجتمعنا بهم صبيحة الغد، وركبنا جميعاً وزرنا بعض أحياء المدينة ومَتَّعنا النظر في بعض ضواحيها المزينة بأنواع الفلاحة الراقية، وفيها الحيوانات الراتعة وخصوصاً نوع البقر، فالبقر هنا أعظم وأضخم من بقر المغرب بكثير، ويقولون إنه من نسل بقر سويسرا الشهير في العالم، فالبقرة هنا تعدل بأربعة وأكثر من بقر المغرب لِعظَم جثتها وكمال جسمها، وربما استعملوها في جر الأثقال، وفي الغالب يحرثون عليها[107] فهي التي تجر آلة

---

(102) كلمة ساقطة لدى س.

(103) أضاف س بين الكلمتين "أما في القبة".

(104) في س "ذلك".

(105) في س "البلدية".

(106) يعني بطرز هنا شكل ونوع، أي من أحدث أنماط البناء.

(107) "يحرثون عليها": استعمال مغربي عامي يعني يحرثون بواسطتها.

الحرث والحالة هذه، وهي في غاية السِّمَن كأنها لا تعمل شيئاً من كثرة المرْعى لكثرة الأمطار والمياه وحسن المقابلة[108] ورُقي فن الفلاحة وفن تربية الحيوان، فإننا ما دمنا في بوردو والمطر يتعاهدنا رَذاذاً وديمة[109]. فكيف لا تكون الحيوانات سمينة، ضليعة بأغلى قيمة، ولو جرَّت الأثقالَ العظيمة؟

توجه الوفد إلى باريز



ويوم الجمعة 11 يوليوز توجه الوفد بهيئته الرسمية إلى باريز، عاصمة الجمهورية الفرانسوية. فركبنا القطار من محطة بوردو الحديدية في الساعة الثامنة صباحاً وتوجهنا والعناية الإلهية تقدُمنا بخير وسلام، فمررنا بأرض جميلة متنوعة المناظر آهلة عامرة بأنواع العمائر والسكان والقرى والمدن. فمررنا على مدينة روا[110] التي فيها قصور ملوك افرانسا[5]، كانوا ينزلون بها للاستراحة من الصيد في تلك الغابات الغَنَّاء التي بين بوردو وباريز. فإنا منذ خرجنا من بوردو ونحن نرى أشجار الغاب حافة بنا عن اليمين والشمال وبينها المزارع والفلاحات والأودية والمياه والمنازل والدور والقصور والضياع والقرى والدساكر[111]. فلا تلتفتُ يميناً ولا يساراً إلاّ وترى شيئاً من ذلك، إما كلاّ أو بعضاً، ولا ترى شبراً من أرض مُهمَلاً، والفلاحة العصرية راقية وآلاتها العصرية كثيرة، ولا ترى قرية إلاّ وطرقها منظمة، ولا ترى غابة إلاّ وهي صيِّنة[112]. ولا ترى وادياً إلاّ وعليه القناطر، ولا ترى

---

(108) المقابلة: العناية، في العامية المغربية.

(109) الرذاذ: المطر الخفيف الساقط كأنه غبار. الديمة: المطر الدائم في سكون بلا رعد ولا برق: لسان العرب: رذذ - ديم.

(110) رجح مترجما الرحلة أن يكون الأمر متعلقاً بمدينة Tours بدل Rouen: Voyage d'Europe: 28 وتقع المدينة الأولى كما هو معلوم بعيداً نحو الشمال من باريز: المدينة المقصودة، وربما كان سبب ذلك أن كل واحدة من المدينتين كانت في وقت من الأوقات مقام قصور بعض الملوك الفرنسيين: انظر: D.E.H: 3/1124 et 1282.

(111) الدساكر: ج دسكرة: معرب: مجتمع عمراني صغير، وأصله قصر للملك حوله بيوت للخدم والحشم: لسان العرب: دسكر .معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية: 182.

(112) صينة: محمية محفوظة.

طريقاً إلاّ وهي صالحة إلى أن وصلنا إلى باريز في الساعة التاسعة مساء.

ووجدنا في محطتها بعض الضباط الفرانسويين نائباً عن وزير الحرب، والموسيو بومارشي، الكاتب بوزارة الخارجية نائباً عن وزيرها، وترجمان المقيم العام مسيو نهليل[113] الذي كُلِّفَ برُفقتنا. فسلموا علينا مهنئين هاشين باشين مظهرين أكمل اعتناء وأحسن اقتبال، وقدّموا المرْكبات فركبنا وذهبنا إلى محل نزولنا في كران أوتيل، أي أعظم فندق، ولما دخلنا هذه المدينة أخذت الدهشة بأبصارنا وقلوبنا لما شاهدنا من جمالها الباهر.

وصف باريز

هي عاصمة افرانسا، بل عاصمة العلوم العصرية والآداب الأوربية والأخلاق الجميلة، والأموال الجليلة، والظرافة واللطافة والكياسة والسياسة، بل أنموذج الكياسة، وموقف السياسة، ومسعى التجارة والكسب، ومسعَر الهيجاء والحرب، معدن المدنية[114] العصرية، والنظامات الأوربية، والحرية المنظمة، والأُخوة المحكَمة، والمساواة الملزمة[115]، والاختراعات البديعة، والشوارع الوسيعة، وطرق المواصلة الممهَّدة، والمرْكبات التي تقرب من عدد النجوم المنجَّدة[116]، والجمال الفاتن، في المنازل والساكن[117]، وما في داخل المساكن، وكل ما تقع عليه عينك فيها فهو مستحسَن وبالطبع آخذ وفاتن. وبالجملة فهي حِلية مَعاصم العواصم، وأجمل مدينة قُطعت إليها أكبادُ الرواسم[118]. فسبحان مَن جَمَعَ لها الجمال وتجلى عليها بالجمال الدنيوي الظاهر، في كل شيء يراه الناظر: فأهلها ذوو ذوق لطيف مصيب، لا يميلون في أزيائهم ولباسهم ومنازلهم داخلها وخارجها إلاّ لجميل، فلا يقع

(113) سبق التعريف به.

(114) لدى س "المدينة".

(115) يشير إلى شعار الدولة الفرنسية: حرية - أخوة - مساواة.

(116) المنجدة: وصف للمراكب، أي الحسنة التأثيث مع زينة: لسان العرب: نجد.

(117) لدى س "المساكن".

(118) الرواسم: ج رسم: الناقة التي تؤثر في الأرض من شدة الوطء لقوتها: لسان العرب: رسم.

طرْفُك ولا يلمح ناظرُك إلاّ الجمال في وجوه السكان وأخلاقهم ولباسهم ودورهم وحوانيتهم ومواضع الأكل والشرب والنوم والطرُق. وحتى المرْكَبات جميلة لطيفة مُمَوَّهَة بأدهان متنوعة ذات ألوان تأخذ بالأبصار، مجرورة بالأفراس أو النار. بل عربات النقل نظيفة، والحيوانات التي تجرها لا ترى فيها عجفاء، ولا عرجاء ولا عوراء، ولا متسخة ولا بشيعة، بل لا ترى في الشوارع التي تمر بها شيئاً من المحمولات بشيعاً أو قبيحاً، فإذا كان بشيعاً سترُوه بأكياس مثلاً، فلا تقع عينُك إلاّ على جميل.

قال بعض الرحالين: أجمعتْ آراء العالم قاطبة أنها أول مدائن الأرض زهاء وبهاء، ما رأى الناس منذ قامت الحضارة لها نظيراً في جمال شوارعها ومبانيها ومتاحفها وحاناتها ومُنتَزهاتها[119]. ويدل لهذا أنها مَطمح[120] أنظار القاصدين من أوربا وآسيا وإفريقيا وأميريكا، فأصحاب المدائن العظمى الراقية يأتونها للتنزه والتفرج والتقليد على مدنيتها الساحرة ينقلون عنها طرائق التمدن الحديث، ويتغنون بها في كل حديث، وعلى قبح الغربة، التي أجمعَ أهلُ العقول أنها كُربة، تتمنى ملوك الأرض ومُتْرَفوها أن يكونوا غرباء في باريز، فهي مأوى المتنعِّمين والضالة المنشودة للمترَفين. غير أنها كعبة الطائفين للتهتك لا التنسك، وركنٌ للتفرج[121] والتفسح لا التبرك، مَرسَح[122] التفنن في الأزياء الكثيرة، والزخارف الوفيرة، والرَّفَه البارع، والتهتك بدون وازع، وترتيل آيات الملذات بالتجويد والمد والإشباع[123]، وإيقاع المثالث والمثاني[124] الآخذ بالقلوب والأسماع.

---

(119) انظر شبيهاً لهذا الكلام في: كتاب الرحلة الموسومة بالواسطة. . .: 253.

(120) لدى س "مطمع".

(121) لدى س "التفرج".

(122) لدى س "مسرح". ومرسح: مسرح، على القلب المكاني، انتقلت إلى المغرب كما كانت تستعمل في الشرق كمصر مثلاً، عبر الفرق المسرحية التي كانت تزور المغرب، وقد استعملت كلمة مرسح في صحافة الفترة بالمغرب، انظر مثلاً جريدة السعادة: 10/ 7/ 1919.

(123) المد والإشباع مصطلحان في علم تجويد القرآن الكريم يرتبطان بزيادة مسافة الصوت ومده، استعملهما للدلالة على الزيادة والمبالغة في الملذات.

فإذا وصلتَ إلى مواضع التجارة ومخازن البضائع، فهناك يُبهَت طرفُك في نضارة المحل وزخرفته وجمال منظره ثم في منظر البضاعة وتنسيق وضعها كل جنس مع جنسه، ونوع مع نوعه، زد على هذا أن بضائع باريز هي من أحسن البضائع وأحدث المخترعات. وإذا نظرتَ إلى من يبيع وجدته نظيفاً ظريفاً، ذا كسوة جميلة، ووجه بشوش، وأخلاق كريمة، وتربية حسنة وصبر وحِذق، فيكون ساحراً لك فتشتري منه رخيصاً أو غالياً. وهكذا إذا دخلتَ إلى محل الأكل والشراب، أو محل اللهو، أو محل الجد، أو محل السياسة، أو محل العِلْم إلا وترى الكل جميلاً مُجمَّلَ الهيأة، جميل الخَلْق والخُلُق، فكل يوم يمر عليك في باريز تظن فيه أن سكانه في أعظم عيد لهم. فسبحان من تجلى عليهم بكل جمال دنيوي، فلا ترى عبوساً، بل كل من يقع عليه ناظرك تراه جَذِلاً ضاحكاً إلاّ الجو فإنه كثيراً ما يكون هناك عبوساً أو باكياً. ولكن الأرضَ ضاحكة لبكائه، فَشَكلُ أرضه مخالف لشكل سمائه، ولا تظهر الشمس وكمال الصحو في النهار كله، بل إذا أضْحَتْ صباحاً أغيمَتْ عشية، وبالعكس غالباً.

وإنها لأوَّل المدائن العظمى معارف وفنوناً جميلة، بل يحق لها أن تُعد مدرسة للفنون الجميلة في العالم، وإنها لأعظم المدائن مدارس ومستشفيات ومتاحف ونوادي علوم، ومطابع وقاعات صناعات، وملاهي ومراسح وحانات؛ فهي بؤرة اللطف والرشاقة ومَطمَح الذوق السليم العالي، والاختراع المثمر للمعالي. ولقد أعانهم على هذا وذاك اقتدارُ رجالهم العظماء وسعة معارفهم مع علو هِمِمِهم[125] وكمال النظام في الأعمال والأحكام، وما فُطرَ عليه أهلها عموماً من الشغف بالنظام في كل شيء، وإتقان كل عمل يأتونه، وعُلُو الهمة في الترفُّه وحب الجمال والتظاهر بالكمال، والهيام بالعلوم والمعارف. وأساس ذلك كله هو العِلم، فالتعلم عندهم إجباري على الرجال والنساء، فكل صبي بلغ سن التعلم لابد أن يدخل المدرسة ويتعلم التعلم الابتدائي: القراءة والكتابة، ومبادي الحساب والتاريخ والجغرافيا

---

(124) المثالث والمثاني: أوتار العود. ومنه كتاب: رنات المثالث والمثاني في روايات الأغاني.

(125) لدى س "علومهم".

والأدب. ثم مَن كان غنياً وأراد التعلم الثانوي تقدم إليه، ومن كان فقيراً أو ليس[126] له داعية للعلم فلابد أن يعرف صناعة من الصناعات. ولذلك ترى قدراً من العلم اشترك فيه الذكر والأنثى، والغني والفقير. بذلك القدر ارتقى مجموع الأمة من الحضيض الذي وقع فيه مجموع الأمم الغير متمدنة التي لا يعرف غالبُ أفرادها كتابة ولا أدباً ولا حساباً، ولا، ولا... كأهل المغرب الأقصى مثلاً. ثم هذا الذي قررنا ليس خاصاً بأهل باريز، بل عموم افرانسا يوجد فيها هذا القدر من التعلم، بل عموم أوربا تقريباً. فكل مدينة أو قرية أوربية ترى فيها المدارس مُشيَّدة، ونوادي العلم عامرة، وقد نُظمت لذلك جمعيات في كل مدينة أو قرية، زيادة عن الحكومات التي جعلت للمعارف وزارات، فهم لا يتكلون على الحكومة في كل شيء شيء مثلنا، ولا سيما في العلم الذي هو أهم ما يهم. ولذلك سادت غيرها من القارات، إلاّ ما كان من أميريكا الشمالية، لكن أهل باريز أزيد عِلماً وأدباً من غيرهم لِلُطف طباعهم ولما فيهم من القابلية الزائدة عما في غيرهم. ولهذا استَبحر العمران في باريز وازدادَ عدد سكانه[127] وكثرت قُصاده من الآفاق البعيدة.

باريز على بعد مائة وخمسة فراسخ من لندرة، وهي في عرض...[128] تبعد عن خط الاستواء، وأطول أيامها ست عشرة ساعة وست دقائق وأقصرها ثمان ساعات وعشر دقائق، ومساحته الآن تبلغ 7802 هكتاراً، أبوابها 60 باباً، وتسعة أنفاق للسكة الحديد، وعدد محطاتها سبع كما في "**كشف المخبا**[129]". ومحيط دائرته يبلغ 36. كيلوميطراً، طولها من الشرق للغرب 12 كيلوميطراً، عرضها من الشمال للجنوب 7 كيلوميطر. وعدد سكانه نحو ثلاثة ملايين نسمة، وفيها نحو ثمانية آلاف حديقة وساحة لراحة السكان والنزهة العمومية. وعدد دوره ومنازله ومخازن التجارة يعد بعشرات

---

(126) لدى س: "فقير أو ليس".

(127) يلاحظ تذكيره باريز، وكذا فعل في الجمل الموالية.

(128) فراغ في الأصل وسيذكر لاحقاً انها على خط عرض: 95-49.

(129) يتفق مع الشدياق في أطول الأيام وأقصره: 240. غير أن أغلب ما أورده يتفق فيه مع مواطنه ومعاصره عبد الله الفاسي .حديقة التعريس في بعض وصف ضخامة باريس: 6-7.

الألوف. وفي البلد على وادي لاسين سبع وعشرون قنطرة، معلقة وغير معلقة، مختلفة الأشكال بين قناطر حجرية وحديدية أحسنها وأبدعها قنطرة إسكندر الثالث[130]، بُنيَت على قوس واحد قريبة من دار الندوة[131].

عدد المصابيح التي تُنار بها الطرق 53888 أو تزيد، بين جاز[132] وكهرباء. وعدد العربات السيارة[133].. .وعدد البُليس[134].. .وعدد مراكز البوصطي[135]... والتلغراف... والتلفون... وعدد مياطر[136] طرقه الكبرى المسماة بُلفوار[137] يزيد على 4300، وأضيق طريق فيه لا يقل عن... وأوسعه... وأوسطه... والطرق الكبرى التي تسمى بُلفوار جُلها فيها سكك الترامواي[138] وكثير منها لا يعمل فيها ذلك، بل اكتفوا بأتومُبيلات كبرى يحمل الواحد ستين رجلاً تسير دائماً لتوصل الناس من جهة إلى جهة، دون عدد عديد من الأوتومُبيلات الصغرى التي تحمل الواحد أو الاثنين أو الستة أو الأربعة. ولا زال هناك شيء من العربات تجره الخيل أو البغال، ولكنه قليل بالنسبة للأتومُبيلات ومع هذا كله جعلوا شوارع أخرى تحت الأرض متسعة تسير فيها عربات بالكهرباء بل قطارات، كل قطار يحتوي على خمس عربات وأكثر وأقل، كل عربة تحمل ما يقرب من مائة شخص فينزلون إلى هذه الشوارع بدرج تحت الأرض، يركبون فيها توصلهم من

---

(130) لعله قصد البابا Alexandre III (1181-) الذي استهل بناء كنيسة نوتردام بنفس المدينة D.E.H: 1/33.. 2/890 :(1163)

(131) يقصد المؤسسة التشريعية الفرنسية ويرجح مترجما الرحلة أن يتعلق الأمر بـ Palais Bourbon: Voyage d'Europe: 34.

(132) جاز: كاز Gaze ويطلق في العامية المغربية على الكحول المستعمل للإنارة.

(133) فراغات بالأصل. وفي ما يلي مردوفاب:...

(134) البليس: Police: الشرطة.

(135) البوصطي: La poste.

(136) مياطر: جمع ميطر أو ميتر في العامية المغربية: الأرض الواسعة الخالية التي كانت فيما قبل بستاناً، والقصد هنا الساحات الواسعة في شوارع المدينة:
Le Dictionnaire colin d'Arabe Dialectal Marocain: 7/ 1809 et 1843.

(137) Boulevards: شوارع.

(138) الترامواي: Tramway وهو وسيلة نقل داخل المدينة تسير على سكة وتعمل بالكهرباء.

جهة إلى جهة مع كثرة طرق المواصلة، وسهولة أسباب النقل والمراسلة، بها وصلتْ باريز إلى هذه الدرجة من العمران والسكان.

فما يُقال عن بغداد إنه بلغ عدد نفوسها مليونين فأكثر في دولة العباسيين ليس ببعيد. لكن حيث لم تكن فيها هذه المواصلة الموجودة الآن، فإنما كانت بمنزلة مدن متجاورَة، لا يصل هذا عند ذلك إلاّ لحاجة مؤكّدة وبعد مدة. أما باريز فالمواصلة ممكنة في أي ساعة بين أبعد أطرافها، بل تُكلم صاحبَك في أي محل كان وأنت على فراشك بواسطة المقول[139]. وهكذا في لندرة وغيرها من المدائن العظيمة.

حاصِلُه أن شوارع باريز وطرقَها غاية في النظافة لا تُلحَق، ولا يرى الإنسان في قُطر أو مدينة أحسن ولا أجمل ولا أوسع ولا أنظف ولا ألطف ولا أكمل من تلك الطرق. فهنا يقال ليس في الإمكان أبدع مما كان[140]، لولا ما تراه على جداراتها من السواد المتسبِّب عن كثرة الدخان لكثرة الوقود للدفء أيام الشتاء لشدة البرد، وينزل عليه الثلج فيلزق السواد فوق جداراتها فينقص من جمال منظرها وتذهب بهجة بياضها الناصع فيصير لونها كَدراً مُكدراً.

فإذا انتقلنا من شوارعها إلى منظر الدور، وهي في الحقيقة قصور، ومخازنها ورحابها فهناك يدهش اللُّب وتحصل الحيرة. فلا تظن أن تشييد القصور وتنجيد[141] المصانع قاصر على الملوك بل هو موجود لعموم الأمة، فغالب دور باريز هي قصور شاهقة، وفيها أيضاً قصور للملوك الماضين عظيمة لا نظير لها كقصر اللوفر[142] والتروكاديرو[143]، وقصور

(139) المقول يعني به التليفون.

(140) قولة مشهورة للإمام الغزالي .تفسير ألفاظ الصوفية: 88-89.

(141) تنجيد: تأثيث رفيع: لسان العرب: نجد.

(142) قصر اللوفر: Palais du louvre على ضفة نهر الـ Seine اليمنى، بني أول مرة سنة 1204 ثم جدده وأضاف إليه ملوك فرنسا المتعاقبون، صار متحفاً وطنياً سنة 1791: .D.E.H.: 2/ 761

(143) التروكاديرو: Palais du Trocadéro: متحف قديم، وقد بنى مكانه قصر Chaillot، ويضم متاحف البحر والإنسان ومعالم أثرية فرنسية ومسرحاً تحت أرضي: .D.E.H: 1/ 219

فرساي[144] وغيرها وغيرها؛ وهي شيء عظيم آية في البناء في كل رَبع[145]، لا يكاد يوجد لها نظير في غيرها من العالم. وحيث إن غيري ممن رحل لباريز وصف هاتيك القصور وأفاض القول فيها، فلْنكتف بهذه الإشارة فإن الوصف في هذا المقام تقصير كما يقول الفقهاء في الوكالة، إذا طالتْ قَصُرتْ[146]، ففي غالب الشوارع والطرق ترى أمثال تلك المصانع، فغالب فنادق المسافرين التي تسمى أوتيل هي قصور عظيمة، بل وكذلك مخازن التجارة قصور، ومكتبات الكتب قصور، ووزارات باريز كل وزارة قصر عظيم، ودائرة البلدية قصر عظيم، وناهيك به، وهكذا شخصية باريز. ولْنَقصّ عليك حديث محل نزولنا، فمنه إجمال إشارتنا.

وصف نزلنا، وهو المسمى كران أوتيل

أنزلتنا الدولة في نزل اسمه كران أوتيل، وتعريبه النزل العظيم، هذا النزل هو في شارع ملهى الأوبرا[147]، الذي هو في وسط البلد تقريباً، من أجمل الشوارع وأوسعها وأحسنها، وهو بناء ضخم عال ذو سبع طبقات كما هي غالب أبنية باريز. طبقته السفلى التي هي على وجه الأرض، دعني من التي تحت الأرض، فتلك مستودَعٌ لا اعتبار به لكن التي على وجه الأرض، لما كانت في محل مقصود للتجارة تحيط به الشوارع الكبيرة الشهيرة من كل جانب، وكونها في دائرة هذا النزل الشهير في الأرض الذي يقصده السواح والتجار من أقطار العالم، لذلك جعلوا ما دار بالأوتيل حوانيت[148] يكريها

(144) قصور فرساي Versailles بضواحي باريس، بدأ Louis VIII بتأسيس نواتها سنة 1624-1632 فأضاف لها ملوك فرنسا المتعاقبون، وهي الآن مركز إداري وسياحي: .D.E.H. 3/ 1337

(145) ندى س "ربع".

(146) هناك نوعان من الوكالة: عامة وتكتب موجزة العبارة، ومشروطة بالزمان والمكان وغيرهما ويكتب نصها بإثبات كل الشروط، وهذا النوع هو الذي يقصده المؤلف إذ يكون محدوداً بشروط فيقصر مفعولها، بخلاف الأول الذي تكون عبارته موجزة ومفتوحة في الزمان والمكان وغيرهما. انظر مثلاً: القوانين الفقهية: 215-216.

(147) الأوبرا: Théâtre de l'Opéra معلمة من معالم باريز، أسست بين سنتي 1862-1874: Le théâtre national de l'Opéra de France. :وانظر أيضاً D.E.H: 2/ 908.

(148) حوانيت ج حانوت: كانت العرب تطلقه على بيوت الخمارين والحانات: لسان العرب: حنت. ويطلق في العامية المغربية على دكان التجارة.

صاحب الأوتيل للتجار، يُنزلون فيها رَوَامزَ[149] بضائعهم لأجل تشهيرها، بكراء ثمين. وكل حانوت يعدل اتساعها بضعة من حوانيت فاس، ومع ذلك فإنما هي محل الروامز والعَرَابين (المشاتر)[2]، يتعهدها صاحبها بالتنظيف، ومن لم يجد حانوتاً هناك جعل خزانة زجاجية واكترى موضعاً من صاحب الأوتيل وضعها فيه في بابه أو في داخله، وما اكتفوا بذلك بل وأجّروا منه سواري الأوتيل وجداراته لكتابة الإعلانات فيه كتابة ذهبية في رخام غاية في الإتحاف، فقد تزينت الجدارات وصار لها دخل وغلة من تلك الإعلانات. ثم في بابه محل لوقوف العربات يسع أربع عربات على شكل نصف دائرة. فإذا دخلتَ باب النزل، وجدت حانوتاً لبيع الجرائد والكتب[150] التي من جملتها كتاب "**دليل باريز**"[151]، فإذا كان عندك هذا الدليل، كانت لك معرفة تامة بأحوال باريز وعجائبها. فإذا دخلت دهليز الفندق وجدتَ صَرَّافاً يقبل منك السكة التي أتيت بها من بلدك ويبدلها لك بالسكة التي تريد، ولابد من الرّبا. وهذا المحل هو صندوق الفندق يقبض الواجبات من النازلين ويدفع رواتب المستخدمين فيه إلخ[152]. وعن يسارك تجد محل البريد والتلغراف والتلفون، فإن كانت لك رسالة برقية، أو غير برقية، لم تحتَجْ في تبليغها إلى البريد أن تخرج من الأوتيل، بل كل ذلك داخل الأوتيل ومن غير زيادة، إلا على سبيل الإكرام. وعن اليمين غرفة كبيرة فيها عدد من الكراسي والموائد للكتابة والكاغد[153] والدواة والأقلام، تكتب ما تشاء، وهناك مكلف بذلك وبتنظيفه وتقديم الكاغد لكل من يريده بدون شيء، كل ذلك داخلٌ في أداء كراء البيت والأكل. وهناك محل تُعلَم

---

(149) استعمل المؤلف "الروامز" للدلالة على العينة المعروضة من السلعة كما استعمل الكلمة العامية المستعملة لدى التجار المغاربة "المشاتر" ولها أصل في الفصيح فشَتَر تعني ضمن ما تعنيه قطع، لسان العرب: شتر. فكأنه قطع من السلعة شطراً ليعرضه. وقد استعملها رحالة آخر مصغرة "المِيشطرات" بنفس المعنى: العينة .إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار: 2/ 392.

(150) يعني الكشك .Kiosque

(151) يعني الكتيبات السياحية التي تصدر كل مدة: .Guide de Paris

(152) كلمة ساقطة لدى س.

(153) الكاغد: فارسي معرّب بمعنى الورق .الآلة والأداة: 300.

منه أسوام[154] البورصة وأثمان البضائع وأوراق الدُّوَل. وهناك ناد يجتمع فيه أهل السياسة، بهذا حصلت شهرة عظيمة لهذا الفندق طبَّقت العالَم. ثم إذا وصلتَ دهليز الباب وجدت المدارج الأولى التي يُصعد منها للطبقات العليا وبجنبها آلتان رافعتان خافضتان، يقال لهما السُّنْسور[155] يُصعَد فيهما بقوة مائية إلى سائر الطبقات وكل واحد منها عليها مكلَّف، مهما أردتَ الصعود أو الهبوط دققتَ الناقوس فأتاك راكباً آلته حيناً في أي طبقة كنت، فأخذك ومن معك وما معك من أدوات السفر مثلاً وأصعَدك أو أنزلك إلى حيث تريد من غير شيء، إلاّ ما تعطيه برضاك، ومثل تلك الدرج أيضاً وتينك الآلتين بعينهما في داخل الأوتيل، فلا يحتاج مَن كان داخله للخروج لِبابه ولا من كان في الباب أن يدخل، وذلك لكبره وسعة أرجائه.

فإذا دخلتَ من أُسْطُوان[156] الأوتيل وجدت عن يمينك قاعة عظيمة عليها قبة زجاجية ملونة فيها مصابيح على شكل السماء ونجومها. وفي ذلك البراح[157] أرائك ومتكآت ومقاعد لينة وموائد للجلوس والاستراحة والتحدث والموانسة وشرب ما تريد بثمنه. وهناك محل الموسيقى تكون كل عشية إلى المساء، في ساعة الأكل وبعده، وفيها محابقُ[158] أشجار نضِرة كأنك في رياضٍ سماؤه زجاج ملون. وعن يمين الداخل لهذه القاعة بيت الأكل، وهو بيت عظيم كبير يسع العدد العديد من الناس، وهو يُفضي إلى قبة كبرى شامخة معدّة لجلوس الآكلين أيضاً. فبيتُ الأكل هو بين قبتين

(154) أسوام: يعني أسعار الأسهم في البورصة، وقد كان المؤلف تاجراً كما يعرف من ترجمته، ولهذا الاستعمال أصل في اللغة: تقول سُمت فلاناً سلعتي إذا قلت أتأخذها بكذا. لسان العرب: سوم.

(155) السنسور: L'ascenseur: المصعد.

(156) أسطوان: فناء.

(157) البراح: المتسع من الأرض لا زرع فيه ولا شجر: لسان العرب: برح. ويستعمل في المغرب للدلالة على فناء البيت.

(158) محابق: من الحبق: نبات طيب الريح مربع السوق أبيض الزهر، وفيه أنواع كثيرة يسمى علمياً Ocimum basilicum: معلمة المغرب: 10/ 3310. ومنه اشتق المغاربة تحبق: أصيص.

عظيمتين إحداهما للراحة والثانية للأكل أيضاً. وعلى الأقل إن البيت والقبة يسعان خمسمائة آكل. وقد حضر للأكل هناك، يوم 14 يوليوز، أضعاف ذلك تناوبوا محلَّ الجلوس في الساعة الأولى والثانية. وفي محل الاستراحة محلٌ آخر للأكل، مفتوح إلى الشارع، ومحل آخر للمشروبات مفتوح للشارع، وهو القهوة التي تقدمت الإشارة إليها.

فإذا صعدتَ إلى الطبقات العليا وجدت هناك بيوت النوم التي تعد ألف ومائتي بيت كامل المرافق؛ ففي كثير من البيوت يوجد قاعة الانتظار أولاً قبل الدخول لمحل النوم، ثم تدخل لبيت النوم فتجد فيه سريراً أو سريرين للنوم ومقاعد للاستراحة لينة[159] ومقاعد مائدة الكتابة، وخزانة لوضع الثياب، وبيت الخلاء ومحل الاستنجاء، ومحل غسل اليد والوجه والرأس[160]، ومغطساً للغسل[161]. حاصله، البيت من الدرجة الأولى كأنه دار أحد الأغنياء تام المرافق، غير المطبخ. ومن الدرجة الثانية ينقص منها قاعة الانتظار. والثالثة ينقص منها محل الغسل مثلاً.

وفي أُسْطُوان الفندق الخارجي حلاقون: فكل مَن شاء الحلق والتزيين غير محتاج للخروج عن دائرة الفندق، بل في كل طبقة من طبقاته عدد من الحلاقين يحلقون بأجرة ويبلغ عددهم أربعين حلاقاً.

ثم الطبقة الأولى من الفندق تقسم على قسمين، كل قسم له مكلفون في بيت إدارة خاص تربطه مع بيوت النوم خيوط تلفونية، إذ كل بيت للنوم فيه التلفون تتكلم فيه[162] مع الإدارات الصغرى في الطبقات العليا، وخيط آخر تتكلم فيه مع الإدارة العامة في باب الأوتيل، وتُكلِّم به من تشاء داخل باريز وخارجها وأنت على فراش نومك. فهذا ما بلغت إليه الرفاهية في باريز. فإذا علمتَ هذا وتأملته، قِسْ عليه دور الأغنياء والموظفين

(159) يعني Fauteuil أو Canapé.

(160) يعني: Lavabo.

(161) يعني: Baignoire.

(162) كلمة ساقطة لدى س.

الكبار وإدارات السياسة وغيرها فتعلم مبلغ الحضارة في أوربا، ولكن تعلم أن البيت في هذا الفندق من الدرجة الأولى يُدفع في كرائه، مع ثمن الأكل في أوقات، ثلاثة مائتا افرنك، ومن الثانية مائتا افرنك، ومن الثالثة، وهي الدنية، خمسون افرنكاً في كل ليلة لا أقل منها، زيادة عن ما يُعطى للخدمة، وهي شيء لازم أيضاً، على حسب مدة الجلوس، وعلى الأقل عشرة في المائة من المدفوع.

وكل محلاته تُنار بالكهرباء، ففي البيت الذي كنت نازلاً فيه إثنا عشر مصباحاً كهربائية، منها ما يعادل مائة شمعة، ومنها ما يعادل خمسين. ولو رأيتَ عدد المصابيح التي في محل الاستراحة والانتظار، ومحالّ الأكل والشرب والكتابة لقضيتَ العجب، حتى انه جعل معملاً خاصاً به للكهرباء. وكل بيت من بيوته فيه الماء البارد والحار الجاري مهما أردتّه من أي طبقة من الطبقات. وكل بيت فيه دفتر أسماء المشتركين في التليفون بباريز، فمهما دخلتَ بيتك علمتَ جميعَ دور التجارة والسياسة والصناعة وغيرها في باريز. ومهما عرفتَ اللغة الفرنسية إلاّ وتوصلت إلى قضاء جل أغراضك بأيسر وسيلة، تجارة أو غيرها، وأنت على فراشك، وهذا الدفتر مجلد ضخم، كنصف القاموس.

ثم هذا الأوتيلُ بُني منذ ما ينيف على الستين سنة لتعلم تاريخ هذه الحضارة في باريز، وليس هو أعلى ما يوجد بل هناك ما هو أرقى وأحسن. وقد فصّلنا القول تفصيلاً في هذه الجزئية لتستنتج[163] منها أحوال عموم باريز وحضارته بحسب القياس والنّظير[164]. وإني لم أستوعب[165] ما في هذا

(163) لدى س "لتستنسخ".

(164) لدى س "والتنظير".

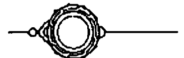
(165) يعني: لم أستقص.

(166) تظهر هنا شخصية الحجوي المطبوعة بانتقاد سير الإدارة، وهذا السلوك منه امتداد لوقوفه في وجه بعض موظفي المخزن الكبار أثناء ثورة أبي حمارة بالمغرب الشرقي أوانَ كان ممثلاً للسلطان هناك انظر: انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره.

الفندق استيعاباً لما عسى أن يحصل للقارئ من الملل.

وفي صبيحة يوم قدومنا لباريز زار رئيسُ الوفد مَن تتعين عليه زيارته كوزيري الخارجية والحربية ورئيس البلدية. وهذا شيء فهمته، لا سمعْتُه ولا رأيته، إذ لم يكن الرئيس يتنزل مع الأعضاء لإخبارهم ولا هم يحرصون على سؤاله. هذه هي الآداب العمومية بين الموظفين المغاربة[166]، وما أحَقَّنا أن يتألف بعضُنا بعضاً.

الاحتفال بعيدي النصر والجمهورية



وفي يوم 14 يوليوز كان الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنساوية المتضمن لعيد صلح النصر، وهاك البيان:

إننا وجدنا المدينة لابسة ثوباً من الزينة قشيباً، والأعلام الفرنساوية مع أعلام دول التحالف قد زُينت بها الشوارع والدور والمنازل، حتى قناطير وادي لاسين[167]. وجُعل في محل الاحتفال ومحل مرور العساكر التي تستعرض سواري خشبية عالية في الجو، مطلية بالأبيض مذهبة وعليها الرايات وشارة العيد وهو حرفان (R.F.)[168] مُقْتَضَبان من الجمهورية الإفرانساوية، وفي أعلاها[169] مصابيح كهربائية، ورسموا على قاعدة بعض السواري السابقة أسماء المعارك الكبرى التي وقعت بين الجيش الفرنساوي والأعداء، كمعركة المارن وإفيان وفردان وليل وغيرها[170]. كما نصبوا في وسط قوس النصر[171] تمثالاً خشبياً تذكارياً لشهداء الحرب الكبرى العالمية.

---

(167) سبق التعريف به.

(168) اختصار .République Française

(169) لدى س "أعلاه.".

(170) من المعارك التي صمدت فيها فرنسا أو انتصرت إلى جانب حلفائها في الحرب العالمية الأولى أهمها Verdun 24 /6/ 1916 بقيادة الجنرال Pétain وكذا La Marne بقيادة الجنرال Joffre: D.E.H: 2/ 596-2/ 795-3/ 1334.

(171) قوس النصر: الموجود بساحة النجم بباريس والأصل فيه L'arc de Triomphe d'orange الذي بناه قيصر روما مخلداً انتصاره على الغاليين: 93: Napoléon, Eric Delmotte. رحلة الصفار إلى فرنسا، دراسة وتحقيق سوزان ميلار، تعريب ومشاركة في التحقيق خالد ابن الصغير: هـ 126.

ثم إن الباريسيين باتوا ساهرين في الرقص والطرب والقصف ليلة الاثنين، لم ينم جلُ من سكن باريز. ولما طلع الفجر انقطع سير الترامواي والأتومبيلات من الشوارع التي سيكون الاحتفال فيها أو بقربها، ولم يبق إلاّ المشاة من الناس للتفرج، وقد اكتظت الطرق بالناس المنتظرين للفرجة. فلقد رأيت من نافذة بيتي، التي كانت تقابل ميدان الأوبرا، أن الناس ابتدؤوا يجتمعون للتفرج في باب الأوبرا عند الفجر والحالة أنهم باتوا ساهرين. فقد رأيت الرجل يتعلق في سارية المصباح الحديدية في الساعة 5 صباحاً، وبقي هناك معلقاً مدة نحو أربع ساعات. ومنهم من جلس على درج الأوبرا الحجرية ومنهم من جلس على السطوح في الشمس، وكان اليوم شَميساً[172] صاحياً ما رأيت مثله في الصحو والصفاء منذ دخلت باريز إلى أن ودعتها.

وبقي الناس يجتمعون إلى أن كانت الساعة 7 صباحاً، فركبنا الأوتومبيلات، في حال أن مَن لم يكن مَدعواً رسمياً لا يجوز له الركوب إذ ذاك. ثم توجهنا إلى محل الاحتفال، عند قوس النصر، حيث أُعِدَّتْ هناك مقاعد للجلوس لمن كان له حيثية سياسية، والمقاعد قد صُفَّتْ من قوس النصر يميناً وشمالاً على شارع الصانزليزي[173]. وقد أنزلوا هناك عدداً كبيراً من المدافع والسلاح الذي غنمته افرانسا من ألمانيا في هذه الحرب العظمى، فكانت هناك تلولاً[174] وأكواماً أمام قوس النصر، وفي شارع الصانزليزي وساحة كنكورد[175] وغيرها. وقد أعدوا لرئيس الجمهورية الفرنساوية مجلساً عن يمين الداخل لباريز من القوس على الشارع المذكور، ومعه الوزراء والحجاب في مقعد متميز عن الناس مَكسوّ بالملف[176] الأحمر

---

(172) لدى س : شمسياً.

(173) الصانزليزي : Champs Elysées، الشارع المعروف بباريز الجامع بين ساحتي لاكونكورد وشارل دوكول: D.E.H : 1/ 223.

(174) تلول: جمع تل.

(175) ساحة كنكورد، Place de la concorde من أشهر ساحات العالم شيدت سنة 1753 وأخذت شكلها النهائي سنة 1854 أما اسمها الحالي فقدأطلق عليها 1795 ثم غُير 1815 ليعاد 1830 : D.E.H : 1/ 280.

(176) الملف: «ثوب ناعم من صوف كان أساس لباس المغاربة في فصل الشتاء.. وكان في

والقطيفة[177] ويُصعد إليه بدرج؛ وعن يمينه مجلس النواب والأعيان، وقبالته، على الضفة اليسرى للشارع المذكور، زوجته وبعض الموظفين الكبار، وعن يسار زوجته محل جلوسنا، وعن يسارنا وحذوَنا التونسيون وإزاءنا الجزائريون[178]، وأسفلنا كثير من الجنرالات الفرنساوية التي يقرب عددهم من الثلاثين، ثم بعدَنا أصحاب الحيثيات والوظائف وهكذا. وحيث التزمتُ أن لا أخبرك إلاّ بما رأيت فلنقتصر على هذا القدر.

ولما وصلنا لمحل جلوسنا، وجلس كل واحد منا في محله المعدّ له على مقاعد مغشاة بالقطيفة، يعني (الموبر)[179]، أقبل رئيس الوزارة وزير الحرب، مسيو كليمانصو[180]، في عربة أطومبيلية فهتف الشعب له هتافاً شديداً: فلْيحيَ كليمانصو! ثم أقبل رئيس الجمهورية في عربة ليس فيها كبير زخرفة، ولكنها من أحسن وألطف ما هناك، يجرها فَرَسان أحمران لم يكن هناك في المحفل مثلهما حسناً ولا ما يشبههما، وهو لابس أثواباً عادية ليس فيها تمييز ولا بهرجة ولا زخرفة. ولما أقبل هتف له الشعب: فلْيَحيَ بوانكَرِه![181] وعند وصوله لمحل جلوسه تقدم بعربته إلى قوس النصر وغاب عني، فلم أدر ما فعل، وأخبروني أنه حيَّى تمثالَ تذكار موتى الحرب السابق ذِكره. ثم

القديم يصنع بالمغرب والأندلس ثم صار يجلب من أوربا، ويظهر أن أصل الكلمة Amalfi وهي مدينة إيطالية .»الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية: هـ 15؛ وانظر: العز والصولة في معالم نظم الدولة: 1/ 418.

(177) القطيفة: ثوب ناعم له خمل .Velours لسان العرب: قطف.
Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les arabes: 232.

(178) يقصد الوفدين الممثلين لهذين القطرين في هذه الاحتفالات وسيشير لهما في صفحات لاحقة.

(179) الموبر: الكلمة العامية المغربية التي تعني القطيفة ولها في الفصيح أصل: مُوبِّر: ذو وَبَر.

(180) كليمانصو Georges Clémenceau (1841–1929) رجل الدولة الفرنسي المعروف، كان وزيراً أول ووزير الحرب في فترة هذه الرحلة أي بدءاً من 1917 لكنه سيفشل في ترشحه لرئاسة الجمهورية: .D.E.H: 2/ 258

(181) بوانكره: Henri Poincaré (1860–1934)، رجل دولة فرنسي، خطيب حاذق تولى عدة وزارات، كان يتولى منصب رئيس الجمهورية في فترة هذه الرحلة 1913–1920 D.E.H: 3/ . 999.

رجع ونزل من العربة عند محل جلوسه فوقف عنده وهو يُحيّي الناس، وقبعته في يده لم يضعها على رأسه. وبفورِ وصوله بدأت أعمال الموكب، وهو استعراض عساكر الحلفاء، وعددها نحو ثلاثين ألفاً، ومرورها تحت قوس النصر بناء على عادة الرومان؛ إن الجنود المنتصرين كانوا يبنون لها قوساً تمر تحته فيبقى لها فخراً، فقلّدهمْ في ذلك نابليون الأول[182] وبنى هذا القوس فبقي العمل على ذلك إلى الآن.

فأقبل أولاً المرِشال فوش[183]، قائد عموم عساكر الدوَل المتحالفة، راكباً جواده وبيده عصاه المرِشالية، وعن يساره المرشال جوفر[184] كذلك مارّينَ تحت قوس النصر. وعند مسامتتهما رئيس الجمهورية حياه كلٌ منهما بعصاه فحياهما مشيراً له بقبعته، وهتف الشعب هتافاً شديداً: فلْيحيَ فوش، مصفقين بالأكف حتى اصطكت الآذان من شدة الأصوات إلى أن خرج إلى حد الهوس. ومهما مَرَّا على أحد إلا[185] وحياهما لأنهما مشيران بعصاهما للتحية، والكل يهتف لفوش، ثم لجوفر، وبعدهما أركان الحرب الفرنساوية فالحرس الجمهوري ثم جرحى الحرب، ومعهم جريحان محمولان على نعشين، وبعدهم بقية مَن حضر في حرب السبعين[186] عسكريين ومدنيين، ثم عساكر دول التحالف، أولهم عساكر أميريكا، فأولهم الجنرال الأميريكي فأركان حربه، فالخيالة والمشاة مع موسيقى الأميريكان والرايات الأميريكية. وكانت العساكر الأميريكية في بزة[187] ونظام عجيب، وكل ما عليهم

---

(182) الإمبراطور الفرنسي المشهور (1821-1769) انظر في شأنه:
Napoléon, Eric Delmotte, Marabout, Alleur (Belgique), 1990. D.E.H: 2/ 258.

(183) فوش (Ferdinand Foch)، كان مساعداً للجنرال جوفر بطل معركة لامارن في أكتوبر 1914 وأصبح على رأس القيادة العامة للحلفاء في مارس 1918 وقادهم إلى دحر الألمان: D.E.H: 2/514.

(184) جوفر (1931-1852) Joseph Jacques, Césaire Joffre بطل معركة المارن أثناء الحرب العالمية الأولى، تولى القيادة العامة للجيوش الفرنسية سنة 1911: المصدر السابق: 2/ 695.

(185) كلمة ساقطة لدى س.

(186) حرب السبعين: حرب فرنسا ضد ألمانيا 1870 والتي أسفرت عن معاهدة فرانكفورت 1871 تخلت بموجبها فرنسا عن الألزاس واللورين: D.E.H: 2/ 530.

(187) البِزّة: الهيئة والشارة واللِّبسة: لسان العرب: بزز.

ولديهم جديد يلمع، وكانوا أبهج العساكر مطلقاً لجدة ثيابهم وآلتِهِمْ وكل ما معهم، لا يُرى في ذلك إلاّ ما كان تلك الساعة أول استعماله. ثم النجليزيون على ذلك النسق، ثم البلجيك ثم إيطاليا، وكان جنرالهم راكباً جواداً أحمر لم يكن له نظير في خيل الاستعراض، ثم الجابون(188)، ورئيسهم شاب صغير السن أظنه من الأسرة المالكة، وعساكرهم أقل ممن تقدم. ثم اليونان، ثم الصرب واليوكسلاف، ثم البلونيون. ثم عساكر افرانسا على اختلاف أنواعها من مُشاة وطُبجية(189)، وخيالة. ثم عساكر مستعمراتها.

وقد كان في الاستعراض نحو الخمسين من جنرالات افرانسا، منهم قواد الفرق المتقدمة، ومنهم أركان الحرب، دون الجنرالات الذين كانوا متفرجين كما تقدمت الإشارة إليهم. وحضر أيضاً الاستعراض عساكر البحرية وكل الأنواع من الطبجية والمدافع والهندسة وغيرهم. وحضَر من مدافع الطنك(190) أربعة: وهي أتومبيل مجرور بعجلات السلاسل يمشي في السهل والجبل، قريب من صورة السلحفاة مدرَّع كله بأنواع من المعادن لا تتأثر من القنابل، سريع الحركة، يحمل مدافع سريعة الطلق بعيدة المرمى تدمر وتحرق، وهذا من الاختراعات الحديثة التي لم يهتد الألمان إليها(1)، واخترعها رجل يعمل الساعات إنجليزي قالوا وهي من أسباب اندحار الألمان الأخير.

وبالجملة فإن عساكر افرانسا كانت أكثر بكثير من غيرها، وقد استعرضتْ جميع أنواعها، وكلها تامة العَدد والعُدد، ومن جملة من حضر الاستعراض منها في جملة المستعمرات عساكر المغرب، وحضر منهم الخيالة

---

(188) الجابون: Japon: اليابان.

(189) الطبجية: كلمة تركية: الطوب: لفظ تركي أصله توب معناه مدفع، والطوبجية هم رماة المدفعية، وقد تطلق على جيش المدفعية وصناعة وصيانة هذا النوع من السلاح .معجم **المصطلحات والألفاظ التاريخية**: 309.

(190) الطنك، أصل الكلمة برتغالي استعارتها الإنجليزية Tank، لكن المقصود هنا: دبابة لم يستعمل إلاّ سنة 1916: .D.E.H:3/ 1242 وقد تطورت فكرة هذا السلاح في دول غربية عدة منها ألمانيا. انظر: **الموسوعة العسكرية**: 2/ 265-268.

على خيل بُلق ببرانيس حُمر وهتفوا لهم هتافاً شديداً لما عرفوه عنهم من الشجاعة الباهظة في المعارك التي خاضوا غمارها، وهتفوا للجنرال كورو[191] والجنرال مانجان[192]، قائدي عساكر المغرب، هتافاً شديداً يقرب من هتاف فوش لشهرتهما بما لهما من التدابير الحربية في هذه الحرب. وجل الخيل التي استُعرضتْ، لونُها الحمرة؛ إلا ما كان من خيل المغاربة. وكل المستعرضين (بالفتح) اخترقوا باريز في بزتهم وهيأتهم والموسيقى تصدح بأنغامها الشجية ذاهبين على شارع الصانزليزي الشهير إلى شارع الأوبرا، إلى ميدان كُنكورد حيث وجدوا المارشال فوش في انتظارهم أمام قصر البلدية. وهناك انتهى استعراضهم[193].

وعند تمام الاستعراض نهض رئيس الجمهورية وركب عربته فصدحت الموسيقى بالسلام عليه، وهتف له الشعب فذهب من حيث أتى إلى قصر البلدية، وتبعه الوزراء وأولهم رئيس الوزارة ووزير الحرب موسيو كليمانصو، فهتفوا له هتافاً شديداً. ولما وصل قصرَ البلدية وجد المارشال فوش وعساكر الاستعراض في انتظاره، فعُلِّقتْ هناك الأوسمة لمن استحقها وأُلقيت الخُطَب المهمة المتعلقة بالنصر الذي حازته افرانسا على كل أعدائها، وأثنوا على الجنود والأبطال ودعوا لموتاهم وتوادعوا، وانفضَّ الجمع وصوَّب كلُّ واحد صَوْب نزله.

وكان يوماً عظيماً وموسماً فخيماً بَعُدَ العهد بمثله، وطارت به صحف الأنباء في جميع الدنيا، وأظهرت فيه الأمة الفرنساوية وحلفاؤها من الابتهاج والفرح فوق ما يعبَّر عنه، وبقيتْ باريز لابسة أثواب الزينة سبعة أيام،

---

(191) كورو: Henri Eugène Gouraud (1867-1946 م) ناب عن البوطي في الإقامة العامة بالمغرب حين تولى هذا الأخير وزارة الحرب، وأسهم في الحروب الاستعمارية الفرنسية في سوريا (1919-1923): D.E.H: 2/ 578.

(192) مانجان (Charles Marie Emmanuel Mangin) (1866-1925 م) أحد أبطال الحرب العالمية الأولى على جبهة الألزاس واللورين: D.E.H: 2/ 284.

(193) ينبه مترجما الرحلة إلى أن الحجوي وَهِمَ في تحديد مسار الاستعراض: Voyage d'Europe: 46.

والأضواء تنير المدينة بجميع أطرافها فوق ما يتصوره الوهم، وكل مَخزن من مخازن التجارة العظمى أو ملهى أو قصر من قصور باريز إلاّ وترى فيه من علائم الأفراح بالزينة والأضواء الكهربائية ما يُنسيك ما رأيت في غيره حتى تقول: هذا نهاية ما يُدرَك.

وفي اليوم بعده ذهبنا لزيارة مقبرة جرحى الحرب من عساكر الإسلام والمسجد الذي بُني قربها للصلاة عليهم، ففي الساعة 9 نهاراً ذهبنا فوجدنا هناك الوفد التونسي، رئيسُه شيخ مدينة تونس الجنرال السيد خليل بوحاجب[194] نجل علامة تونس وشيخ المالكية وباش مفتيهم الشيخ سالم بوحاجب[195]، وأعضاؤه عامل سوسة الخطيب المصقع السيد عبد الجليل الزواش، وعامل بنزرت السيد السقا، وعامل صفاقص السيد الصنادلي. ثم الوفد الجزائري المتركب من إثني عشر عضواً: أربعة من أغوات[196] عمالة الجزائر، وأربعة من عمالة قسمطينة، وأربعة من أغوات عمالة وهران. ووجدنا هناك المفتي المغراني الجزائري المكلَّف بالمقبرة وغسل الموتى والصلاة عليهم، وشيخ القرية التي فيها المقبرة، ونواب من وزارة الحربية والخارجية. فتقدم شيخ القرية وخطب خطبة طويلة مكتوبة بالفرنساوي مجَّدَ فيها أعمال العساكر المغربية والجزائرية والتونسية في الحرب، وأبَّنَ موتاهم وشهد لهم بالثبات في الحرب والصبر على مصائبه، ونوه بدفاعهم العظيم عن افرانسا دفاع الأبطال مما لم يُعهد مثلُه في التاريخ، وشهد به العالم كله وحسدها على ذلك أعداؤها. وأطنب في الثناء على أمراء المسلمين، وخصوصاً السلطان

---

(194) خليل بوحاجب: ابن المذكور بعده، كان شيخ مدينة تونس خطيب باللغتين العربية والفرنسية لقيه الكاتب أثناء رحلته التونسية سنة 1336 هـ. تولى الصدارة العظمى. **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**: 4/ 153. (طبعة المغرب).

(195) سالم بوحاجب آل سيدي مهذب، باش مفتي المالكية في تونس، أجاز المؤلف. توفي 1342 هـ/ 1924 م. المصدر السابق: 4/ 152؛ **مختصر العروة الوثقى**...: 12.

(196) أغوات: «ج آغا: كلمة تركية محرفة عن أصلها الفارسي آقا أو آغا، وهي بمعنى الأب أو العم أو الأخ الكبير، استعملها الأتراك لدلالات كثيرة منها آغا الانكشارية: قائد الجيش.» **معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية**: 11-12.

مولاي يوسف[197] والباي سيدي محمد الناصر[198] وحكام الإيالات الثلاث، وأنَّ كلاً[199] أعان افرانسا في مواقفها الحرجة حتى انتصرت الانتصار المطلوب. ثم تقدم أحد وزراء افرانسا نائباً عن وزير الخارجية[200]، وهو مسيو دوبليتي[201] وألقى خطاباً في المعنى أيضاً أملاه من ورقة بيده ولكن مِن سوء الحظ أنه لم يكن عند رئيسنا ولا عند واحد منا عِلم بتلك الخُطب من قبلُ ولا إشعار بذلك لنستعد للجواب، ولا فهمنا الخطاب جيداً. فأشار إليّ الرئيس أن أُجيب الخطيبين نيابة عنه ارتجالاً، وذلك بعدما أجاب من ناب عن رئيس الوفد الجزائري بخطاب كان أعده بورقة أيضاً بيده. فقلت: يا سعادة الوزير، ويا جناب المير[202]، ويا أيها السادة الحاضرون، إني بالنيابة عن رئيس وفدنا، جناب الصدر الأعظم، أُقدِّم خالص الشكر للخطيبين فيما أظهراه من العواطف نحو العساكر المغربية والجزائرية والتونسية، وما أثنيا به عليهم من الشهامة العربية، والشجاعة الإفريقية المعهودة لهم في التاريخ. وإن ما حصل من أولئك الأبطال البواسل في الدفاع عن الوطن الفرنساوي من الشجاعة التي اعترف بها العالم أجمع قد قضوا به واجباً عليهم أمرَهُم به السلطان مولاي يوسف، وباي تونس، أيدهما الله. ولقد كتبوا في التاريخ سطراً مجيداً بدمائهم الغزيرة. وإن الدولة الفرنساوية يجب علينا أن نشكر فضلها على اعتنائها بأولادها[203]، حيث عرفتْ حقهم وخصصت لهم هذه التربة لدفنهم بها، وحافظت على شعائر الدين في الغسل والكفن والصلاة عليهم، وذلك مما يُحقق آمالنا أنها لا تزال على ذلك في المستقبل تحافظ على

(197) سبق التعريف به.

(198) محمد الناصر باي تولى بين (1324-1340 هـ) .مسامرات الظريف بحسن التعريف: 1/ 457.

(199) لدى س: "وإن كان".

(200) كان وزير خارجية فرنسا إذ ذاك هو Pichon Stephen (1857-1933) وهو الذي وقع عنها معاهدة فرساي: .D.E.H. 3/ 979معلمة المغرب: 6/ 1949.

(201) Voyage d'Europe: 48: De Peretti.

(202) المير: يعني: Le maire شيخ (عمدة) القرية هنا.

(203) اعتبر المؤلف، حسب ادعائه، جنود شمال إفريقيا أبناء فرنسا باعتبارهم حاربوا ضمن صفوفها أو باعتبار أن أرضهم كانت واقعة تحت سيطرتها أو هما معاً.

شعائر أولادهم وآبائهم وإخوانهم الباقين بعدهم، ويحقق آمالنا أيضاً أنهم يجنون معها ثمرة النصر كما أحرَقَتْهُم نيران الحرب، فتسعى في ترقية بلادهم ومصالحهم، وتهذبهم وتجتهد في تعليمهم، وإن أعصابنا كانت تهتز لرؤيتهم لو قَدَّر الله ورجعوا سالمين، وحيث لم نَرَهُمْ فقد وقفنا على قبورهم. فلْنَدْعُ لهم في ختام خطابنا هذا بالمغفرة والرضوان. ثم بعد هذا تقدمَ رئيس الوفد التونسي وسرد خطاباً آخر في المعنى بالفرنساوي مكتوباً، وبعده أتى المغراني وتلا أبياتاً في الثناء على أولائك الأموات وتمجيدهم لم تَحضُرْني ولا أرى فائدة في إثباتها.

وطُفنا في القبور فوجدنا مقبرة واسعة عظيمة، كانت مقبرة من قبل الحرب فيها عدد من الفرنساويين مدفونين، على قبورهم الرخام المنقوش بأسمائهم وتواريخ موتهم على عادتهم، وقبور أولئك العساكر الإسلامية على نسق قبور المسلمين في مَطرَح الأجلة[204] بفاس أو باب عجيسة[205]، من غير بناء، سوى أن كل قبر عند رأسه خشبة مكتوب في رأسها بالعربية: هذا قبر المرحوم... فقط. وتحته بالفرنساوي اسمه وفرقته العسكرية وما عُلِم من قصته. ووجدنا عند قبور المسلمين قبة طولها نحو المطرين[206] كذلك، وعلوها يقرب من ذلك، فسألنا عمَّنْ دُفِنَ فيها، فقال المفتي لم يُدْفَنْ فيها أحد وإنما المسيو جونار[207] حاكم الجزائر أمر ببنائها تذكاراً لهم.

ثم خرجنا من المقبرة وذهبنا للمسجد الإسلامي فوجدناه مسجداً ظريفاً لطيفاً على هيأة المساجد الإسلامية مبنياً من خشب في وسط حديقة، له

---

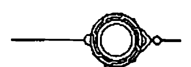
(204) مطرح الأجلة: مقبرة خارج باب الفتوح بفاس، أقبر بها كثير من ذوي الفضل من العلماء والصلحاء والفضلاء الوافدين من غرب البلاد: فاس منبع الإشعاع في القارة الإفريقية: 1/ 422.

(205) باب عجيسة أو الجيسة تقع شمال شرق مدينة فاس العتيقة بناها الأمير المغراوي عجيسة بن دوناس ما بين 252 و455؛ معلمة المغرب .3214 /10 :

(206) يعني المترين: .Deux metres

(207) Jonnart الجنرال، وقد سبق له أن بعث للحجوي رسالة يهنئه فيها بنجاح مهمته بالجزائر 1904: *Kitab Aayanc Al Maghrib L'akça.* /10/30

صومعة عليها الراية الفرانساوية، وبإزاء أرض المحراب زربية رباطية، قال المغراني: وجَّهها هدية للمسجد السلطان مولاي يوسف[208] نصره الله. وبقية المسجد كله مفروش بخمس حصائر سنوسية من عند والي الجزائر المتقدم. وثريا قديمة وجَّهها المقيم العام بتونس. وعلى جدران المسجد بعض زرابي وأثواب أهداها بعض المخازن التجارية في باريز لعله لافييت[209]، وقد سأل الصدر المفتي المغراني عمن حقَّق قِبلَةَ المسجد، فقال: المهندس الفرنساوي الذي بناه. قال: وهي قِبلةٌ محقَّقة على النجمة القطبية. فقلت له: وما هي هذه النجمة وكيف كان تحقيق ذلك، هل على يد عارف عَدْل يوثَق به؟ فقال: أنا ما حضرتُ. ثم أخبرَنا المغراني أن الدولة واعدت بإعادة بناء المسجد بناء متيناً. ثم تفرق الجمع وذهب كلٌ لمحله.



وصف قصر فرساي

وفي اليوم بعده زرنا قصر فرساي الشهير في العالم، وهو القصر الذي بناه نخبة ملوك فرانسا لويز الرابع عشر[210]، وكان معاصراً لمولانا إسماعيل جد الأسرة المالكة المغربية أبقاها الله، وكان بينهما وداد متين كاد يفضي للمصاهرة فيما قال بعض مؤرخيهم، ويقال إنه أنفق في بنائه وزخرفته وأثاثه ألف مليون افرنك، وهو الآن متحف من المتاحف الفرنساوية المهمة. فالقصر وكيفية بنائه وما فيه من الزخرفة والنقوش والتصاوير والتماثيل وصور ملوك أوربا، وعظمة البناء وتنسيق البيوت التي هي قباب مشيدة تناغي الجو وتزري بنجوم السماء هو وحده كاف لأن يكون متحفاً عظيماً. لكن لم يكتفوا بذلك، بل جمعوا فيه بعض أدوات بيت الملك المذكور وأثاث زوجته الثمين وفراش نومه، كل شيء في محله الذي كان فيه أيام الملك. وزادوا على ذلك بأن صوَّروا على جداراته تصاوير حروب افرانسا ووقائع أيامها

---

(208) سبق التعريف به.

Voyage d'Europe: Les Galeries Lafayette: 50. (209)

(210) لويز الرابع عشر Louis XIV الملك الفرنسي المشهور (1638-1715 م) دام ملكه 72 سنة: D.E.H: 2/ 759 et 3/ 1337.

ورجالها، فكان متحفاً في متحف، بل تاريخها مُهِماً من تواريخها يحفظ أعمالها ويبين ما وصلت إليه من القوة والسطوة. فلقد رأيتُ في بيتٍ صورة الأمير عبد القادر الجزائري[211]، ومعه ولده وأمه يطلب من ضابط افرانساوي، أو من نابليون الثالث[212]، حريته التي كانت افرانسا وعدته بها عند تسليمه سلاحه إليها، وكانوا سجنوه بعد ذلك في افرانسا، وقد حنَت الأمُ رأسَها لتقبِّل يد الضابط ماسكةً إياها ومُستَرحمةً له، وأظن أن هذه الصورة إنما هي خيالية لا حقيقة واقعية، والله أعلم. وهذه الصورة أظن أنها في قصر سان جرمان[213]، وقبالة هذه الصورة صورة دخول الفرانساوية معسكر الخليفة سيدي محمد بن عبد الرحمن بن هشام في وقعة وادي إيسلي قرب وجدة، وهي وقعة شهيرة[214]. ورُسمتْ هناك صورة مِظلة الخليفة أخذها جندي افرانساوي، وقد أحاط الجند بقبة الخليفة المذكور، وأمسكوا بعض النسوة وهن يُسلِّمن ما عندهن من الأثاث والأسلحة. وصورة حروب وقعت بين افرانسا والنجليز والألمان وغيرهما من الدول بحيث لو استوعبَ طالبُ التاريخ جميعَ الغرف وتتبعَ ما فيها من صور تلك الحروب فلا يخرج من هذا القصر الهائل إلاّ وقد قرأ تاريخ افرانسا تفصيلاً وعاين جل وأهم وقائعه[215]، وفي ذلك من الفوائد العلمية ما لا يخفى.

---

(211) الأمير عبد القادر بن محيي الدين الجزائري ثار ضد الفرنسيين لدى احتلالهم الجزائر، استسلم لهم سنة 1847 م، إلى ذلك يشير المؤلف أعلاه، فنفوه ثم أخلوا سبيله بشرط ألا يعود إلى الجزائر. توفي سنة 1883 م بدمشق .الأعلام.45 /4 :

(212) نابليون الثالث Napoléon III (1808-1873) أعلن نفسه امبراطوراً لفرنسا سنة 1852 توسع في أوربا: 869/ 2: D.E.H.

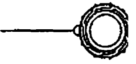
(213) يعني متحف سان جرمان للآثار الوطنية، وكان قصراً لملوك فرنسا من لويس VI إلى لويس XIV: D.E.H: 3/ 1336.

(214) معركة إيسلي، المعركة الشهيرة التي انهزم فيها الجيش المغربي أمام الفرنسيين المستولين على الجزائر آنذاك، سنة 1844، وكان ولي العهد أنذاك محمد بن عبد الرحمن بن هشام على رأس الجيش المغربي خليفة لوالده: "نائباً" .معلمة المغرب.442-439 /2 :

(215) ما أبعد هذا التعليق عن تعليق مواطن الحجوي محمد الصفار على هذه الظاهرة: «وغالب ما رأيناه في قصور فرسان (يعني فرساي) تصويرات الحروب من أول الزمان إلى الآن، لكن لا يصورون إلاّ الحروب التي كانت لهم فيها الغلبة... ومما يحكي أن شخصاً مر بالسوق فرأى

ورأينا هناك في بيت خاص المائدة التي أمضى عليها النواب الألمانيون عقد الصلح الأخير بتاريخ 28 يونيو 1919 في قصر سان جرمان جعلوها هناك تذكاراً وأثراً محفوظاً. ولما خرجنا من القصر تَطوَّفْنا في حديقته البديعة التي تبلغ مساحتها عشرين فرسخاً[216]، وما فيها من بِرْكات الماء الوسيعة التي كأنها بحيرة، وقد أطلقوا الماء فصار يعلو في فوَّارته بكيفيات غريبة وذلك بعمل الكهرباء ينفقون في اليوم الذي يُرسلون له الماء ثلاثين ألف فرنك، وما هناك من أنواع الشجر والنبات اللطيف. وفيها محل للموسيقى الملوكية بدائرته سواري من الرخام الرفيع المنوع، والمحل على صورة دائرة بها درج يجلس عليها المعلمون الموسيقيون كهيأة ملهى أوربي.

وفي هذا القصر من العجائب ما يستغرق وصفُه أوراقاً يملها السامع والمُطالع. وحاصل القول إنه غاية في الضخامة والفخامة والزخرفة والنقش والتصوير والفنون الجميلة، فكأنه مدرسة لهذه الفنون، وفي القصر كنيسة من أعجب الكنائس[217]، كانت للملك خاصة يصلي بها يوم الأحد وفي الأعياد، لا زالت على هيأتها بكراسيها وجميع ما كان فيها. وفيه أيضاً ملهى يقال إنه كان ينفق عليه في الليلة مائة ألف افرنك.



وصف ملهى الأوبرا[218]

وفي الليل استدعونا لحضور تمثيل رواية مهمة في ملهى الأوبرا الشهير

الناس مجتمعين على صورة رجل وأسد تعاركا فغلب الرجل الأسد، فذهب فلقي أسداً فأخبره بما رأى فقال له: لو كان الأسد يعرف التصوير لرأيتَ ما يفعل، وحيث لا يعرفه فليصورْ كل واحد ما شاء.»**رحلة الصفار إلى فرنسا**.212 :...

(216) الفرسخ أصله فارسي دخل العربية بمعنيين يدل الأول على الزمن والثاني ارتبط بمسافة اتفق على تحديدها بالمسافة التي إذا مشاها الرجل قعد واستراح، وهي عند بعضهم ستة أميال غير أن الفقهاء المسلمين قدروا الفرسخ بثلاثة أميال .لسان العرب: فرسخ؛ **معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية**.337 :

(217) لعله يقصد. Cathédrale Saint Louis: D.E.H: 3/ 1337

(218) سبق التعريف بها.

في العالم، الذي هو بقرب منزلنا[219]، فحضرها بعض الأعضاء وكنت من جملتهم. أما الرواية التي مُثلت، وما فيها من الفوائد، فذلك شيء ليس هو ذوقنا، بل لا نستفيد منه شيئاً لعدم معرفتنا جميعاً بلغة أهله، وعدم ملاءمته لمالوفاتنا وحركاتنا حتى أن الجنرال موريال[220]، حاكم الرباط، الذي كان مرافقاً لوفدنا ومكلفاً بشؤونه قال لي: إن الناس يصفقون عند تمام الرواية فمن المناسب أن تصفقوا، فامتثلنا وكنت أُصَفِّقُ من غير أن أفهم لأي شيء صفقتُ، ولا أدري ما استحسنْتُ، لأن التصفيق دليل الاستحسان عندهم، فكنتُ كنائحة ماجورة تتفعَّل البكاء وليست باكية. نعم إن الملهى المذكور من أعجب ملاهي العالم وأفخمها.

وقد دخلنا للمحل الذي يكون فيه الممثلون مختبئين والآلات التي تكون معهم[221]، فكانوا في تلك الليلة ينيفون على المائتين. وأما المتفرجون فإن الملهى يسعُ منهم عدداً كبيراً، والقبة التي يجلس بها المتفرجون آية في بابها عزَّ أن يكون لها نظير من نوعها، كذلك الصالون الذي يخرجون للاستراحة فيه.

ويكفيك إجلالاً في وصف هذا الملهى أنه تكلف على الدولة بثلاثين مليوناً من الإفرنك، وفي درجه وداخله صور رجال التمثيل والتأليف في فن الروايات، وهو عندهم عِلم مهم ولرجاله شهرة، وإن كانت الرواية لا حقيقة لها كـ"مقامات الحريري" ولكن يأتون بها لمقاصد مهمة أخلاقية تهذيبية. فروايةٌ يمثلون فيها العشق، وأخرى يمثلون فيها العفة، وأخرى الفضيلة، وأخرى الكرم، وأخرى الشجاعة، فيكون ذلك تكميلا[222] لمحاسن الأخلاق يفهمه مَن يعرف اللغة ومارَس العوائد الفرنساوية والأخلاق الأوربية.

---

(219) يعني الفندق الذي أقام فيه الوفد.

(220) ورد ذكر الجنرال موريال في خبر سفر وفد الرحلة إلى باريز وقد وُسم بأنه مدير الأمور الأهلية في الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب. جريدة السعادة 1919 /7 /8 :

(221) يعني الكواليس: .Les Coulisses

(222) لدى س "تكفيلاً".

إلا أن المنتقِد له أن ينتقد أموراً لا تُناسب الأخلاق العالية، كالتكلم بِكلمات بذية سفيهة، والرجل هناك يحضر ومعه أخوه وولده ووالده، وفيه ما يهيج شَبَق النفس للخَنا وارتكاب الفواحش وغيرها، فلو خلا عن هذه الأمور، لكان من أحسن المدارس التهذيبية ولكن﴿قد علم كلُّ أناس مَشربهم﴾[223]. وعلى كل حال آمنتُ بالسر الذي فيه ولا أقول به، ولا أرى وجهاً له في الشرع الإسلامي ولا في الذوق العربي، وكأني بأهل الغيرة والعفة منهم مُنتقدون لذلك معنا كما ينتقدون كثرة التهتك والبذخ. وتلك نتيجة الرفهِ الزائد والحرية المطلقة، وعدم التمسك بأهداب الدين، ولا سيما النساء، فقد خلعن ربقة الحياء وتبرجن تبرجاً لا يُتصور فوقه إلا سِفاد الحيوانات في الطرُق جهاراً؛ إلى هذا الحد وصلوا أو قربوا منه، وفَعلوا مقدماته جهراً. فهذا شيء أفسد الأخلاق، ولا تستحسنه الأذواق، ولا يقول به طبع ولا عقل ولا شرع. زد على هذا كثرة البذخ والترف والتظاهر بالغِنى، والفخر بالمال المؤدي إلى إضاعته، وكلما ظهر زيٌّ لبسته فلانة زوجة فلان إلا وترى ما قبله من الأزياء تُركَ وحَبِطَ عمله هبَاء، والملاهي والمراقص هي محل استعراض الأزياء وتلقيح هذا الداء، وهذا شيء طبيعي في التمول والترف: كلُّ أمة زاد ترفها إلاّ وزاد سرفها، ولله في خلقه شؤون، حاصله، تفننوا في كل شيء، وبلغوا النهاية في التمدن والرفاهية.

ومن الغد وجهتْ لي إدارة العلوم والمعارف أوراق الدخول لملهى أوبرا دومين، وهو في الدرجة الثانية بعد هذا الملهى، وكانت تُمثل فيه رواية مهمة فَحضرْتُها وأعطوْني بيت وزير المعارف[224] هناك خصوصاً. فجلستُ فيه مع مَن ذهب معي، بخلاف الملهى السابق، فقد كان الجلوس مع عموم الناس، ولكن في الدرجة الأولى. وهذا الملهى الثاني هو مماثل للأول في الشكل والهيأة، فما قيل في الأول يقال في الثاني إلاّ أن هذا أصغر منه.

---

(223) البقرة 59.

(224) يعني المقصورة La loge الخاصة بوزير المعارف.

وصف خزانة الكتب الكبرى بباريز

ووجهَتْ لي وزارة المعارف أيضاً ورقة الدخول إلى خزانة الكتب الفرنساوية الشهيرة في العالم المسماة بخزانة الأمة، وذلك بطلب مني، فذهبتُ إليها ومعي بعض أعضاء الوفد ممن لهم ولوع بالكتب. فدخلناها ورأينا ما يُدهش من هذا النوع، وكيف لا يدهش الإنسان إذا رأى ما ينيف على ثلاثة ملايين من الكتب المطبعية، وما أناف عن مائة ألف كتاب خطية؟ وقالوا إن العدد أكثر من ذلك.

وهذه الخزانة هي في الأصل دار للوزير الأكبر للملك لويز الرابع عشر المتقدم، وهي آية في الاتساع والضخامة. ولا يسبقْ إلى وهمك إذا سمعت لفظ دار الوزير أنها كدار الوزير أحمد بن موسى[225] في فاس أو مكناس أو مراكش، بل لو جمعت جميع هذه الديار الثلاث في مقابَلتها ما وفيَتْها حقها لأن القباب والصروح هنا لا يوجد لها مثيل في الدور الثلاث، بل المقاعد التي جُعلت للمُطالعين لا يوجد لها نظير عندنا في المغرب، وكان ابتداء تاريخ هذه المكتبة قديماً منذ ما ينيف عن ستمائة سنة، قبل بناء الدار المذكورة التي لها من العمر نحو 250 سنة[226].

وقد دخلنا إلى أحد البيوت التي جُعلت فيها الكتب فإذا هو على خمس طبقات، كل طبقة مملوءة بالكتب من الأرض إلى السقف، ويُصعد بالدرج لتناول الكتب العالية في كل طبقة. فسألت عن طول البيت فقالوا: مائة وثلاثة وثمانون ميطرٍ. كان البيت على هذا الطول وما يناسبه من العرض وعلو السقف. لكن لَما كان السقف شاهقاً أحدثوا داخله خمس طبقات، فتلك الطبقات شبكات حديد، فإذا كنت في السفلى ترى العليا وبالعكس، وجُعلت شبكات ليدخلَ الضوء والهواء من كل واحدة للأخرى، وقد جعلوا

(225) أحمد بن موسى، وزير الحسن الأول، والمنفرد بالحكم بعد وفاته باسم السلطان عبد العزيز (1900 م). إتحاف أعلام الناس بجمال مدينة مكناس: 1/ 445 Çñ£-فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان: 82-87.

(226) خزانة الأمة: La bibliothèque nationale، تقع بباريز، Rue Richelieu 58، بناها شارل V في القرن XVII، ثم أخذت حجماً أكبر في عهد لويس XIV: 1/33: D.E.H.

الطبقة السفلى لكتب العلوم الدينية، والتي فوقها للتاريخ وهكذا.

وقد دخلنا لغرفة فقالوا: هذه فيه الكتب التي ألفها علماء أميريكا، وهي تُعدَل بمكتبة القرويين ومراكش معاً إلا أنها مطبعية، فقلت في نفسي: هذه أمة جاءت في الزمن الأخير ألف علماؤها هذا العدد من الكتب وما استقلت إلاّ منذ نحو مائة وخمسين سنة! فما أعظم مداركَ البشر إذا كان عائشاً في جو صاف يستنشق فيه هواء الحرية الطلق[227] ويتغذى بلبان العلم والتهذيب. ليت شعري، ماذا ألفه علماء المسلمين في هذه المدة؟ وإن اللغات الموجود كُتُبُها في هذه الخزانة تبلغ اثنتين وخمسين لغة. وقد دخلنا لغرفة أخرى فقيل: هذه لعِلم الموسيقى، فتأملْ!

وطلبنا الدخول لبيت الكتب الخطية لعلنا نرى هناك كتاباً عربي الخط، لأن هذه الكتب كلها باللغات الأخرى، إلاّ قليلاً، فأمهلونا ريثما فُتِحتْ وأدخلونا لبيت[228] فيها مجموعة تصاوير عجيبة صينية وتركية، ورأينا كتاباً فيه صور ملوك العثمانيين، وكل ملك مترجَم بتاريخ حياته وأيامه مذكور هناك أعماله، وهو بالتركي، وهناك كتب أخرى بالخط الصيني. قالوا إن عدد الصور في هذه الخزانة يبلغ مليونين ونصفاً، وقد رأينا عدة خرائط للأرض عموماً ولبعض الممالك[229]، خصوصاً منها ما هو لعلماء العرب كأهل الأندلس، ومنها ما هو لليونان وغيرهم، ثم إن رفقائي ملُّوا كثيراً وضجروا من كثرة ما رأوْا، وأرادوا الخروج فقلت لهم: ألستم طلبتم رؤية الكتب الخطية؟ فنحن ننتظر وصول المكلف بها، عجباً لكم، ما حصل ملل لمن ألَّفَ أو كتب أو طبع أو سفَّر[230]، أو ادَّخر أو بنى أو رصف أو جنَّس، ولا لمن يرينا ويُطلعنا! فلا أمل في ارتقاء مَن به داء الملل، فالملل آفتنا العظمى وسببٌ من أسباب تأخرنا وتقدم غيرنا، إنَّا إذا لمن العاجزين

---

(227) لدى س "المطلق".

(228) يعني الغرفة.

(229) لدى س "المسالك".

(230) من التسفير وهو تجليد الكتب وتذهيبها: أسماء الحرف المعروفة في مدينة فاس. عبد القادر زمامة، ضمن كتاب: متنوعات محمد الفاسي: 86.

ولو كنتم في ملهى ما مللتم.

ولما دخلنا بيت الكتب الخطية رأينا هناك كثيراً منها، وطلبتُ فهرستها، فأتوا بِسِفْر من جملة أسفار الفهرس. فبينما نحن ننظر بالفهرسة لنعثر على ما فيه الغرض من الكتب العربية الغريبة وإذا بالرفاق توجهوا لحالهم ذاكرين أن لهم وعداً مع حبيب استدعاهم للإفطار وتوجهوا وبقيتُ أنظر هناك، فعثرت على مصحف كريم عظيم الجِرم مكتوب في رِقّ الغزال بخط كوفي[231] لا نقط فيه ولا شكل، يظهر أنه من مصاحف الصدر الأول قبل حدوث الشكل والنقط[232] وفيه بعض البتر لتلاشي الرّقّ وقد أصلحوا الرق. قيل إن نابليون الأول عثر عليه في مصر وأتى به من هناك. ووقفتُ على مصحف قديم عجيب هناك أيضاً، وذلك في سفرتي الرابعة إلى افرانسا صحبة الرّكاب الشريف في غشت سنة 1931[233]، ربيع الثاني. هذا المصحف مكتوب في رِقّ راقٍ عجيب: طول الورقة نحو 18 سنطيم وعرضها نحو 7. خطه كوفي قديم بدون شكل، نعم به بعض النقط ولون المداد أسود، والخط رقيق مُتقن، وسِفره من جلد أحمر مذهّب بتذهيب رفيع الصنعة، مكتوب في آخر ورقة منه ما نصه بالحرف الواحد: «كُتب برسم أمير المومنين خلد الله مُلكه الخليفة هارون الرشيد صلى الله عليه وعلى آبائه الطاهرين في رمضان سنة اثنتين وثمانين ومائة».

وإني أرى أن هذا أنفس أثر عربي هناك، والصلاة على عموم الأمة جائزة استقلالاً على القول الصحيح، ومنه قول الإمام الزمخشري يمدح كتاب سيبويه: (وافر)

---

(231) ورد وصف هذا المصحف لدى رحالة سابق زار نفس المكتبة، وصفه أنه بطول دراع وربع وبعرض قريب من نصف ذراع وبخط كوفي .إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار: 2/ 208. كما يذكر المصحف الصغير الموصوف أعلاه: 2/ 208.

(232) معلوم أن الكتابة العربية كانت أولاً بلا نقط ولا شكل ثم وضع الإمام علي كرم الله وجهه أسس الإعجام وأتم عمله أبو الأسود الدؤلي، لتلافي التصحيف، انظر مثلاً: الخصائص: 3/ 309-310؛ المزهر في علوم اللغة وأنواعها: 2/ 398.

(233) انظر هذه الزيارة في: العلائق السياسية للدولة العلوية: عبد الرحمن بن زيدان، 351.

ألا صـــلى الإلـــهُ صـــلاةَ صـــدقٍ على عـمـرو بـن عـثـمانَ بـنِ قـنـبـرْ
فـــإنَّ كـتـــابـــه لم يَـــغْـــنَ عـــنـــه بـنـو قـلـم ولا أبـنـاء مـنـبـرْ[234]

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يُصلي على مَن أدى دريهمات زكاة واجبة عليه حيث أمره الله بقوله﴿**وصل عليهم**[235]، فصلى عليهم وقال: اللهم صل على آل أبي أوفى[236]، كما في أصح الصحيح، فلأن نصلي على من ألَّفَ كتاباً ينتفع به عموم المسلمين من باب أوْلى. وقد قال الله تعالى: ﴿**وهو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور**[237]، وقال الله تعالى: ﴿**وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم**[238] (الآية)، وما بعد القرآن والسُّنة لقائل قول[239].

ثم عثرت على مجموعة فيها عدة كتب للإمام الأسيوطي[240]، نحو 20، في مسائل حديثية وفقهية وغيرها. فمن جملتها كتاب له في النسب الجعفري[241] الذي ينتسب إليه ثعالبتُنا وتنتسب إليه العائلة الناصرية وغيرهم، وانفصل على[242] أنهم أشراف صُرحاء تحرم عليهم الزكاة لكونهم من ذرية جعفر بن أبي طالب الهاشميين فيُحكم لهم بحكم الأشراف. ونقل

(234) انظر البيتين في: **من أعلام البصرة: سيبويه، هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه**: 56.

(235) التوبة: 104. وللحجوي بحثان مخطوطان في هذه المسألة: الخزانة العامة، الرباط: ح 113- ح114.

(236) **صحيح البخاري**: 4/ 1998.

(237) البقرة: 104-106.

(238) الأحزاب: 43.

(239) لدى س "قول لقائل". ويتعلق الأمر بمجموع بهذه المؤسسة تحت رقم 4588 (مخطوطات عربية) يحتوي على 42 مؤلفاً: Catalogue des Manuscrits Arabes. : 727.

. هذه المجموعة غير كتابه الحاوي[3] الذي اشتمل على تسعة وسبعين تأليفاً من تآليفه جمعها فيه وسماه الحاوي. (مؤلف) [4]. هامش ساقط لدى س ومن طبعات الحاوي طبعة المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1959.

(240) لدى س "السيوطي".

(241) يتعلق الأمر بكتاب العجاجة الزرنبية في السلالة الزينبية: **المصدر السابق**.

(242) وانفصل على: بمعنى: "خلُص إلى".

عن الحافظ ابن حجر وغيره أن تخصيص الشرف بأولاد الحسن والحسين اصطلاح أحدثه الفاطميون في المائة السادسة فقط، كما أنه انفصل على أنه لا يقال فيهم أبناء الرسول، بخلاف أولاد الحسن والحسين، وإن كانوا أولاد زينب أخت الحسين، ولكن لا يُقال فيهم أولاد رسول الله، لأن نسبة أولاد البنت إنما هي لأبيهم لا لأمهم، والخصوصية وردت لأولاد فاطمة فتقتصر على محلها وهو الحسن والحسين بناء على أن الشرف من قِبل الأم لا يتعدى. قال وهو القول الذي عليه المعوَّل من قولين في المسألة.

وله هناك تأليف آخر في بدعة إحداث المحاريب بالمساجد[243] قائلاً: إن المحاريب إنما أُحدثت في أول المائة الثانية[244]، وما صلى عليه السلام في محراب هو ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي. قال: وأما قوله تعالى: ﴿**كلما دخل عليها زكرياء المحراب**[245]، فذلك كان في شرعهم ولم يكن في شرعنا بدليل ورودِ أحاديث تتضمن النهي عن إحداثها[246]، لكن ليس نهيَ تحريم؛ وقد أوردَ تلك الأحاديث. وهناك تآليف أخرى في مسائل لطيفة غريبة لم يسَع الوقتُ لاستقصائها، وكنت على نية العوْد لأنقُل بعضَ ما يمكن كَتبُه إذ محل المطالعة هناك وسيع، به كراسي كثيرة وموائد الكتابة وموادها والحبر والأقلام. وتُفتح الخزانة كل يوم عدا يوم الأحد والأعياد صباحاً ومساء.

وبينما أنا أنظر في تلك المؤلفات وإذا بالخادم يقول إن الرفقاء دخلوا بيت الأمور القديمة من آثار الدول البائدة، إن شئتَ نظَرتها معهم، ورجعتُ فذهبت ووجدتهم فعلمتُ صِدْقَ قولي لو كنتم في ملهى ما مللتم، وعلمت أن رؤية الأمور الغريبةَ تُذهب الملل. فنظرت هناك كثيراً من السكك القديمة الرومانية وهي مثل السكك الأوربية الموجودة الآن في تدويرها[247] وإتقان

---

(243) كتاب "إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب"، تحت نفس الرقم في المصدر المذكور، ص: 77 هـ. 5 ومن طبعاته: طبعة مطبعة الشرق، القاهرة (د. ت).

(244) لدى س "الثامنة".

(245) آل عمران: 37.

(246) انظر الفقه الإسلامي وأدلته: 1/ 555.

صُنعها، تاريخها قديم قبل الإسلام، نعم فيها مغايَرة لما في السكك الوقتية من حيث صُوَر الملوك، فإن الرومان كانوا يجعلونها بارزة ناتئة بحيث يُلمس جِرمها المرتفع عن مستوى الدينار وذلك من دقة الصنع والإتقان في العمل. وعجبتُ لسكة قدماء المسلمين لم تكن على تقليد سكك الرومان في إتقان الصنعة والتدوير لا في التصوير لأنه ليس من شرعنا[248]؛ وإن ثَبَتَ أن بعض ملوك الإسلام فَعَلَه أمْناً من التزوير، ورأيت هناك سكة عبد الرحمن الداخل للأندلس، أول ملوك بني أمية في أوائل القرن الثالث. ورأيت هناك كثيراً من نقود الهند والصين والأوسمة القديمة التي كانت في القرون المتوسطة. وهناك أوان صينية وحلي مختلف الأشكال، من بلدان شاسعة، قديم بحيث لو كان للإنسان وقت[249] يقيد ما رأى هناك من نفائس الكتب والعاديات من الآثار لأتى بغرائب الغرائب يستفيد منها المؤرخ الفوائد العظيمة. أما بسطاء الناس، فتستجم أفكارهم ويزول بذلك عناؤهم.

ولقد زرت في هذه المدينة الجميلة عدة مواضع مهمة يقصر القلم عن وصف ما بها، وقد وصفه الزائرون قبلي. فلْنقتصر على الإشارة والأسماء لتشويق مَن يصل إليها أن يزورها، فمنها قصر اللوفر[250]، وقصر التروكاديرو[251]، وقصر الإيليزي الذي هو مقر رئيس الجمهورية، وهذا زرته زيارة رسمية مع أعضاء الوفد[252] كما يأتي التنبيه عليه. وكذلك وزارة الحربية ووزارة الخارجية، فهذه مواضع ثلاث لم نستوعبها[253] إلاّ كما يستوعب الزائر الرسمي مواضعَ قدَمه ومواقعَ بصره، فلم يتسع القلم في

(247) إشارة إلى كون سكك المسلمين كانت مربعة الشكل أولاً دون تصوير ما به روح امتثالاً للأحاديث: انظر مثلاً: مميزات المسكوكات الإسلامية، مجلة **دعوة الحق**، السنة 13، العدد 8: 84.

(248) انظر المرجع السابق.

(249) لدى س: "لولا وقت الإنسان".

(250) سبق التعريف به.

(251) سبق التعريف به.

(252) كلمة ساقطة لدى س.

(253) يعني لم نُحطْ بها.

وصفها، وكذلك زرت وحدي وزارة العلوم والمعارف وقصر مجلس النواب، وهذه لأنها على ضفة نهر لاسين، وقصر الأعيان المسمى لوكسُمبورغ[254] في الضفة الأخرى. كما زرت قصر البلدية ومواضع أخرى مهمة، وكلها قصور عظيمة فخيمة لا يستوعب القلمُ وصفَها في وقت قصير كنا مقيدين فيه بالقيود الرسمية.

وصف غابة بولون[255]



ومن المواضع التي كنت أستلذ رؤيتَها وتمتيع الطرْف في محاسنها غابة بولون الشهيرة، فإنها غابة صناعية متسعة الأرجاء، فيها 873 هيكتار من أرض بسيطة[256] تقريباً، خُططت فيها طرق صناعية تسير فيها العجلات منسقة لكل ناحية من نواحي الغاب. وكل قسم منها منتزَه من المنتزهات التي هي أحسن ما تستلذه العين في هذه الدار الفانية، نوَّعوها بأنواع الشجر الجميل المنظر الخالي عن الطعم[257]، ونسقوه تنسيقاً بديعاً، وهذَّبوه وقوَّموا مُعْوَجَّه، وربوه تربية بحيث لا ترى فيه إلاّ ما لا تستلذه الأنظار. وقد جلبوا لها ترعة نهر صناعية تنساب فيها انسياب الأفعوان، في أرض خضراء متهدلة الأفنان، فكانت أحسن ما أنتَ ناظرٌ، وفي كل وقت أتيت هذه الغابة وجدتها تسرح فيها غزلان الإنس، وترتع فيها صواحب الألبسة الجميلة والمراكب الفارهة والجمال الفاتن؛ والهدُوُ والسكون سائد على كل من هناك، وتُرَعُ النهر تمرح فيها زوارق الوصال لا زوارق الأثقال، وزوارق التنعم والطرَب، لا زوارق الكد والنَّصَب، حتى إن سماءها وأرضها يخيل لك أنها تجاوِبُ حيواناتها الناطقة وغير الناطقة. وبالجملة جمعتْ جميعَ المحاسن، فلا يُرى فيها إلا مَفتون أو فاتن، وهي في[258] الجهة الشرقية من

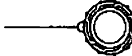
(254) قصر الأعيان المسمى لوكسمبورغ، تنقل في ملكيات مختلفة قبل أن يصير سجناً في الثورة الفرنسية ثم مقر المؤسسة التشريعية عهد الأمبراطورية، تعد حدائقه من أجمل حدائق باريس: D.E.H: 2/ 765.

(255) Bois de Boulogne المنتزه المشهور غرب باريز: D.E.H: I/ 154.

(256) يعني: أرض منبسطة.

باريز[259] إذا مررت على قوس النصر وخرجت من المدينة، دخلت فيها.

وكانت تعجبني فيها قهوتان: إحداهما في مبدئها من جهة باريز، بها من التُّحف واللطائف ومحل الموسيقى مع جمال المنظر، ما يستحسنه كل ذي ذوق، والأخرى متوغلة في وسط الغابة على منبع من الماء يخرج من حجر هناك، عال له خرير. فكانت الأولى تعجبني ليلاً لما فيها من الزخرفة والأضواء بين الشجر وفوق زرابي الربيع، والثانية نهاراً وقت الظهيرة، فكنت أقصدهما عند ملل الفكر من القيود، والأذن من سماع هوس عربات النقل كالرعود، فكان يذهب جميعُ ما أجده، وأجد نفسي في نزهة وخلوة وصفاء فكر وراحة بال.



ساحة دي لاكنكورد[260]

وناهيك بطريق هذه الغابة أني كنت أمر إلى غابة بولون على ساحة ليس لها نظير في أي بلد فيما أظن، وهي ساحة (بلاس دو لاكنكورد) التي هي عبارة عن منتزه من أجمل المنتزهات، وممر من أجمل الطرق في داخل باريس أمام قصر نابليون، ولو أتيتُ على وصف هذه الساحة وما فيها من اللطائف، لسوَّدتُ ورقات بمُبَيِّضِ جمالها. وقد جعلوا هذه الساحة على شكل دائرة، وفي مركزها مسلة مصرية أهداها لفرانسا الأمير محمد علي، مؤسس العائلة الملوكية المصرية، ونُصبت في محلها سنة 1836 في زمن لويز فيليب الذي أسس بلاس دي لاكنكورد طولها اثنان وسبعون قدماً، وعرضها من

(257) يعني غير المثمر.

(258) لدى س "من".

(259) تقع الغابة المعنية غرب باريز كما في هامش سابق. ونبه إلى ذلك مُترجما الرحلة إلى الفرنسية: Voyage D'Europe: 62، ونشير إلى اعتماد المؤلف على دليل باريز الذي ذكره واسترشاده بخرائطه، وإذا استحضرنا أن الخرائط العربية تجعل الجنوب في أعلى الصفحة أدركنا مصدر اللبس الواقع للكاتب. وقد وقع أمر مماثل لمواطن الحجوي الطاهر الفاسي الذي أورد أن عرض لندن في ناحية الجنوب .الرحلة الإبريزية إلى الديار الانجليزية: 33. وانظر تعليق المحقق في نفس الصفحة.

(260) عنوان ساقط لدى س.

أسفل سبعة أقدام، ومن أعلى خمسة أقدام، وهي حجرة واحدة فيها كتابات باللغة المصرية القديمة(261)، صُنعت حوالي سنة 1550 قبل الميلاد(262)؛ وفي الساحة أشجار وتماثيل تقذف الماء إلى حوضين على كيفية غريبة، وهناك حديقة أزهار جمعتْ محاسنَ الزهر الغريب اللطيف. وفيها تجمع الطُرُق(263) من جميع أحياء المدينة، وتَسَعُ جيشاً عرمرماً لسعة فنائها، وفيها من الفوانس للإضاءة ليلاً ما يُعجزك عدُّه، فهي ذات عمرين: ليلي ونهاري، فهي دائماً مضيئة.



الصانزليزي(264)

ومنها أمُر على طريق الصانزليزي ومعناها: "روضة الأصفياء(265) وهي غيضة(266) طويلة، ذات سطرين، طولها إلى حد قوس النصر أكثر من ثمانمائة ذراع، وعرضها في الأقل مائة وستون، ولها مقاعد من خشب وكراسي على طول الطريق، وبين السطرين طريق واسع لسير الحوافل والعواجل والرُكاب(267) وهو أحسن شارع في باريز، وإذا كان أحسن شارع في باريز فهو أحسن شارع في الدنيا، أحاطت به صفوف من الشجر ووراءها قصور وأبنية مزخرفة، فمبدأه من الساحة المتقدمة وتصعد منه إلى قوس النصر، فلا شك أن الغريب ينسى أهله وماله وولده إذا ذهب من

---

(261) يعني الهيروغليفية.

(262) انظر مثلاً: D.E.H: 2/ 896 وردت معظم المعلومات المذكورة عن المسلة في "كشف المخبا" الذي أحال عليه المؤلف في موضع آخر: كتاب الرحلة الموسومة بالواسطة...: 256.

(263) يعني مفترق الطرق: Rond-point.

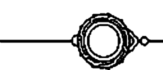
(264) عنوان ساقط لدى س، والصانزليزي: Champs Elysées، الشارع المشهور في باريز، انظر مثلاً: D.E.H. 1/ 223.

(265) أو جنة الصالحين أو الفضلاء، وترجمة المؤلف المثبتة أعلاه مأخوذة من: "كشف المخبا". كتاب الرحلة الموسومة بالواسطة...: 255.

(266) الغيضة: الأرض الكثيرة الأشجار: لسان العرب: غيض.

(267) يعني بالحوافل الحافلات السائرة بالبترول وبالعواجل العربات المجرورة بالخيول وبالركاب الخيل.

هذه الساحة على تلك المحجة[268] إلى غابة بولون، ولا يحتاج إلى شيء آخر يسليه سوى الدراهم التي يلزم أن تكون في هذا المحل أوفر من غيره لغلاء كل شيء هنا أكثر من كل محل، ولكن لا بأس بالغالي، فإن الإفطار في غابة بولون في أحسن محل هناك أدينا فيه خمسين افرنكاً لكل واحد دون ما يُعطى للخدمة ومصارف الذهاب والإياب، ومع هذا لا زالت الغرباء تقصد هذه المدينة وتصرف المصارف الكثيرة ليكونوا غرباء بها.



الزيارات الرسمية

وفي يوم السبت 19 يوليوز، زرنا أربع زيارات رسمية، الأولى المستشفى العسكري الذي بقرب الوزارة الحربية، وهو أول مستشفى عسكري أُسس في باريز، ولهذا لم يكن بناؤه كثير الأهمية، فلقد رأينا عندهم ما هو أهم بناء وزخرفة منه، لكن أهميته من حيث التاريخ. وقد وجدنا رئيسه وموظفيه في انتظار الوفد المغربي والتونسي والجزائري. وحين دخلناه[269] وجدنا فيه عدداً من بقية الجرحى الإفريقيين[270]، ولاحظت أن جلهم مصاب في الوجه، وأكثرهم في الفك الأسفل فيمن[271] رأيناه منهم، ولقد شاهدت عجباً: فإن من ذهبتْ له جلدة فكه الأسفل وحنكه عوضوها له بجلدة يقطعونها له من رأسه أو رجله بلطف بحيث لا يشعر بها، ويضمدون محلها ثم يلزقونها[272] له في وجهه ويرفأونها[273] بخياطة فتلتئم ويرقع وجهُه. وقد نجحت هذه العملية في بعضهم، ولكن في بعض آخر بدأوها وماتوا في أثنائها، ولكن قطعوا تلك الرؤوس التي بُدئت عمليتُها ولم تتم وألزقوها على خشب وأرَوْنا إياها مُلْزَقة لعلنا نعرف أصحابها، فلم نعرف واحداً منهم، وهي نحو 12 رأساً. فهذا ما وصلتْ إليه مدارك البشر الآن.

---

(268) لدى س "الحجة".
(269) لدى س "دخلنا".
(270) يعني من شمال إفريقيا.
(271) لدى س "فيما".
(272) يلزقونها: يلصقونها: لسان العرب: لزق.
(273) يرفأونها: يرفأ: يلأم الخرق ويصلح ما وهي منه: لسان العرب: رفأ.

وقد أحسن الوفد المغربي لأولئك الجرحى بألف افرنك، دفعها بالتساوي، إذ كل واحد منهم يُسابق لأعمال الخير.

وبعد خروجنا من هناك توجهنا لوزارة الحرب لنزور رئيس الوزارة مسيو كليمانصو[274]، فوجدناه في انتظارنا في الساعة 11 نهاراً، فتقدم الوفد المغربي أولاً، كما هي العادة، فإنهم قدمونا في كلّ زيارة. وحين دخلنا عليه في مكتبه قام وصافح كل واحد بعد أن عرف اسمه ورُتبته وأجلَسنا مُرحباً هاشاً باشاً، لما له من الأخلاق الحميدة التي تلوح على محياه، وعيناه تتوقدان ذكاء ونباهة وشهامة على كبَر سنه، فقد بلغ 77 سنة، فسألَنا عن المغرب وأحواله، فأخبرناه أنه بخير وأمان وعافية، فقال مداعباً لنا: هل لكم من شكاية بالجنرال ليوطي؟[275] فأجاب الصدر إنه لا شكاية غير أنه كريم الأخلاق، كريم الفعال[276] فقال: إني كنت في الجزائر ورأيتُ أنها محتاجة لإدخال الإصلاح في نظاماتها وأشرت بذلك، وها تلك الإصلاحات تنفذ كلها. ثم ودَّعنا وانصرفْنا، ثم دخل الوفد التونسي يتلوه الوفد الجزائري.

زيارة وزارة الخارجية واحتفالها بالوفدين المغربي والتونسي

وفي الساعة 2/1 12، توجهنا لوزارة الخارجية، لزيارة وزيرها المشهور موسيو بيشون[277]، وتناوُل طعام الإفطار عنده، فوجدناه كذلك في انتظارنا فهشّ وبشّ، وبعد أن تَعَرَّفَ بكل واحد وسلم عليه، وقف معنا ننتظر الطعام، على العادة الأوربية من الوقوف قبل الطعام وبعده، وهي مصلحة بدنية وإرشاد طبي يُعين على إبادة ما بقي في المعدة منه لِئلاَّ يدخل طعام على طعام. وبعد الطعام يقفون أيضاً ليعين على الهضم لأن الجلوس تَتعب معه المعدة في الهضم فأحرى الاضطجاع. وفي خلل الوقوف تجاذبنا أطراف

---

(274) سبق التعريف به.

(275) سبق التعريف به.

(276) استعمل الصدر الأعظم في هذا السياق الأسلوب البلاغي المعروف بالمدح بما يشبه الذم.

(277) Stephen Pichon (1857-1933) سياسي وديبلوماسي مرموق: D.E.H: 3/ 979. وانظر خبر هذا الاستقبال في جريدة السعادة 24/ 7/ 1919.

الأحاديث معه ومع زوجته ومع من حضر من الذوات والأعيان الذين يبلغون الخمسين، ما بين أعضاء الوفدين المغربي والتونسي (ولم يحضر الوفد الجزائري لكون النظر في شؤونه لوزير الداخلية ولا علاقة له مع الخارجية)[278]، وقد حضر أعيان من وزراء افرانسا لهم علاقة بالوفدين، كموسيو رينو[279] الذي كان سفيراً في المغرب، وعلى يده تمت حمايته، وموسيو لابتيت[280] الذي كان مقيماً عاماً في تونس منذ أمد قريب، وموسيو دوبليتي[281]، وغيرهم من الذوات المشهورين.

وبعد تهيئة الطعام وإعلام المكلف بالمائدة بحضوره، فرَّق على جميع مَن حضر خارطة المائدة، وكل كرسي مرسوم عليه عدده، وكل واحد رُسم له في خريطته محلُّ الرئيس الذي هو رب المنزل، ومحل زوجته تقابله واسم صاحب البطاقة مرقوم[282] أمام عدد كرسيه من غير أن يُرسم اسم سواه، فعند الدخول قصد كل واحد عدد كرسيه فوجد أمامه اسمه أيضاً موضوعاً في محله. وبُدِئَ بتفريق الطعام، على العادة، فكانت مائدةً جامعة لأشراف القوم وشريف الطعام.

وبعد تناول المشتَهيات وتجاذُب أطراف الأحاديث الشهية كلٌّ مع مَن يليه، نهض وزير الخارجية وألقى خطاباً بليغاً أثنى فيه على الإفريقيين وعساكرهم وإعانتهم افرانسا والأخذ بناصرها في أحرج المواقف. ثم رحَّبَ بالوفدين وودَّعهما وشربَ نخبَ السلطان والباي، فنهض وزيرُنا وأجابه شاكراً له، مُثنياً على دولته التي قابلتنا بما يجب، وفوق ما يجب. ثم تلاه في الخطابة رئيس الوفد التونسي، ثم تحولْنا لمحل الانتظار لشرب القهوة، فتناولناها ممزوجة بأحاديث عالية وفكاهات سامية، والرئيس وزوجته يأتي

---

(278) كانت فرنسا تعتبر الجزائر جزء منها.

(279) رينو Eugène Regnault أول مقيم عام للحماية الفرنسية بالمغرب من 30 مارس إلى 27 أبريل 1912 .معلمة المغرب: 2/ 571.

(280) Voyage d'Europe: 48. A la petite. وكان مقيماً عاماً لفرنسا بتونس قبل تاريخ الرحلة.

(281) Ibid: 66. De peretti.

(282) مرقوم مكتوب: لسان العرب: رقم.

عند كل واحد من الوفدين يُباشِشُه ويحادثه إلى أن حان وقت الانصراف فانصرفنا شاكرين ضيافتَه وأُنسه.

ولاحظت أن وزارة خارجية افرانسا مَحل له أهمية عظمى، أكثر من كل ما رأيتُ من الوزارات، سواء من جهة البناء والزخرفة والضخامة والعظمة، أو من حيث الأثاث والرياش. وكيف لا وهي الموضع الذي يزوره سفراء دول المعمور قاطبة، والملوك التي تقصد افرانسا، فلا ريب أن تُظهر فيه مدنيتها وعظمتها ومحاسن ذوقها. ولقد رأيت في قاعة الانتظار والقهوة زرابي مفروشة ومكسُو بها الجدران، عزَّ أن ترى[283] لها نظيراً إلاّ في قصر لويز الرابع عشر في فرساي، فقد رأيت هناك زربية ذكروا لي أنها مرت عليها سبعون ألف عسكري بسبابيطها[284] وما أثروا فيها شيئاً لجودة صنعها وإتقان عملها، ولا في ألوانها التي أكثرُها الأبيض والأزرق والأصفر، وهي أقرب الألوان للتغيير السريع، ولا زالت كأنها جديدة، وهي زرابي عجمية فارسية فيما أظن.

زيارة رئيس الجمهورية

وفي الساعة 5 عشية توجهنا لقصر الإليزي لزيارة رئيس الجمهورية، موسيو بْوانْكَرِه[285]. وقد وجدنا الوفدين التونسي والجزائري سبقا الوفد المغربي، ولكن كلٌ في محل الانتظار، وبمجرد دخولنا ذهبنا تواً لغرفة التشريفات. ولما فُتحتْ وجدنا الرئيس المذكور واقفاً بقرب الباب. ودخل رئيس التشريفات أولاً، وعلامته سلسلة معدنية علقها في عنقه على هيأة السُّبحة، فقال: الوفد المغربي. ثم أذِنَ لنا في الدخول فدخلنا، وسلمنا على الرئيس وهو قائم على قدميه واحداً بعد الآخر على ترتيب مراتب الوفد،

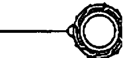
---

(283) لدى س "نرى".

(284) السبابيط جمع سَباط في العامية المغربية وهو الحذاء، يقول د. محمد بن شريفة: والصباط عند الأندلسيين والمغاربة: الحذاء، وهي في الإسبانية Zapato. أمثال العوام في الأندلس: 2/ 109.

(285) Henri Poincaré سبق التعريف به.

فصافح كلَّ واحد بعد أن عرفَ اسمه وخُطته، ورحب بالكل باسماً هاشاً، ويلوح على محياه البشوش لوائح البشر والنشاط والنباهة، والاقتدار في الإبانة وحسن المنطق، وجمال الوجه ومكارم الأخلاق. ثم أعرب لنا عن سروره بمشاركتنا في حفلة النصر، وصرح بأن المغرب كما شارك افرانسا في ضراء الحرب سيشاركها في سرّاء النصر، وأن مستقبل المغرب مستقبل زاهر بما في نوايا الدولة الجمهورية العظمى من الترقيات والأعمال المفيدة؛ وأثنى على عساكر المغاربة البواسل، ومعونة السلطان وأعوانه بحسن الإدارة وصدْق المحبة؛ فأجابه الرئيس بالشكر التام على ما لقيناه في البلاد الفرنسَاوية من الحفاوة والالتفات وهنأه بالنصر العظيم، وطلب أن تبذل افرانسا مجهودها في ضم طنجة إلى المنطقة الفرنساوية[286]، لأنها جزء من المغرب لا يتجزأ، فأجابه الرئيس بأنه لا يقدر أن يجيبه جواباً كافياً رسمياً في ذلك، ووعد خيراً في المباشرة. ثم التفت إلى باشا طنجة السيد الحاج عبد السلام بن عبد الصادق[287]، وتقدم إليه، فسأله عن بلده وأحوالها. ثم ودَّع الجميع والألسنةُ تثني عليه الثناء الجميل، وعلى أخلاقه الجميلة وتواضعه الزائد، حتى يظن الظان أنه ليس رئيس جمهور أمة تعد بأربعين مليوناً ومُستعمراتها بستين مليوناً. ثم بعد خروجنا دخل الوفد التونسي، ثم الجزائري ولكن انصرفنا فلم ندرِ ما قالوا ولا ما أُجيبوا به[288].



دار الصور المجسمة[289]

من جملة ما رأيته في باريز دار الصور المجسَّمة من الشمع. ولما دخلتها، وجدتُ فيها أشباح رجال قائمين على أرجلهم، لابسين للملابس عسكرية وغير عسكرية، فما يظن الظان إلاّ أنهم ناطقون أحياء، وهناك وجدنا صورة

(286) كانت طنجة إذ ذاك تحت إدارة دولية.

(287) سبق التعريف به.

(288) المقطع من قوله "ثم بعد خروجنا" إلى قوله "أجيبوا به". ساقط لدى س.

(289) دار الصور المجسمة: .Le Panthéon معلمة أثرية بباريس أنهي بناؤها سنة 1812، وفي سنة 1791 خصصت لحفظ رماد جثث عظماء فرنسا ثم صارت كنيسة 1806 لتُعاد إلى وظيفتها الأولى 1830، ثم صارت منذ 1885 متحفاً لتماثيل عظماء فرنسا.932 /D.E.H: 2 .

بعض الخنادق الحربية والعدُو قد دخلت عليه الجنود تضرب جنوده داخلها، وغير ذلك من الصور المهولة العجيبة.

وصعدنا إلى غرفة متسعة مثّلوا فيها إقبال ظلام الليل وطلوع القمر، وظهور النجوم ثم بزوغ الفجر وظهور غزالة النهار[290]، وغير ذلك من الأمور التي يندهش لها ذهن الحاذق الجَسور. كل ذلك بعمل الكهرباء، ومثّلوا هناك غابات وأشجاراً ودوراً ومنازل يراها الرائي ماثلة شاخصة، وليس هذا من باب ما يُمثل في الصور المتحركة[291]، بل هذا أعجب من ذلك يُرى مُمثّلاً في فضاء متسع دائر بك حتى يظن الظان أنه من باب السحر لا من باب التمثيل. وبالجملة، فباريز دار العجائب ومَجمع الغرائب.

نهوضنا من باريز إلى الألزاس[292] واللورين[293] ومواقع الحرب

وفي يوم الاثنين 20 يوليوز في الساعة 8 صباحاً[294]، ركبتِ الوفود الثلاثة القطار الحديدي، فتوجهنا، على جناح السلامة، قاصدين مدينة نانصي[295] على الحدود اللورانية[296]. ومررنا في طريقنا على قرى ودساكِر ومحطات حديدية عديدة. وكل هذه الأرض أشجار وأغراس وزروع، مثل ما

(290) غزالة النهار: الشمس: لسان العرب: غزل.

(291) يعني بالصور المتحركة السينما ويقول مترجماً الرحلة إلى الفرنسية إن الأمر يتعلق ب: Diorama *Voyage d'Europe*: 69، وهي عبارة عن مشاهد بانورامية يُتوصل بواسطة ألعاب إنارية وحيل إلى الإيهام بواقعيتها: .D.E.H: 1/ 388 وقد وصفها من قبل الصفار: صدفة اللقاء مع الجديد، رحلة الصفار إلى فرنسا: 158.

(292) الألزاس: L'Alsace: منطقة بشرق فرنسا تداولتها عدة دول ثم ضُمت إلى فرنسا في حرب الثلاثين سنة ما عدا سطراسبورغ التي ضمت إليها سنة 1681، ضمت إلى ألمانيا هي وجزء من اللورين سنة 1871، ثم عادت إلى فرنسا بموجب معاهدة فرساي 1919: .D.E.H: 1/40

(293) اللورين: La Lorraine منطقة بشمال شرق فرنسا، انتقلت عبر تاريخها بين عدة دول، صارت فرنسية سنة 1552، اقتطع منها جزء لصالح ألمانيا بعد حرب 1870 قبل أن تعود إلى فرنسا بموجب معاهدة فرساي 1919 .المصدر السابق: 258-257/ 2.

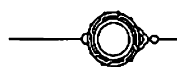
(294) 20 يوليوز 1919 م يوافقه يوم 21 شوال 1337 هـ.

(295) نانصي: Nancy مدينة على نهر La Meuthe وقناة La Marne، استفادت اقتصادياً من ضم ألمانيا لمدينة Metz المجاورة (1871-1918): .D.E.H :2/ 867

(296) حق نسبة اللورين: اللورينية.

تقدم الوصف في غيرها، وهنا أكثر، ولكن قد أثّرت الحرب في كثير من تلك الأبنية بالهدم والتخريب. فوصلنا مدينة نانصي في الساعة 2 بعد نصف النهار، ونزلنا في كران أوتيل الذي هو أمام بطحاء جميلة، وزاد جمالُها ببستان عمومي جميل للغاية أمامها.

وقد تجولنا في أنحاء المدينة وأحيائها فإذا هي مدينة جميلة كبيرة مُحصّنة غاية التحصين، ولها تحصين طبيعي بما أحاط بها من الجبال الوعرة المسالك، وهي وراء الجبل على وادي هناك، وقد أثّرت فيها القنابل المدفعية والهوائية[297] تأثيراً أكثر مما رأينا في باريز بمراحل لقرب هذه من الحدود جداً. ولكن ما حولها من الحصون منع العدوّ من الوصول إليها، وإن لم يمنعه من إصابة بعض أبنيتها مع اختفائها وراء الجبل وبين الأودية، وفيها حمام معدني ومُنتَزه في رأس الجبل يقصده السواح والمتداوون لصفاء هوائه، وبِتنا هناك.



وصف ميادين القتال وما وقع فيها

وصبيحة الثلاثاء 21 منه توجهنا على الطائر الميمون إلى التجول في ميادين القتال بالحَدَادة[298] اللورانية. فركبنا أوتومبيلات أُعِدَّت لنا هناك من لدن الوزارة الحربية. ومنذ انفصالنا عن نانصي ونحن نرى أن الأرض قُلِب بطنُها على ظهرها، وخُرِّبتْ عِمارتها وذهب جمالها الصناعي والطبيعي، فالنباتات حُرِقت، والأشجار قُطعت، والأبنية هُدمت إلى أن وصلنا إلى فيردن التي صار اسمها في العالم أشهر من نار على عَلَم[299]، بما وقع فيها

(297) يقصد بالقنابل الهوائية: الملقاة من الطائرة.

(298) الحَدادة في العامية المغربية: الحدود بين الدولتين.

(299) وضع المؤلف عنواناً بعد هذه الكلمة: "مدينة فردن" إلا أن استرسال الحديث جعلا إثباته غير مُستَساغ. والعنوان المذكور ساقط لدى س.

ومدينة Verdun، مدينة بنيت فوق دهاليز شاسعة مما قوى تحصينها، ويشير المؤلف إلى معركة فردن التي دارت أثناء الحرب العالمية الأولى 1916 وقتل فيها من الجانبين الفرنسي والألماني أكثر من 700000 رجل، وعدُّوها رمزاً للصمود في وجه الغازي الألماني: D.E.H: 3/ 1334.
وضمّن المؤلف البيت المشهور .ديوان الخنساء: 40.

من المعارك الدامية بين الجيشين الفرنساوي والألماني.

وكان وصولنا إليها في الساعة 11 نهاراً، فجُلْنا في أسواقها وطُرُقها وآثارها، فإذا هي مدينة حصينة بين الجبال، مختفية على قنال وادي[300] يشقها على قنطرة. ومع اختفاء المدينة وشدة حصانتها ومتانة أبراجها تخربت جل معالمها وديارها ومحطتها الحديدية، فأضرارها أكثر من أضرار مدينة نانصي بكثير، ولكن مع ذلك بقي كثير من الدور والمخازن سالماً، وبعضها وقع فيه انشقاق ومَيلان. ولكن اليد العاملة هناك تُصلح بعض الدور، ورجع الناس للتعمير والسكنى فيما بقي. وبدأت بعض الأسواق في العمارة.

برج فِرْدُفو[301]

وبعد التَطَوُّف فيها خرجنا منها لنزور الأبراج المحيطة بها من جهة "الحَدادة"، فوصلنا إلى برج فِردُفو ووجدنا هناك في انتظارنا حاكمها، الجنرال فلانطيان، فطاف بنا حول البرج وأطلعَنا على الطرق المؤدية إليه المنحوتة في الجبل، الخفية عن الأبصار بحيث يمر الأتومبيل حاملاً في الطريق من فردن إلى أن يدخل البرج لا يراه العدو، وهكذا من فردن إلى البرج عدة مكامن وخنادق وطرق مؤدية إليها لا يراها الإنسان حتى يصل إليها، فالأرض كلها من نانصي إلى هذا البرج تقريباً كلها خُرْبٌ، فلا ترى إلاّ طريقاً منحوتاً عليه النباتُ ملتف لا يراه إلاّ من كان ماشياً فيه أو بقربه، أو خندقاً أو عَسَّة[302]، أو مَرصداً منحوتاً في الجبل يرى صاحبُه ولا يراه أحد، وهكذا إلى أن وصلنا البرج.

وقبل أن ندخل البرج، وقف الجنرال المذكور وألقى علينا خطاباً بيَّنَ لنا

---

(300) الأصح: وادِ. ويقصد وادي La Meuse، نهر ينبع من أسفل هضبة Langres ويصب في بحر الشمال على مسافة 950 كلم، ماراً بفرنسا وبلجيكا وهولندا: D.E.H: 2/ 823.

(301) عنوان ساقط لدى س. فِردُفو: Fort de Vaux.

(302) عسَّة: تعني في العامية المغربية الفرقة من الحراس، مشتقة من العسس، والعس: الطواف ليلاً للحراسة، ومن جموع العاس: عسَسَة وهو قريب من الاستعمال أعلاه: لسان العرب: عسس.

فيه هجوم الألمان على البرج المذكور المرة الأولى والثانية والثالثة. ففي إحدى المرات أخذه واحتل فيه بعد عراك شديد دام سبعاً وعشرين ليلة. ولما دخله وجده فارغاً، خلاف ما كذب في جرائده وشنّع بأنه أخذ حاميته أسرى، وذلك أنه لما طال القتال والعراك تمكن العدو من قطع خط الرجعة على حامية البرج، وأحاط به وصَبَّ عليه ناراً حامية، وكانت الأمطار غزيرة، ولما انقطع الزاد والمدد عن الحامية التي كانت فيه أربعةَ أيام ما ذاقوا فيها ذواقاً، والموتى بين أيديهم والمجاريح تموت، وهم مغمورون في الماء، عند ذلك قال لهم أميرهم: قد أديتم ما يجب عليكم نحو الوطن الفرنساوي، فإن شئتم خرجتم وتركتم البرج للعدو. فخرجوا وسلّموه؛ وعند ذلك دخله[303] العدو، ولكن رجع الفرانساويون بعدما جمعوا قوتهم وأخرجوه منه عنوة. ثم لما هجم العدو مرة أخرى دبّر له المرشال بيطان[304] مكيدة، وكان إذ ذاك جنرالاً رئيس الجنود هناك. فكان العدو يمهد سبيل الهجوم بمدافعه الضخمة على عادته، والمدافع الفرانساوية من طرز 75 تجاوبه، ومن أطرزَة أخرى وبطرياتها[305] كثيرة، وأظنه قال: سبعون بطرية. ففي كل طلقة يأمرهم الجنرال بيطان بإسكات بطرية، حتى لم تبق إلا بطرية واحدة تجيب العدو من البرج؛ فلما رأى العدو ذلك لم يبق له شك أن البرج انهدم وأن المدافع أُفسدتْ، وكان رئيس جنود العدو ولي عهد الألمان، فأمرهم بالزحف على البرج؛ فتركهم بيطان حتى ملأوا السهل والجبل، وكُسيت الأرض بعساكرهم وصاروا هدفاً لمدافع الفرنسيس؛ فعند ذلك أصدر أمره إلى عساكره المحصنة في البرج بصب نيران المدافع عليهم، فامتثلوا وفتحت

---

(303) لدى س "دخل".

(304) المرشال بيطان: Philippe Pétain (1856-1951)، ضابط ورجل دولة فرنسي، من أبطال معركة فردن المشار إليها قبلُ: 1916، شارك في الحرب ضد محمد بن عبد الكريم الخطابي بالمغرب 1925، والى الألمان في الحرب العالمية الثانية على رأس حكومة Vichy، ولذلك حُكِمَ عليه بالإعدام قبل أن يخفف إلى الإقامة الجبرية: D.E.H: 2/ 966.

(305) بطريات: ج بطرية: Batterie: وحدة عسكرية تتضمن المدافع وذخيرتها وتتكون هذه الوحدة عموماً من 4 إلى 8 قطع من الجنود اللازمين لتشغيلها .المصدر السابق: 120/ 1.

المدافعُ أفواهها بعدما كانت ساكتة مختفية. وأصلَتْ تلك العساكر المنتشرة في تلك الأودية نارَها الحامية، فكست الأرض بجثتِها وتركتها مرعى لنسر وطائر[306]. وكانت هذه الوقعة من أشنع الوقائع وأقبحها على الألمان، تكبد فيها خسائر عظيمة، وثُلِمَ[307] الجيش الألماني بثلم لا ينجبر، وذهبتْ رجالُه ضحية استبداد أميرهم الجريء الغَشوم، ولم يبق لهم بعدها مطمعٌ في البرج. وفي المرة[308] الثالثة هجمت عليهم الجنود الفرنساوية فزحزحتهم عن مواقفهم. هذا يلخص خطاب الجنرال حسبما بلَّغنا الترجمان، وخَطَبه علينا ونحن على باب البرج والمطر إذ ذاك يصب علينا بغزارة.

ثم دخلنا البرج، الذي هو عبارة عن جبل منحوت هبطنا إليه بدرج كثيرة، ولمّا وصلناه وجدناه عجباً وأي عجب: فيه دروب ودهاليز منفتحة إلى سائر الجهات، كل فتحة تكون فيها المدافع التي تصبُّ النار على الأعداء، مما يحار العقل في تكييفها، والقلَم في وصفها. وفيه مساكن العساكر ومَحالُّ الأكل، ومواضع خزن الذخائر والمؤن الكثيرة، وأسلاك الكهرباء ممتدة إلى جميع جهاته للأضواء والتليفون. ورأينا في أرضه مَطابق متعددة بأبواب حديدية، فسألنا عنها فقال لنا إن تحت البرج برجاً آخر مثله عيناً بعين، على عمق ثمانية عشر ميطراً، بحيث إذا اندك البرج الأعلى بالمدافع الضخمة، تدلت الحامية في المطابق إلى البرج الأسفل. وأخبرنا الجنرال أنه إذا كانت القنابل تنزل فوق البرج ظَنَّ من فيه أنه اندَكَّ فوقه، وتكون هناك الأهوال العظيمة التي لا يثبت لسماعها إلاّ من كان له قلب حديد.

وحاصل القول إن هذا البرج من الآثار العظيمة والأعمال الكبيرة التي

---

(306) استعمل المؤلف تعبيراً عربياً قديماً يُكني عن ترك العدو أشلاء مُهمَلة، ومن ذلك قول عنترة:

إن يفعلا فلقد تركتُ أباهما ... جزرَ السباع وكلّ نسر قشعم

شرح المعلقات السبع: 214.

(307) ثُلمَ: كُسِرَ: لسان العرب: ثلم.

(308) لدى س "المدة".

تدل على ما للدولة من العظمة والمنعة، والقيام بالدفاع عن الوطن. وقد سُمي هذا البرج باسم مخترعه.

ثم رجعنا إلى فردن بعد استيعاب عجائب البرج المذكور، وشاهدنا في طريق رجوعنا مثلَ ما شاهدنا في طريق مرورنا من الهدم والتخريب وقلب الأرضِ بطناً على ظهر، حتى لم تعد صالحة للحرث بل لا يقدر أحد أن يُجري فيها سكة الحرث، ولا أن ينقرها بفأس الفلاحة خوفاً من انفجار بقية المواد التي كانت المدافع والطيارات تقذفها. وعند وصولنا إلى فيردن دخلنا برجَها الشهير، الذي هو بطرف المدينة المسمى سيطادِلْ فيردن[309]، وهو على نسق البرج السابق. وقد وجدنا مائدة الإفطار مُهَيَّأة داخله للوفود الثلاثة مع الجنرال المذكور وأركان حربه، وبداخله الموسيقى العسكرية. ووقفنا حتى أتمت نشيد المرسلياز[310] الوطني الذي اسْتُقبلت به الوفود ترحيباً بهم، وتلك عادة لابد منها، وهي الوقوف ووضع اليد على الرأس لإجابة سلام الموسيقى مهما أُنشدت المرسيلياز تعظيماً لهذا النشيد الذي يعتبره الفرانساويون شعار الجمهورية الفرانساوية وسلامها الخاص. وكان تناول الإفطار متأخراً إلى الساعة الأولى بعد الزوال. وبعد تمام الإفطار قام الجنرال وشرب نخب إفريقيا الشمالية وعساكرها ورحَّبَ بنا غاية الترحيب، فأجابه رؤساء الوفود بما يناسب مقامه وانصرفنا بعد الوداع معه إلى متس.



مدينة متس[311]

وهي مدينة على الحدود اللورانية، من ضمن اللورين التي كانت بيد الألمان واسترجَعَتْها فرنسا من يدهم[1]. وقد تبدلت مناظر الأرض وأهلها

---

(309) سيطاديل فيردن: Citadelle Verdun وهي الحصن الذي يمثل الجزء الأرضي من مدينة فردن المتكون من نفق هائل: . D.E.H: 3/ 1334.

(310) المرسلياز: La Marseillaise النشيد الوطني الفرنسي، وضعت كلماته وألحانه سنة 1792، واعتمد نشيداً وطنياً 1795، مُنع بين 1815 و1870، ثم أعيد رسمياً سنة 1879 .المصدر السابق: 2/ 797.

(311) متس: Metz المدينة الفرنسية الحدودية مع ألمانيا، ضمتها هذه الأخيرة سنة 1871 واستعادتها فرنسا سنة 1918 .المصدر السابق: 2/ 822.

وطقسها؛ فالطقس هنا أبرد، والأرض أشد خصوبة وأجمل منظراً وأكثر أشجاراً، والساكنون أشد شُقرة، وفي الوجوه أزيد حمرة وأصفى ألواناً وأقل جمالاً.

ولما وصلنا متس وجدناها مدينة أوربية جميلة في وادي منخفض وقد أثرث فيها قنابل الطيارات، ولكن قليلاً فقط. فذهبنا تواً إلى بيت حاكمها العسكري الجنرال دومودوي[312] الفرنساوي، وعليه الراية الفرنساوية خافقة بعد غروبها عن تلك البلاد خمساً وأربعين سنة[313]. وإذا بداره هي الدار التي كان يسكنها الحاكم الفرنساوي قبل الاحتلال الألماني. وعند احتلال الألمان إليها سنة 1870[314] كان هَدْمُ المدافع قد أثّر فيها فأصلحها الألمانيون على النسق الفرنساوي لم يغيروه، وخرجوا الآن وتركوها بحالها ومحتوياتها. ولما قابلنا الجنرال المذكور فاهَ بخطاب بليغ ورحب بنا غاية الترحيب قائلاً: إني كنت مشوقاً لرؤية شمال إفريقيا لكني رأيت نخبة رجالها، فالحمد لله على الاجتماع بهم. وقد قُذت عساكرها البواسل تحت رايتي فوجدتهم أشجع الرجال وأكثرهم صبراً، صدّقوا في دفاعنا عن أرضهم[315]، ثم لما احتضنّاهم صاروا لنا إخوة صادقين فقاتلوا معنا بصدق وإخلاص يحسدنا عليه أعداؤنا، مما يدل على صفاء طويتهم نحونا، فَسِرُّهم كعلانيتهم لا يشوبهم غش ولا خداع. فأجابه الرئيس بما يناسب المقام. ثم توجهنا للمحل الذي أُعدّ لنزلنا، وهو كران أوتيل القريب لداره.

ومن الغد تجولنا في أنحاء المدينة ووقفنا على بعض ما خلّفه الألمانيون من الآثار في التعمير قبل الحرب والتخريب بعده. وفي الحقيقة إن التخريب هو من الجيوش الفرنسية التي كانت تريد احتلالها ولكن بسبب حرب الألمان.

---

(312) *Voyage d'Europe*: 75: De Maud'huy (2).

(313) بل 37 سنة كما يتضح مع خلال الهامش السابق.

(314) واضح أنه تاريخ بداية الحرب، أما تاريخ استيلاء الألمان على المدينة فكان سنة 1871 كما هو مثبت في هامش سابق.

(315) دافعتُه عن أرضي: رددّته عنها وحاربته.

وفي المدينة حصون هائلة، وأبراج دفاع غير مائلة، بل مختفية، وفيها فواكه كثيرة ونِعَم وفيرة. وهي مدينة بين جبلين يشقها ترعة وادي[316] عليه قنطرة مهمة. والسكان الآن بالمدينة قليلون لما تقدم من الحرب و[317] المهاجَرة.

وفي الساعة 8 صباحاً من يوم الثلاثاء 22 جليط[318] مُوافق 21 شوال، جاء الجنرال المذكور لرد الزيارة. وفي الساعة 2 بعد نصف النهار أتى مع فرقة من عساكره الخيالة لمحل نزلنا ووقف بالباب والموسيقى العسكرية تصدح حتى ركبنا الأتومبيلات وودَّعنا وعساكرُه مصطفة. فصوَّبنا وصعد[319]. وتوجهنا إلى سطرسبورغ[320]، فمررنا على طريق مطولة فيها عدة قرى ومدن، جلها ألزاسية، لأن الحدادة بين اللورين والألزاس هي قريبة من متس. وبفراقنا لمتس فارَقْنا محلَّ أضرار الحرب فلم نَرَ بعدها محَلاً متهدِّماً ولا مائلاً، وإنما هي أرض الزراعة والأشجار، والثمار والأنهار وتغريد الأطيار، فيها من أنواع الفواكه والخيرات شيء كثير، فهي أخصب من بلاد افرنسا التي مررنا بها من قبل، حتى إن الأشجار التي يغرسونها على الطرق الصناعية كلها أشجار فواكه من جوز ولوز ومشمش وتفاح وإجاص وبرقوق وخوخ؛ فترى الفواكه تدوسها عجلات الحوافل في كل صوب. ولا أجمل من مناظر هذه الأرض، كلها مزروعة بالخضر وأشجار الفواكه والعنب؛ وفيها المزارع الخصبة بالحبوب[321]، وصناعة الفلاحة قد ارتقت فيها إلى أعلى درجات الكمال، ولا سيما عندما اقتربنا من سطرسبورغ بنحو ساعتين، فكأنما تلك الأرض بستان التجربة النباتية للخضر

(316) يقصد نهر موزيل .La moselle

(317) الواو ساقطة لدى س.

(318) لدى س "جوييه". وجليط: .Juillet

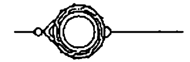
(319) الكلمتان الأخيرتان ساقطتان لدى س.

(320) سطرسبورغ، Strasbourg مدينة بمنطقة الألزاس بمقاطعة الراين السفلى، وأسست حوالي 15 قبل الميلاد: .D.E.H. 3/ 1214

(321) لدى س "والحبوب".

والفواكه والثمار. وكان النهار بارداً، إذ جو هذه البلاد أبرد من أرض باريز، وأيام السفر كانت كلها باردة والأمطار غزيرة.

مدينة سطرسبورغ



قد وصلنا مدينة سطرسبورغ في الساعة 6 عشية، فنزلنا في فندق بْلاص. وقد تفرق الأعضاء في فنادق أخرى لكثرة الزوار في الفندق المذكور، بل وفي غيره. فهذه المدينة هي عاصمة الألزاس، معدودة من المدن الأوربية ذات الاعتبار، فيها ترعة وادي جميلة مجلوبة من نهر الران[322]، وعليها قنطرة مهمة، وشوارعها متسعة منتظمة، وفيها ميادين وسيعة، وبساتين بلدية جميلة.

ويوم الأربعاء تجولنا في ضواحي المدينة وأنحائها وأسواقها الجميلة ذات التجارة والأبضعة النفيسة. وفي المدينة عدة كنائس مهمة، إحداها بصدرها صورة مارشال فرنساوي كان هزم الألمان والنمسا وهولاندة في حرب قديمة قبلَ عام 1870، وقد تركها الألمان على حالها بعد احتلالهم البلد. وبأسفل الصورة صندوق رخام به جثة مصبَّرة[323].

وهناك في خزانةٍ قلبُ المرشال المذكور مُصبَّراً. وفي الكنيسة[324] أيضاً قبر رخام به رَجُل مُحنَّط منذ ما ينيف على مائتي سنة بكسوته الإفرنجية، وعليه وعلى القبر زجاجة بحيث يُرى وجه الرجل كأنه نائم. وعند رجله بنت له صغيرة كذلك.

---

(322) الران: Le Rhin النهر الأوروبي العظيم، ينبع من جبال الألب السويسرية، تصب فيه عدة روافد يصب عبر دلتا في هولندا: .D.E.H : 3/ 1105

(323) مُصبَّرة: "من صبر الجثة: صنع بها ما يحفظها على هيئتها ويقيها الفساد إلى وقت ما لأنهم كانوا يستعملون قديماً الصَّبر لذلك" .الرحلة الإبريزية إلى الديار الانجليزية: هـ 22 .وهو التحنيط، والصَّبرنبات مرّ، كالسوسن الأخضر. لسان العرب: صبر.

(324) لعله يقصد كنيسة سان توماس، المتضمنة قبر المرشال دوساكس، توفي 1750 : /D.E.H: 3 1750.



ورآينا هناك أيضاً كنيسة كبيرة أخرى بها ساعة تعد من عجائب الدنيا من عمل يد رجل صوَّروا تمثاله بباب الكنيسة. ويقال إنهم قتلوه حسداً على صنعتها، ومعه صورة بنته التي أعانته عليها؛ وما كمَّلها هو بل كملها غيرُه رغماً عما حل بالمخترِع من القتل.

والحق يقال إنها من العجائب، فإن الساعة المذكورة شغلتْ جزءاً مهماً من مدخل الكنيسة، وفيها محل يدل على الساعة والدقائق، وفيها صورة الفلَك، ويؤخذ منها مقدار ما قطعت الشمس والقمر من الفلك، فتدل على عدد أيام الشهر العربي والعجمي بتدقيق، وتحقيق حتى أن الكبْس الذي يكون على رأس ثلاث أو أربع سنوات[326] يخرج هناك مدقَّقاً محققاً، بل وحركة الأقبال[327] كذلك، لكون مخترعها بنى ذلك على قواعد منضبطة لا تتخلف، ومسائل فنية في غاية التحري والإتقان؛ قال المكلَّف بها إن لها مدة سبعين سنة ما وقع فيها زيادة ولا نقص، بل هي في غاية الضبط للأوقات والأيام، ولا تحتاج إلى تعمير قوة خدمتها إلاّ مرة في السنة. ولها منذ وجودها مائة سنة، وفيها صورة بِنْتٍ بيدها مطرقة تدق الساعات على ناقوس، وديك يصرخ، وفي أعلاها صورة المسيح واقفاً وبيده الصليب، فإذا وصلت الساعة 12 مرَّ بين يديه الحواريون خاضعين له، وهو يشير لهم بالصليب مُبركاً عليهم؛ وبها عجائب أخرى يطول شرحها. حاصله، ألقى علينا المكلف بها درساً في بيان تركيبها وعجائبها في مقابلة شيء من الدريهمات يتقاضاه. وبذلك صارت الكنيسة محلَّ فُرجة وشبكة فلوس[328].

---

(325) منجانة: ومكَانة هي الساعة في العامية المغربية، يقول ذ. محمد الفاسي إن أصل الكلمة يوناني: .Magganon الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية: هـ 6.

(326) الكبس: من العام الكبيس: وهو العام الرابع الذي يزيدون فيه في شهر فبراير (شباط) يوماً فتكون أيامه 29 بدل 28 في الأعوام السابقة عليه، وذلك ليقيموا حساب كسور السنة. لسان العرب: كبس.

(327) لدى س "الإقبال" والأقبال: ما استقبلك من مُشرف، والأقبال هنا من القبل: أن يُرى الهلال أول ما يُرى ولم يرَ قبل ذلك. لسان العرب: قبل.

(328) شبكة فلوس: يعني: وسيلة لكسب المال.

ولقد أذكَرتْني هذه المنجانة منجانة أبي عنان بطالعة فاس[329] وقد اندثرت ولم يبق إلاّ بعض نواقيسها، ومنجانةَ أبي حمو الزياني التي كانت[330] في تلمسان، وصَفها يحيى ابن خلدون[331] في تاريخه. ولعل منجانة سطراسبورغ صنَعها صانعُها على منجانة أبي حمو، كما أن منجانة أبي حمو قلد فيها مخترعها منجانة هرون الرشيد المشهورة في التاريخ، التي أهداها للملك شارلمان الفرنساوي. فقد ذكروا أنها كان يديرها الماء، وأن لها اثني عشر باباً كلما مضت ساعة يُفتح باب برزت منه مطرقة ضربت على جرس عددَ الساعات، ثم تخرج صور إثني عشر فارساً على خيل تدور على صفحة الساعة. ولا غرابة في هذا فقد سَبَقَ المسلمون إلى اختراعات أخرى. وذكر بعض المؤرخين أن الرشيد لما وجه منجانته إلى شارلمان تعجبوا منها وظنوا أن بداخلها جنياً يحركها[332]. نعم إن منجانة أبي حمو هي أغرب من منجانة سطرسبورغ، إذ منجانة أبي حمو كانت الجارية تخرج من كل ساعة من ساعات الليل وتنشد أبياتاً تناسب تلك الساعة، كما بسط ابن خلدون القول في ذلك. فلْيَنْظُره مُبتغيه في تاريخه "بغية الرواد[333]".

وفي هذه المدينة ميدان واسع، فيه تمثال العالم الألماني جوتنبرج الذي اخترع المطبعة[334]، وكانت سبباً في تقدم العلوم الإفرنجية والعربية. وهو مولود في ما ينص[335] الألمانية سنة 1400، وهناك شارع باسمه أيضاً[336]

---

(329) ساعة أبي عنان المريني أقامها له الموقت علي التلمساني سنة 758 هـ، إزاء مدرسة الطالعة بفاس: والطالعة: أحد أحياء مدينة فاس: فاس منبع الإشعاع في القارة الإفريقية: 2/ 397.

(330) الكلمتان الأخيرتان ساقطتان لدى س.

(331) يحيى بن محمد بن خلدون، شقيق المؤرخ المعروف، قتل بتلمسان 1378 م .الأعلام: 8/ 166.

(332) انظر في هذا الشأن: قصة الحضارة، ول ديورانت: 94؛ تاريخ الإسلام السياسي...، حسن إبراهيم حسن: 2/ 237.

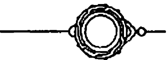
(333) يشير ابن خلدون إلى نظمه أبياتاً على لسان الجواري فقط .بغية الرواد: 2/ 218.

(334) جوتنبرج Johann Gensfeisch Gutenberg (ما بين 1394 و1399-1468)، مطوِّر المطبعة بوضع الحروف التيبوغرافية المتحركة : D.E.H: 2/ 600.

(335) ما ينص: Mayence: مدينة وميناء ألماني، في ملتقى نهري Le Maine و Le Rhin وبها متحف Gutenberg المشار إليه في الهامش قبل .المصدر السابق: 2/ 806.

(336) كلمة ساقطة لدى س.

تعظيماً لشأنه. ولولا اختراعه ما وصلت العلوم إلى ما هي عليه.



وصف الألزاسيين واللورانيين وأخلاقهم

أهل ألزاسيا ولورانيا قريبون في شكلهم وصوَرِهم وأخلاقهم من افرانسا، نعم، الفرنساويون أكثر جمالاً وشَعرهم أكثر سواداً عن هؤلاء. نعم، لون هؤلاء أصفى وأكثر حمرة وبياضاً من الفرنساويين، وأجسامهم أقصر شيئاً ما، أما أخلاق الفرنساويين فأجمل[337]. ولما كنا في باريز لم يكن الناس يجتمعون علينا، أما هؤلاء فجعلونا عجباً، وكانوا يجتمعون لرؤيتنا رجالاً ونساء وصبياناً، وأكثَروا في ذلك مما يدل على خفة أذهانهم، كأن الله ما خلق بني آدم إلاّ ليلبسوا لباسهم، وكأن آدم خرج من الجنة بلباس أوربا، مع أنهم أقل حِذقاً في اللباس من الفرنساويين، فالفرنساويون يتجملون أكثر منهم، ولا سيما النساء. ولقد جاءت امرأة تسألنا متعجبة من لباسنا: هل أنتم يهود؟ وأخرى تقول: هل أنتم تلعبون في الطياطر؟[338] يعني الملاهي، حتى حصل لبعض الأعضاء نوعُ ضجر من ثقل سؤالهم وكثرة تفرجهم. ثم المعيشة في هاتين المقاطعتين أرخص من افرانسا بكثير.

وفي الساعة 12 من يوم الأربعاء المذكور كان إفطارنا عند حاكم عموم الألزاس واللورين، وهو موسيو ميلران[339] الذي كان وزير الحرب في افرانسا، وحضر على المائدة 40 مدعواً والوفود الثلاثة وبعض الأعيان كحاكمها المدني وحاكمها العسكري، وهو الجنرال كورو[340] المشهور ولا سيما في المغرب وخصوصاً فاس التي طال حكمه بها.

---

(337) نلاحظ تخصيصه سكان باريز ونواحيها بوصف الفرنساويين.

(338) الطياطر: Théâtre.

(339) ميلران: Etienne Alexandre Millerand (1859-1943)، رجل السياسة الاشتراكي الفرنسي، تقلد عدة مناصب، منها وزير الحرب (1912-1915) ثم رئيس الجمهورية (1920-1924): D.E.H: 2/ 828.

(340) سبق التعريف به. وهو أحد كبار المسؤولين العسكريين الذين عملوا بالإقامة العامة الفرنسية بالمغرب، وكان قائد الجيش الفرنسي في مذبحة فاس 30 ماي 1912. كما قاد العمليات الاستعمارية بسوريا (1919-1923-): المصدر السابق: 3/ 578؛ محمد الخامس: 33.

وبعد تناول الغذاء خطب موسيو ميلران مرحباً بالوفود، مثنياً على الجنود، فأجابه رؤساء الوفود بالشكر التام. أما رئيس وفدنا فكان جوابه بالعربي وتُرجم حيناً، وأما رئيسا الوفدين التونسي والجزائري فأجابا بالفرنساوي. وبعد تبادل الأنخاب تفرق القوم فركبنا الأتومبيلات وذهبنا قاصدين الحدود الألمانية.

أرض السار والحَدادة الألمانية الألزاسية[341]



ومنذ فارقْنا سطرسبورغ ونحن في بساتين عامرة آهلة بالدور والضُياع إلى أن وصلنا إلى وادي الرين[342] الذي هو الحد الفاصل بين ألزاسيا وألمانيا. وكأنما هي مدينة متصلة إلى الحدود، وهي مسافة نحو ساعة في الأتومبيل. ووجدْنا على الرين قنطرة ضخمة حديدية على نحو ما وصفنا في قنطرة بوردو، وهي معدودة من الألزاس لأن الوادي من أرض الألزاس، والحد هو ضفة الوادي من جهة ألمانيا، والقنطرة من أضخم القناطر وأوثقها. وفي طرفها عَسَّة[343] الحدود.

وقد لقينا في طرق الحدادة كولُنيلاً افرانساوياً نائباً عن رئيس الجيش المحتل في أرض السار التي هي ألمانية، وهو الجنرال مانجان[344]، فرحب بنا وتقدم معنا حتى دخلنا مرسى كيال[345] الألمانية، وهي مرسى مهمة على النهر المذكور الذي تجري فيه السفن الكبار إلى أقطار الأرض، فرأينا هناك

---

(341) عنوان ساقط لدى س. وأرض السار: La sarre، منطقة ألمانية على الحدود الفرنسية، 2569 كلم^2، كانت محل نزاع تاريخي دائم بين البلدين، وكانت مناجم فحمها من نصيب فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية، استمرت تحت إشراف دولي ولم تنضم إلى ألمانيا سوى سنة 1957: D.E.H: 3/ 1150.

(342) الرين: Le Rhin: نهر أوربي عظيم طوله 1298 ينبع من جبال الألب السويسرية يتلقّي روافد كثيرة، ويهمنا منه مروره من ما بنصِ المذكورة من قبل نحو رينانيا .المصدر السابق: 3/ 1105.

(343) سبقت الإشارة إلى معناها: حراسة.

(344) سبق التعريف به.

(345) كيال Keil، المدينة الألمانية ذات النشاط البحري والصناعي: D.E.H: 2/ 708.

الراية المثلثة[346] خافقة والجنود الفرانساوية حارسة قائمة بشؤون الاحتلال، والألمانيون في أشغالهم، والأشغال هناك عظيمة مهمة ناشطة؛ وهناك في المرسى مراكب كثيرة.

ثم رجعنا إلى سطرسبورغ وكانت العشاء عند الجنرال كورو أعدها مأدبة فاخرة حضرها الوفود الثلاثة وبعض أركان حربه. وقبل الدخول للأكل ألقى الجنرال المذكور خطاباً فخيماً ترجمه الترجمان الفصيح موسيو مَرسي[347]، الترجمان في الوزارة الحربية، أعرب فيها عن ما له من الميل الخاص للمغرب وخصوصاً فاساً التي يعد نفسَه واحداً من أهلها؛ واعترف بما شاهده من بسالة الجنود المغربية والجزائرية والتونسية، الذين هم أولاد حضانة افرانسا، وعَدَّدَ مزاياهم في السنة الأولى والثانية والثالثة والرابعة من الحرب التي ظهرت في معركة المارن وفردن[348] وغيرهما من المعارك العظمى حتى دفعوا العدو المهاجم عن أُمهم افرانسا. وأثنى على السلطان مولاي يوسف[349] وباي تونس وحكام الإيالات[350] الثلاث الذين عاونوا بصدق وإخلاص زائد فائق حد ما كان يُرجى منهم، حتى بقيت الإيالات الثلاث صادقة متمتعة بالأمن والعافية، مُعينة بكل ما لديها من نفس ونفيس، قائلاً إنه لا يزال يذكر مذاكرة بينه وبين عقلاء فاس لما ذهب مقيماً عاماً للمغرب في الوسيلة التي يحفظ بها الأمن في المغرب وأنهم أشاروا له بأمرين: الأول بقاء القوة العسكرية الموجودة إذ ذاك من غير أن ينقص منها شيء، الثاني عدم طول الحرب. قال: وقد بقي الأمن كما كان واختل الشرطان المذكوران فقد

---

(346) الراية الفرنسية ذات الألوان الثلاثة: الأزرق والأبيض والأحمر.

(347) مَرسي: مستعرب، رئيس قسم الداخلية في الكتابة العامة. **محمد بن الحسن الحجوي والحماية**: 392.

(348) سبقت الإشارة إلى هاتين المعركتين ص: 58.

(349) سبق التعريف به.

(350) الإيالات: ج إيالة: مصطلح إداري استعمله العثمانيون قبل إلغاء الانكشارية وانتشر في الدول العربية وقد أطلق في المغرب للدلالة على الدولة كما في الاستعمال أعلاه، وقد يستعمل بمعنى منطقة نفوذ رئيس منطقة أو قائد قبيلة. **العز والصولة في معالم نظم الدولة**: 1/ 399؛ **معلمة المغرب**: 3/ 917؛ **معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية**: 85.

أخذنا بعض العساكر من المغرب وطالت الحرب وبقي الأمن، مما دلنا على محبة المغاربة فينا وصدقهم معنا. وقد أجابه رؤساء الوفود كذلك بما يناسب المقام. وبعد الفراغ من الخطب مُدت الموائد وتناولنا طعام العشاء وتُبودلت الأنخاب بعده، وفرّق على أعضاء الوفد صورته، وطلب من أعضاء الوفد كتابة أسمائهم في دفتره المذهّب الخاص به ليبقى تذكاراً عنده، وتفرقَ القومُ شاكرين[351].



السفر إلى سانت أوديل

وفي الصباح ركبنا الأتومبيلات وتوجهنا قاصدين مدينة بلفور[352]، راجعين إلى باريز فمررنا على أرض خصبة، مزروعة بآلات حديثة متقنة تجرها البقر، أحسن ما رأينا وأجمل ما اكتحلت به أعيننا، فيها من الخضر والفواكه فوق ما يَتصور فكر فلاح مُغرَم بالفلاحة، وذلك نحو ساعة. وبعدها تعلقنا في الطريق الجبلي بين أشجار الغاب العظيمة وصعدنا في الجبال صُعُداً صعدا، ونحن نمر بمقاطع الشجر وماكينات نشر الأخشاب. ورأينا من أنواع المناظر الشجرية[353] والجبلية ومحاسن الطبيعة ما أسكر أذهاننا وسحَر عيوننا حتى وصلنا إلى منزل يقال له سانت أوديل، في رأس جبل، وهو محل الرهبان وفيه نزل يباع فيه الطعام أعدوا لنا فيه طعام الغذاء تناولناه هناك. وكان الغذاء جيداً، والمحل ذا مناظر زاهية زاهرة، حيث هو عال مشرف على غابات عظيمة متصلة في جبال شامخة، لا ترى إلاّ الجبال المصطفة المكسوة بأنواع من الشجر الجميل المنظر.

مذاكرة راهب في سياسة تركيا والخلافة الإسلامية[354]

بعد الطعام صرنا نطوف في حديقة المحل الجميلة للاستراحة والمطر

---

(351) العبارة من "عنده" إلى "شاكرين" ساقطة لدى س.

(352) بلفور Belfort: مدينة على نهر La savoureuse تشكل منفذ فرنسا إلى شمال ووسط أوروبا: D.E.H: 1/ 124.

(353) لدى س "الحجرية".

(354) العنوان وكلام المؤلف الواقع تحته ساقط لدى س.

ينزل رذاذاً[355]، وإذا بالراهب الكبير، رئيس رهبنية المحل جاء عندنا، فاستأذن في الكلام معنا وفي إلقاء بعض الأسئلة، وكنت واقفاً مع رئيس وفدنا الوزير السيد الحاج محمد المقري[356] وباشا الرباط[357]، وكان يترجم علينا موسيو لُمير الذي تقدم الكلام عنه[358]، فسأل عن مسائل تتعلق بالمغرب إلى أن تخَلَّص إلى مسألة أخرى فقال: ما رأيكم في الإسلام هل يريد بقاء الخلافة في يد الترك بالقسطنطينية أو تخرج منهم إلى شريف مكة؟[359] فأجاب الوزير إن المسلمين الذين نعلم أفكارهم قاطبةً لا يرضون خروج الخلافة عن الترك[360] إلى عرب مكة، ولا يروق ذلك في عين أحد قط منهم، فقال الراهب ولم ذلك؟ الوزير: لأن الخلافة مضى عليها 600 سنة وهي في الترك، وهي نصف ماضي عمر الإسلام تقريباً. فقلت له إن المسلمين لا يتعصبون للجنسية العربية، ولا يعتبرون شرط القرشية في الخلافة إلاّ شرط كمال، والذي هو من أصول الدين: ﴿**إنما المومنون إخوة**﴾[361]، فالمقصد عند الفكر العام الإسلامي هو القيام بحقوق الحرَمين الشريفين، والمحافظة على الشعائر الدينية، وقد قامت بذلك تركيا منذ نشأتها خير قيام، ما حفظ لها التاريخ شيئاً يخالف ذلك، والمسلمون يحبون بقاء القديم على قِدَمه، فقال الراهب: إن ما ذكرتموه حق، ولكن حزب تركيا الفتاة[362] أفسَد سياسة تركيا بميلهم إلى

---

(355) الرذاذ: المطر الخفيف الساقط كأنه غبار: لسان العرب: رذذ.

(356) سبق التعرف به.

(357) عبد الرحمن برگاش: سبق التعريف به.

(358) سبق ذكره كترجمان للوفد.

(359) شريف مكة: الحسين بن علي، أول من قام في الحجاز لاستقلال العرب عن الترك، توفي سنة 1931 .الأعلام: 2/ 271؛ **الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية**: 1/ 22.

(360) عرف المغرب تعاطفاً كبيراً مع الأتراك في حروبهم الأوروبية في الفترة التي تمت فيها هذه الرحلة وفيما بعدها، وقد أشاد الشعراء بانتصارهم، انظر مثلاً: **ذكريات من ربيع الحياة**: 13-16؛ جريدة **السعادة**: 2/ 10/ 1922. 11/ 10/ 1922. 13/ 11/ 1922.

(361) الحجرات: 10.

(362) تركيا الفتاة كان حزبها العلني هو الاتحاد والترقي، دعت إلى تتريك عناصر الدولة واضطهاد العنصر العربي ودعت إلى التحالف مع ألمانيا وأشياعها ضد الحلفاء. انظر في شأنها: **تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨**، رامزور أرنست، ترجمة صالح أحمد العلي، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960؛ **الأعلام**: 2/ 271.

ألمانيا، فقلت له: لقد عرف العثمانيون ذلك، ولا شك أنهم سيصلحون هذا الخطأ الذي وقع منهم، ويميلون لسياسة الحلفاء، على أن تركيا لولا وجود روسيا معكم ما كانت لتدخل الحرب ضدكم أبداً، لأنكم حلفاؤها القدماء الذين نفعتموها في أوقات لا تنسى معونتكم فيها كحرب القريم[363]، لكن لما كانت روسيا هي العدوة اللدودة التي تريد مَحْوَ تركيا كلياً، فكيف يمكن طبعاً أن يقاتل التركي بجنب الروسي، كما لا يمكن أن يقاتل الفرنسي بجنب الألماني أبداً، فهذا هو المانع الوحيد من دخول تركيا معكم. فقال الراهب: هذا لا شك فيه، ولكن ما هو السبب الذي لأجله يأنف الإسلام من خلافة عرب الحجاز؟ فقلت له: أي شعب يرضى أن يجعل السيادة عليه لأمة لا زالت لم تستكمل التهذيب بذل أمة مهذبة عالمة، ولو نسبياً[364]، فأنصفَ الراهب قائلاً: إني أتعجب من إنصافك وحرية فكرك، ألستم من جنسية العرب؟ فقلت له: بلى، أنا والصدر من صميم العرب، ولكن قول الحق واجب علينا، وقد بيَّنا لك أن الإسلام لا يتعصب للجنسية، لا سيما وحضرتك ما أجبناها عن فكرنا في المسألة، بل عن فكر العالم الإسلامي يعني الإفريقي[365]، فيجب علينا أن نُحدثك بالواقع، فقال له جناب الوزير: إنه بمناسبة ما لفرانسا من الرعايا المسلمين الذين هم أولادُ حضنها، وهي تراعي عواطفهم دائماً، فينبغي لها أن تكون مُعينة لتركيا على بقاء كيانها وأن لا تواخذ عمومَ تركيا بما فعله حزب الفتاة الجاهل بعواقب الحرب، فقال الراهب: الأمر كذلك، ولكن، بكل أسف، إن مع افرانسا دُوَلاً أخرى ليسوا على فكرها في ذلك[366].

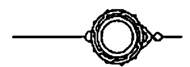
ومن آثار هذا الحزب في المغرب العربي تأسيس حزب تونس الفتاة. **تاريخ المغرب الكبير، الفترة المعاصرة**: 4/ 239-241.

(363) القريم: يعني حرب القريم Crimée، شبه الجزيرة الواقعة بأوكرانيا، ودارت هذه الحرب في 1854-1855 م، انهزمت فيها روسيا ضد تحالف تركيا وانجلترا وفرنسا، وإلى هذا التحالف أشار المؤلف. انظر مثلاً: D.E.H: I/ 322.

(364) عاد الكاتب في كتابه **الفكر السامي** ليتحدث بنبرة إيجابية عن عرب الحجاز وعن الملك عبد العزيز آل سعود. **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**: 4/ 198-199 (طبعة المغرب).

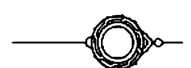
(365) يعني شمال إفريقيا.

(366) لفهم هذا الكلام يجب استحضار محاولة فرنسا البروز مدافعة عن المسلمين ضمن ما تدعوه "سياسة فرنسا الإسلامية" والظهور مساندة لتركيا الكمالية ضد انجلترا المحالفة لليونان".



مدينة كولمار[367]

وفي الساعة 2 ركبنا من سانت أوديل وتدلّينا من الجبال رويداً رويدا إلى السهل، إلى أن وصلنا إلى مدينة كولمار، وهي مدينة على وادي تجمَّعَ ماؤه من سيول تلك الأجبُل، فوقفنا بها ريثما استرحنا نصف ساعة، وطُفنا في حاراتها وأسواقها المنتظمة فإذا هي مدينة صغيرة منتظمة الطرق ظريفة الشكل سكانها نحو ثلاثين ألفاً[368].



مدينة ملهوز[369]

ثم نهضنا منها إلى ملهوز، فوصلنا في الساعة 2/1. 5 مساء، فإذا هي من أجمل المدن الأوربية: لها أزقة فسيحة منتظمة، وميادين لطيفة؛ إلاّ أن الحرب عضتها بنابها، فقد خربت المدافعُ والطيارات بعض أطرافها، ولكن ليس بكثير. وقد علم قراء الجرائد أن الجنرال ذماد صاحب الشهرة الحربية في الدار البيضاء والشاوية[370]، قد احتل في أول الحرب بخمسة وعشرين ألف مقاتل في ملهوز وطرَدَ الألمان منها لأنها واقعة قرب حدود ألزاسيا، لكن استأنف الألمان الهجوم عليها بقوات غفيرة وكاثَروه حتى وقع القتال في شوارع المدينة. ودافع الفرنساويون دفاعاً كثيراً لم يُغن شيئاً تجاه الكثرة فأفرغوها، ولا زال أثر الرصاص في جُدرِ المدينة، وأبنيتها مصدَّعة بصداع المدافع الضخمة.

ثم توجهنا إلى بلفور، التي هي أول أرض افرانسا، فمررنا على غابات كثيرة بعضها أحرقته الحرب، وبقيتْ بعض المنازل التي كانت متخلّلة تلك

انظر مثلاً نموذجاً لهذا النوع من الدعاية في جريدة السعادة: 29-9-1922.

(367) كولمار Colmar تقع بالراين الأعلى: .D.E.H: I/ 268

(368) الكلمة الأخيرة ساقطة لدى س.

(369) ملهوز: Mulhouse المقاطعة الأولى للراين الأعلى، تقع على قناة الرون Rhône، انضمت إلى فرنسا سنة 1798. D.E.H: 2/ 858 .

(370) الجنرال دماد Hubert D'amade (1856-1951) عين قائداً للجيش الفرنسي المحتل لمنطقة الشاوية 1908 فارتكب فظاعات شنيعة في حق السكان .معلمة المغرب: 12/ 3942.

الغياض[371]، وذلك من أعجب ما يُتَعَجَّب منه؛ ومررنا على قُرى عديدة جُلها أصابته أضرار حربية ليست بكثيرة وهناك مزارع متنوعة.

مدينة بلفور[372]

وإليك البيان عن وصف بلفور التي وصلناها في الساعة 8 مساء من ليلة الجمعة: إننا لم نر بلفور حتى كنا في داخلها لأنها في وسط جبال شاهقة من جهة الألزاس، وجُعل في كل جبل حصون متينة وخطوط نار متعددة، كمينة مخبوءة بين الأجبلُ والأشجار وخنادق الأنهار، فصعدنا تلك الجبال الشاهقة التي هي غابات غَنَّاء في السماء، وإذا بثَنِيَّة في جبل منحوتة ضيقة مقدارَ ما يسع العربة، وبها باب حديدي، ودونها خندق عليه قنطرة مررنا عليها فإذا نحن في بلفور؛ وتلك القنطرة تُرفع عند الحاجة، فلا يمكن الوصول للمدينة من الخندق المملوء ماء، فأحصَنُ محل رأيته وأعجَبُه[373] هذه المدينة التي حَفَّها الله بجبال شامخة نحتتْ أجوافَها اليد الفرنساوية وملأتْها بالحصون والمدافع والمؤن والذخائر والأمور الجهنمية التي لا يُرى منها شيء، حتى الطاقات التي فيها المدافع يجعلون عليها النبات بحيث إن الضارب يَرى ولا يُرى. وتقيم العساكرُ الكثيرة المدةَ الطويلة لا تحتاج إلى زاد لوفرة ما تحت يدها منه. وهناك منازل واسعة وبيوت كاملة المرافق ومستكملة الراحة والرفَه للجنود وضُباطهم كأنهم في دُورهم، لا ينقصهم شيء من أسباب الراحة، مع المواصلة التامة بينهم وبين الداخلية[374] بالطرق المخبوءة وراء الجبال المتينة.

ولا شك أن الألمان كانوا عالمين بحصانة هذه المدينة وعدم إفادة الهجوم عليها لعدم جواز اجتيازها عقلاً أو عادة، فلذلك تركوه فيما أظن، إذ لم نر هناك آثار الهجوم التي في فردن مثلاً، وإنما آثار تبادُل الطلقات من العسس

(371) الغياض ج غيضة: مجتمع الشجر: الأجَمة: لسان العرب: غيض.

(372) سبق التعريف بها.

(373) كلمة ساقطة لدى س.

(374) يعني داخل البلاد.

والطيارات، فحصانة بلفور طبيعية بما أحدقَ بها من الجبال والوعر والأودية والخنادق الطبيعية، ثم زادوها حصانة ومتانة بالحصون الصناعية التي اتخذوها في تلك الجبال، وأعانتهم عليها تلك الأوعار التي صارت مدينة بلفور مخبوءة في أحشائها. بل الحدود الألزاسية اللورانية كلها بهذه الصفة، لذلك اختار الألمان خرق المعاهدات والهجوم من جهة البلجيك[375] المحايدة على خرق خطوط النار التي بالألزاس واللورين. فكان ذلك سبباً في تهييج الفكر العالمي ضدهم في المعمور، فخسروا الانتصار في هذه الحرب رغماً عن استعدادهم وقوة مخترعاتهم التي كانت سبباً في فناء عالم عظيم.﴿**وما النصر إلاّ من عند الله**[376]﴾.

وأول ما دخلنا سياج المدينة رأينا أبراجاً كثيرة واستحكامات[377] هائلة بادية وخفية، ومررنا على برج فتحوا بابه فرأينا فيه صورة أسد مُهول له جثة عظيمة، أظنها من نحاس، طوله نحو ست ميطرات فأكثر، وأتقنوا صنعه حتى كأنه أسد حقيقي، وقد جعلوا هذا الأسد تذكاراً للحامية الفرنساوية التي دافعت عن هذه المدينة في حرب السبعين المعلومة[378]. فقد صبرت الحامية صبراً عظيماً ودافعت دفاعاً مجيداً، ولكن الألمان أحاطوا بها وتقدموا لباريز، فما نفعها إلاّ أن سلّمت المدينة إليهم على شرط بقاء شرف الحامية. وهو خروجها بسلاحها ومعداتها إلى افرانسا، أما في هذه الحرب الأخيرة فإن التحصينات العديدة الجديدة منعت الألمان أن يفعلوا مثل ذلك، فكانت شجى[379] عظيماً في طريقهم.

---

(375) يقصد هجوم الألمان من ناحية بلجيكا في الحرب العالمية الأولى قصد محاصرة فرنسا ضمن ما سمي بخطة Shlieffen. D.E.H: 2/ 596.

(376) آل عمران: 126؛ الأنفال: 10.

(377) يعني تحصينات.

(378) يشير إلى تمثال أسد بلفور المخلّد لحرب 1870 وهو تمثال عملاق من إنجاز Frédéric August Bartholdi سنة 1880، وهو نحات فرنسي توفي سنة 1904 وهو منجز تمثال الحرية المنصوب بنيويورك: D.E.H: 1/ 116 et 124.

(379) شجى: غُصّة، والشجى ما اعترض في حلق الإنسان أو الدابة من عظم أو عود أو غيرهما. لسان العرب: شجا.

ثم إننا نزلنا في كران أوتيل، ويحق أن يسمى بهذا الإسم: فإنه محل وسيع رفيع كامل المرافق، تام الزخرفة والرفاهية. ثم المدينة على وعرة محلها فطُرُقها وسيعة منتظمة، فيها ما في المدن الأوربية من الميادين والأغراس والمنتزَه العمومي، وفيها كثير من التماثيل لرجال الحرب. وقد أُسست من منذ نحو 250 سنة، على عهد لويز الرابع عشر.

الأوبة إلى باريز

وفي صبيحة الجمعة 26 شوال[380] ركبنا منها متن السكة الحديدية في الساعة 10، وتوجهنا إلى باريز فوصلنا في العشي، ومررنا في طريقنا على عمائر وقرى وأحراج وأغراس، وقد أثَّرت الحرب بعض التخريب على تلك المنازل، ولكن أخف مما هو بجهة فردن بكثير.

وبوصولنا لباريز[381] انحلَّت جمعية الوفد وأصبح، بل أمسى، كل واحد حُراً يذهب حيث شاء يصرف على نفسه، في يومه وأمسه؛ فكانت مدة تقيُّدنا بقيود الوفادة[382]، من لدن الخروج من فاس إلى الآن، إثنين وعشرين يوماً.



السفر إلى انكلاتيرة وسببه

إن الوفد لما انحل اختار كلٌ من رجاله أن يذهب إلى جهة لقضاء ما تعلق له به مأرب صحي أو تجاري، أو لا مأرب سوى تبذير المال الذي أتى عفواً ليقال. أما أنا فإني اخترت أن أذهب إلى لُندرة[383] ومنشيستر[384]، لما أسمع عنهما من العجائب، وللنظر في شؤون تجارية وزيارة بعض المعامل،

---

(380) 1337، موافق 25 يوليوز 1919.

(381) لدى س "إلى باريز".

(382) يعني بالبرنامج الرسمي للزيارة.

(383) لندرة: Londres عاصمة بريطانيا العظمى.

(384) منشستر Manchester، أكبر مركز لصناعة القطن بأوربا: D.E.H: 2/ 782. وكانت لها شهرة كبيرة لدى التجار المغاربة ومنهم من أقام بها كوالد المؤلف.

وأصحاب سيدي الوالد، رحمه الله، هناك حيث أقام في منشيستر للتجارة مدة من سنة 1300 إلى 1306 هـ[385]. ثم رجع إليها مرتين. ولكن أقام مدة ليست بطويلة كالأولى، وآخر عهده بها سنة 1319 هـ[386] رحمه الله وقدس روحه.

وقد باشرْنا التسريح[387] وقضاء بعض الأغراض، ومشاهدة بعض محلات في باريز، إلى يوم الأربعاء 30 يوليوز، بعدما لزِمَنا أن نذهب إلى قُنسُلاتو[388] النجليز للطبع على تذاكر السفر؛ وقد سألني القنصل عن وجهتي وقصدي من السفر، فأجبته بأني أريد لندرة ومنشيستر لسياحة وتجارة. فقبض سبعة افرنك أجرة الطبع، وتوجهنا على جناح السلامة. وكان تحرُّك القطار بنا من محطة الشمال بباريز في الساعة 12 نهاراً.

الطريق من باريز إلى بولون[389]

مررنا في الطريق على جملة قرى وضياع، وكثير من ذلك أضرت الحربُ به تهديماً أو تصديعاً، ولا سيما لما وصلنا أميان[390] فقد وجدنا بها من آثار التخريب والتهديم ما يؤلم القلوب، بل وقبل وصولنا إليها وجدنا ذلك، مهما بعدنا عن باريز بنحو ساعة إلاّ وظهرت الآثار الحربية. ومهما قربنا من أميان رأينا كثيراً من الخنادق والحفريات وقَلْب الأرض ظهراً لبطن.

---

(385) الحسن بن العربي الثعالبي الفاسي توفي حوالي 1910 .**الفكر السامي في الفقه الإسلامي**: 4/ 147، (طبعة المغرب). وورد في معلمة المغرب أن وفاته حوالي 1912: 10/ 3337. والصواب ما أثبتناه.

(386) 1300 هـ/ موافق 1882-1883. 1306 هـ/ موافق 1888-1889. 1319 هـ/ موافق 1904-1902.

(387) التسريح: تحريف صوتي لكلمة التصريح أي التصريح بالقيام بعمل ما وكانت الكلمة وما زالت مستعملة في المغرب بهذا المعنى. ويعني الكاتب هنا التأشيرة.

(388) قنسلاتو: قنصلية.

(389) بولون: Boulogne-sur-mer أول ميناء فرنسي للصيد. يقع على المانش.D.E.H: 1/ 154 .

(390) أضيف اللفظ الفرنسي للمدينة لدى س. وأميان: Amiens مدينة على نهر Lasomme بشمال غرب فرنسا قريباً من ساحل المانش. D.E.H: 1/ 46.

ووجدنا مخازن الذخائر والمعدات الحربية الكثيرة، ولا سيما للنجليز الذي كانت تلك الأرض منطقة حربه، مع أنه حمل لبلاده شيئاً كثيراً بعد الحرب وباع في افرانسا كثيراً، ولم يزل له هناك كثير من الخزائن والعساكر.

تكذيب فرية[391]

يقول كثير من الناس إن عساكر أميريكا تُظهر غِلظة وفظاظة على الفرنساويين، ودالةً عليهم بإعانتهم في الحرب وظهور الانتصار على يدهم وبمعونتهم. ولقد بالغوا في هذا القول كثيراً؛ وإني أقص عليك قضية وقعتْ لي، وإن لم يكن لها عموم، لكن يقاس عليها غيرُها.

فبعد انفصالي من باريز وأخْذ كل واحد من الركاب محله في العربة الحديدية، خرجتُ من محل الجلوس إلى محل الأكل وقت الغذاء، وتركتُ لِبْدَةَ[392] الصلاة مفروشة في محل جلوسي ومحل جلوس ولدي[393]. وكان بعض عساكر الأميريكان معنا جلوساً، وامرأة عجوز فرنساوية، فلما رجعنا من الأكل وجدنا عساكر أميريكا جلست في محلنا. فكَلَّمهم الولد فلم يفهموه وتجاهلوا. فذهب عند رئيس الوابور، الذي هو افرانساوي، وشكا له فعل الأميريكان، فجاءهما وكلمهما فلم يجيباه. فذهب عند ضابط أميريكي وأتى به ليُقيم العسكريين من محلنا، فلم يفهم الضابط كلام الرئيس لجهله لغةَ افرانسا وذهب. فعند ذلك تقدم الرئيس وأشار للعسكريين إلى اللبدة التي تحتهما، وأنها دليل على أن المحل لنا، فأعطياه إياها وبقيا جالسين في محلنا. فعند ذلك عمد إليهما وأزاحهما عن المحلين بعنف: أخذ بذراع كل واحد

(391) عنوان ساقط لدى س.

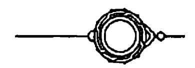
(392) سجادة صغيرة مستطيلة يحملها المصلي تحت إبطه مطوية أربع طيات، وهي من شعر أو صوف متلبد وسُميت كذلك للصوق الشعر أو الصوف بعضه ببعض .الآلة والأداة: Lc312 . dictionnaire Colin d'arabe dialectal Marocain 7/ 1765.

(393) هو محمد المهدي الحجوي، وقد أشار إلى مرافقته لوالده في هذه الرحلة في ترجمته لنفسه في كتاب الأدب العربي للقباج. وهو شاعر ومترجم له مؤلفات كان موالياً للفرنسيين كوالده (- 1969) .الأدب العربي في المغرب الأقصى: 2/ 13 .التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين: 265؛ موسوعة أعلام المغرب: 9/ 3408.

وأنهضه مع أن كل واحد منهما أعظم جثة من الرئيس[394]، فذهبا ذليلين وجلسنا في محلنا. فهذا دليل أن ما يقوله الناس عن اعتساف عساكر الأميريكان في أرض افرانسا هو قول مُبالَغ فيه.

وطالما رأينا عساكرهم تمرح في باريز وبوردو، لا تضر أحداً ولا تخرج عن النظام، نعم، ذكروا لنا أن في بوردو بوليس أميريكي لإعانة البُليس البلدي في المحافظة على الأمن العام، لما عسى أن العسكر الأميريكي إن وقع منه خصام عادي بعضه مع بعض، أو مع غيره، فيكون البُليس الأميريكي رادعاً له ومُلزماً له باحترام الحقوق والآداب. والحالة أن كل يوم تسافر عساكر أميريكا لبلادها لتمام المأمورية الحربية.

ولْنرجع لإتمام سفرنا فنقول: إننا رأينا في طريقنا بقرب أميان[395]، قبلها وبعدها، خرابات كثيرة مما جَنَتْه يدُ الحرب الضروس على الإنسانية، ويأسف له كل رقيق القلب. ولكن ما فيها أقل بكثير مما رأينا في جهات فردن. ثم الأرض مزروعة بإتقان على نحو ما وصفنا من قبل، وبها الغابات المرتفعة الأشجار، ولكن يظهر لي أنها أقل من الجهات الأخرى. وبها قرى كثيرة وعمائر متصلة، وبعضها أصابه الخراب الحربي ولكن صارت الأعمال ترجع لمجراها، وعُمرت القرى بالسكان بعد خلائها. وهناك ثكنات للجنود عديدة ومنازل خشبية للمؤن والذخائر في مساحة كبيرة من الأرض ممتدة مع مجرى الخط الحديدي في مَحالّ متعددة. ثم مررنا على وادي كبير، لكن بقربه مستنقعات، لانخفاض الأرض ورمليتها. وقد غرسوا أشجاراً لتجفيف تلك المستنقعات، ولكن قليلة.



مرسى بولون[396]

ولما قربنا من مرسى بولون ظهرت لنا آثار العمارة الكبرى والأعمال

---

(394) لدى س "الرئيسين".

(395) سبق التعريف بها.

(396) سبق التعريف بها.

العظمى الدالة على أن المدينة مهمة، لأنها مرسى متوسطة إحدى المراسي الثلاث الموصلة بين أرض افرانسا وإنكلاتيرة. والمسافة في البحر بينهما قريبة من هذه المرسى، ولكن أقرب منها مرسى كالي[397] غير أنها لا زالت غير مستعملة لعامة الناس، بل للأشياء الحربية التي ترجع من افرانسا إلى إنكلاتيرة. والمرسى الثالثة هي الهافر[398]، وهي أبعد المراسي الثلاث.

وبمرسى بولون مبانٍ كثيرة أنيقة، ودور متصلة تظهر على البحر مرتفعة عنه على صفين، ومرساها على واد يصب هناك في المانش تدخله المراكب الصغار والمتوسطة وهو مرسى طبيعي لها آمن[399]. ولكن لما لم يسع المراكب الكبار، جعلوا رصيفاً على حافته ترسو عليه السفن، ولها مون[400] كبير في البحر جعلوا عليه مرفأً صناعياً تأوي إليه السفن الكبار في مأمن من تيار المانش[401]، ووراءه مونٌ آخر أكبر منه، فهي مرسى أمين للغاية ومُتسِع.

ثم إن الوادي يشق المدينة وعليه ثلاثة[402] قناطر توصل بين جهتي المدينة من هذه لهذه، واحدة فيها نحو إثني عشر قوساً بناء بحجر، وذلك عند متّسَع الوادي من أعلاه، وأخرى في الوسط، وأخرى عند المرسى عند ضيق الوادي محمولة على ثلاثة أقواس فقط، وعندها تنتهي السفن الصغار.

وقد وصل القطار بنا إلى الرصيف فوجدنا المركب الإنجليزي واقفاً ينتظرنا، فمشينا على الأقدام بعض ميطرات فقط، فيها أخذ البُليس منا تذاكر السفر ونظَرَها وأعطانا ورقة أخذها منا بُليس آخر بباب المركب البحري

---

(397) كالي Calais، أول ميناء فرنسي لنقل المسافرين بين فرنسا وبريطانيا: D.E.H: 181.

(398) الهافر: Le Havre، ثاني ميناء تجاري فرنسي على مصب نهر السين: المصدر السابق: 1/ 611.

(399) لدى س "أمين".

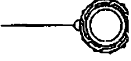
(400) مون: Mole وهو الحاجز الصناعي الذي يقام في الموانئ لتكسير حدة الأمواج تسهيلاً للملاحة: D.E.H: 2/ 838

(401) المانش: La Manche: البحر الموجود بين فرنسا وانجلترا يتصل جنوبه الغربي بالمحيط الأطلسي وشماله الشرقي ببحر الشمال: D.E.H: 2/ 782.

(402) كذا، وواضح أن حق العدد هنا التذكير.

وأعطانا بَدَلَها. وكان ركوبنا البحر في الساعة 4، وتَحرُّكها في الساعة 5 ودقائق 20.

ومما يُلاحَظ هنا في الفرق بين أخلاق النجليز والإفرنسيس[403] أن هذا المركب فيه محل خصوصي لركوب النسوة هو أحسن محل في المركب، لا يدخله الرجال أصلاً. وكذلك يوجد هذا في السكة الحديدية الإنجليزية، وهذا ما رأيناه قط عند الإفرنسيس[5] وإنما نسمع بوجوده عند العثمانيين، وما أحق هذه العادة أن تكون عند عامة المسلمين، براً وبحراً، لما عندهم من الحجاب والحشمة. ومن المعلوم في أخلاق النجليز شدة الحشمة والوقار وقلة التهتك في نسائهم ورجالهم باعتبار الغالب فيهم بخلاف غيرهم.



إنكلاتيرة

ثم إن البحر كان رَهْواً ساكناً. ولما انفَصَلْنا عن افرانسا بنحو دقائق 40، ظهر لنا الساحل الإنجليزي وجباله، فصرنا بين المملكتين[404]: ما غابت عنا هذه إلا وظهرت لنا هذه. وكانت المركب تسير سيراً حثيثاً، وكل مركب مررنا بها تركناها وراءنا إلى أن حللنا فولكسطون[405] على الساعة 2/1. 5 عشية، وذلك بعد أن عانينا مَشاق في طبع أوراق السفر على ظهر المركب. فقد عقد المكلَّفون بذلك مجلساً مركَّباً من ثلاث لِجن[406]، في كل لجنة عضوان وأمروا كلَّ من في المركب أن يأتي إلى المَجلس ليطبع أوراقه. وهناك يُسأل سؤالَ نكير[407]، عن النقير والقِطمير[408]، كل لجنة تسأله وحدها

(403) لدى س "الإفرنسيين".

(404) لا شك أنه ذكر فرنسا كمملكة مجازاً أو على التغليب، خاصة أنه ذكر رئيس الجمهورية الفرنسية من قبل مراراً، أو أنه قصد بين مملكتي البر والبحر.

(405) فولكسطون: Folkestone، ميناء إنجليزي على المانش، ميناء للمسافرين على علاقة ملاحية بميناء بولون الذي انطلق منه المؤلف: D.E.H: 2/ 514.

(406) لدى س "لجان".

(407) نكير: أحد ملكيْ السؤال المعروفين: منكر ونكير: لسان العرب: نكر.

(408) النقير والقطمير: النكتة في ظهر النواة، يضرب به المثل لأقل الأشياء. لسان العرب: نقر - قطمر.

وهم في صالون واحد: من أين أنت؟ وإلى أي مكان أردت؟ وعن قدر الجلوس الذي نويت، ومكان الازدياد وزمانه، وعدد سِني العمر بل أيامه، ومحل السكنى في البلد الأصلي، والعدد المرقوم على الدار التي يسكنها، وغير هذا من الأسئلة الباردة التي سألها قنصلُهم في باريز ووقع الجوابُ عنها، وبعده بُليسُهم في بولون، وهذه المرة الثالثة هنا. ولا زالت رابعة في لندرة، وخامسة في منشستر، وسادسة وسابعة. ولا ينجو الإنسان من عذاب بُليس النجليز وثقل أسئلته إلى أن يفارق أرضَهم كما قال ذلك العربي الذي بات في بلد واسط[409] وبالَ ليلاً في أحد أزقتها، فقبض عليه شرطية[410] الحجاج بن يوسف الثقفي وبات في السجن. فلما خرج منه هرول خارجاً من مدينة واسط وهو يقول: (طويل)

فلما تجاوزْنا محلةَ واسطٍ خَرِئنا وبُلنا لا نخاف عقابا[411]

وحاصلُه أن أيام سفري في وجهة انكَلاتيرة ضاع لي شطر من الوقت كبير، يوجب الأسف، كله في الذهاب إلى محل البُليس وانتظار النوبة[412] وجواب الأسئلة والطبع على الورق ونحو هذا مما لا فائدة فيه لنا ولا لهم.

نعم، استفدْنا من ذلك أن النجليز لا يحب زيارة غريب لبلده، بل يريد غلْقَها في وجه الطالبين كما قال بعض حكماء اليونان، وأظنه أرسطاليس: أبواب أثينا مفتوحة، فمَن لم يقبل قوانينَها فلْيَبرَحْها[413].

ولقد رأيتُ من بُليس النجليز عبوساً تظهر بعده ابتسامة باردة. وإن الفرنساويين لأَرفقُ بالمسافر وأبَشُّ من هؤلاء بكثير.

المركب الإنجليزي الذي سافرنا فيه بحراً ليس له أهمية ولا به تأنق، إلاّ من جهة آلات سيره. ولقد رأيت فيه عجباً عند دخول مرسى فولكسطون:

(409) سُميت بواسط لتوسطها بين الكوفة والبصرة .معجم البلدان: 5/ 347.

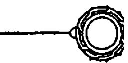
(410) لدى س "شرطة".

(411) العقد الفريد: 3/ 382.

(412) النوبة: تعني الدوْر في العامية المغربية.

(413) لم أقف على هذه القولة في كتاب أرسطو: دستور الأثينيين.

فإن المرفأ الصناعي هو على شكل نصف دائرة وليس بعظيم. وحين انتهى المركب إليه جاء عن وراء نصف الدائرة، فاضطر إلى أن ينعطف ليدخل فيها، لكن ما انعطف، وإنما بقي ذاهباً إلى الأمام راسماً خَطاً مستقيماً حتى تجاوز المرفأ، ثم رجع القهقري مسرعاً كما كان في سيره الأمامي، ولا زال يتقهقر بسرعة إلى أن وصل الرصيف ولاذ به حيناً من غير أن ينقص من حركته؛ فهو في تقهقره مشى على قوته المتحركة، كما كان في سيره الأمامي، فما تمهلَ كما تَفعل سائر السفن التي رأيناها؛ وكذا عند التصاقه بالرصيف. كل ذلك مما دلني على ما للنجليز من المهارة البحرية التي طابَقَ ما نسمع عنها. ومما يُلاحظ هنا[414] أن المركب عند تقهقرها للوراء لم يحدث فيها اضطراب ولا ميَلان، بل كانت حالتها عند تقهقُرها كما كانت عند تقَدُّمها.



فولكسطون

هي مرسى بحرية انجليزية، بناؤها جُله بالآجر غير مُكلَس[415] ولا مُبيَض إلاّ قليلاً من الدور، وسقوفها إنما هي من الزنك[416] بعامة. منازلها على هيأة مخازن البضائع، ذات طابقين وثلاثة. وليس للأبنية هنا قيمة بالنسبة إلى بولون، إلا بعضُ دور على الشاطئ تظهر من بُعدٍ لها بهاءٌ. والأشجار بها قليلة لكن الطرق نظيفة للغاية. وقد انتظرْنا بها القطار على الرصيف عشر دقائق، وبفور وصوله امتلأ بالركاب الذين كانوا في انتظاره. وحين دخلنا عرباته الضيقة وجدنا ازدحاماً كبيراً، تجلس النساء منهم على الكراسي، وبقي جل الرجال واقفاً، فما نفعني إلاّ حقيبتي جعلتُها نائباً عن الكرسي، وكذلك بقينا إلى أن وصلنا إلى لندرة.

ثم بعد انفصالنا من فولكسطون علا بنا القطار وصارت المدينة كلها

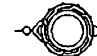
(414) كلمة ساقطة لدى س.

(415) الجدار المكلس: المطلي بالجص ونحوه. لسان العرب: كلس.

(416) الزنك: Zinc التوتياء: عنصر فلزي أبيض مزرق: المنهل، قاموس فرنسي عربي: 1287.

تحتَنا، ثم ظهرتْ لنا أرض فسيحة سهلة خضراء تتخللها أشجار. ووصْفُ الخضرة هو لازم لأرض النجليز لكثرة البرودة، وجل هذه الأرض ترعى فيها أغنام كثيرة سمينة وغيرها من السوائم. وهنا رأينا تلك الأغنام مقطوعة التابع[417] كلها، لأن بعض علماء النجليز زعم أن الغنم إذا قُطع تابعُها رجعتْ قوتُه لبقية بدنها ويزداد سِمَنها، وجربَ ذلك فصحَّ فتبعوه كلهم[418]، فلا ترى شاةً إلاّ وهي مقطوعة الذَّنب، فالأقطع هنا ليس ناقص البركة[419]، بل هو ها هنا زائد البركة وإن كان ناقص الصورة. وساعدَهمْ على هذا برودةُ طقسهم وإلا فأرض تونس الحارة أصلحُ الغنم عندهم ما كان عظيم الإلية عكس النجليز.

مدينة لندرة



ولما حللنا محطة لندرة، في الساعة 2/1 9, تقريباً، رأينا فيها ما أدهش لُبّنا من الحركة الزائدة والآلات العظيمة، والهيئة الفخيمة، والسكك الحديدية العديدة التي رُصعت بها أرض فسيحة تُتعب العادَّ وتَبهت الناظر. ولم يكتفوا بالقطارات التي تسير بالنار والبخار، بل زادوا قطارات تُسيِّرها الكهرباء، وقد حملوا أسلاك الكهرباء على قناطر حديدية محمولة على سواري الحديد. كل ذلك يدل على قوة الحركة في بلاد النجليز من محمول وموضوع، لأنها بلد صناعة تذهب صنائعُها إلى جميع الممالك ومختلف الأقطار. ولا يخلو إنسان لم يتمتع بصنائع[420] النجليز، ولا أظنه يوجد، وإذا تمتع بصنائعها فقد جاءت دريهماته إليها.

ومحطة لندرة هي أعظم وأضخم وأكبر وأكثر حركة من محطة باريز،

---

(417) التابع: الذيل في العامية المغربية ولعل المؤلف يقصد نوع الأغنام المعروف ب Southdown المشهور بسمنه وقصر ذيله ووجهه الناعم: .Encyclopédie Agricole Quillet: 2/ 367

(418) لا شك أن المؤلف وهم في تفسيره هذا.

(419) لعله قصد قول خليل في عدم جواز ذبح الحاج أضحية "ذاهبة ثلث ذنب" .المختصر في الفقه علىمذهب الإمام مالك بن أنس: 66.

(420) يعني بصناعات.

ولا أقدر أن أستوعب وصفَها وإنما أقول: هي فوق ما يوصف، فلا يكفي في تصوُّرها إلاّ العيان. ولعمري إن الأذهان تحير في ترتيب ذلك وتنظيمه، وفي سير الأعمال هناك مع الانتظام التام، دون وقوع الحوادث بالاصطدام، فسبحان موفّق الإنسان إلى ما يحير منه الأذهان.

وقد وجدنا في لندرة بقية العيد الذي أقاموه في 19 يوليوز جامعاً لعيدهم الوطني وعيد صلح النصر[421] كما فعلت افرانسا، واستقدموا له وفوداً كثيرة من مستعمَراتهم الواسعة، وخصوصاً في تلك الليلة التي حللنا به، وجدنا المرشال فوش الذي هو قائد عموم جيش[422] الحلفاء قد أتى لزيارة لندرة، وزُيِّنَتْ له المدينة بأعلام الدول المتحالفة فرحا بقدومه وقدوم أركان حربه ومعيته. ولذلك لم نجد مَحلاّ لنزولنا بعد تطوُّفنا كثيراً من جهات المدينة للبحث عن بيت في أوطيل[423] يناسبنا، وقد قَيَّضَ الله[424] لنا عجوزين من عجائز النجليز السائحات للتبشير بالإنجيل[425] على نفقة جمعية معلومة لذلك، وكانتا في المغرب وتعرفتا إلينا، فركبتا معنا في الحافلة الأطومبيلية، وذهبتا معنا تترجمان عنا لجهلنا اللغة الانجليزية، وهما كذلك كانتا تطلبان مأوى مثلنا، فوجدناه جميعاً في نزل يسمى كوسما هوتيل، ليس بذاك ولكنه كفى الضرورة، إلاّ أن أصحاب الفندق ألزَمونا مشقةً في إعادة ما عمله القنصل النجليزي في باريس والبُليس في المركب وفي غيرها، من الأسئلة الباردة وألزمونا بتقييد ذلك بخطنا وباللغة النجليزية. ولم يكن معي من يعرف شيئاً من النجليزي، لكن من لُطفه تعالى أن العجوزين قامتا بهذا الوظيف، وبالترجمة عنا من الفرنساوي إلى الانجليزي. فكنا نتفاهم بثلاث

---

(421) يبدو أن المؤلف قاس بريطانيا على فرنسا إذ ليس للأولى عيد وطني موحَد، فالعيد الوطني الإنجليزي هو 23 أبريل ولا تحتفل به والسكوتلاندي هو 30 نوفمبر إلخ//:http .www.woodlandsjunior.
Kent. sch.uk/ customs/ questions nationalday. html.

(422) لدى س "جيوش. وقد سبق التعريف بالماريشال فوش.

(423) أوطيل: فندق.

(424) كلمة غير مُثبتة لدى س.

(425) لدى س "بالانجليز".

لغات: أنا بالعربي، فيترجمها الولد إلى الفرنساوي، والعجوز إلى النجليزي. وهكذا تقَضى شطرٌ من الليل ونحن واقفون على الأقدام، لم يُمكنونا من دخول المرحاض إلاّ بعد هذا العمل، ولولا العجوزين لَبِثْنا واقفين، فإنا لله وإنا إليه راجعون[426] من هذا الموقف العظيم، والحسَاب قبل إبانه[427]، مع أن العجوز لم تكن تعرف الفرنساوي جيداً، فكانت تحصل المشقة بالطول. ولذلك أتوا برجل هندي هناك يتكلم بالعربي شيئاً ما، فهو الذي أكمَلَ الترجمة وخَتَم دَوْر المسألة[428].

حكم اللباس الافرنجي في أوربا



إلا أنه لما وقف إزاءنا أول كلامه نظر إلى لباسنا المغربي وقال: هل أنتم يهود؟ فقلنا: نعوذ بالله، بل مسلمون: فقال سامحوني التَبَسَ الأمر علي[429] بهذا اللباس الغير المنتظم الذي فيه بعض زيادات على البدن لا فائدة فيها. فقلت في نفسي: لهذا أفتى الشيخ محمد عبده بلبس البرنيطة في بلد الكفر[430]. وكل مَن يلبس اللباس المخالف للزي الأوربي في أوربا فإنما يتعرض لمثل هذه الأسئلة ولضياع دُرَيهماته؛ فإنهم مهما رأوا زياً خلافَ زيهم إلا ويزيدون عليه في ثمن الأكل، بل في كل البضائع، فإن كان تاجراً فذلك الخسران المبين في تجارته. ولا تظهر ثمرة دينية للبقاء في بلدهم بزي غير زيّهم إلاّ إشهار الإنسان نفسَه، وجعْل عِرضه هدفاً للضحك والمسخرة والإهانة. فلباسهم كسلاح يُدفع به المتلاعبون بدراهم الغرباء، ووجب دفعُ صائل[431] بما أمكن. ولا يتخلص الغريب منهم إلا بلباسهم ولسانهم. فإن

---

(426) من السور الواردة فيها هذه الآية: البقرة: 155.

(427) لدى س "أوانه".

(428) يعني الأسئلة والاستجواب الذي لا ينتهي.

(429) لدى س "علي الأمر".

(430) البرنيطة: من اللغة الإيطالية Brrettino تصغير Berreto وهو القبعة: الآلة والأداة: 42. وأفتى محمد عبده بجواز اعتمار القبعة في بلاد لا يلبس فيها سواها .الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي. 4/ 37، (طبعة المغرب)، وللحجوي فتوى مماثلة ضمن الجواب على أسئلة أحد علماء ألبانيا. مخطوط بالخزانة العامة: ح 196.

(431) الصائل: القاهر المتغلب والمتطاول على الناس. لسان العرب: صول.

كنت في بلادهم فالْبس لِباسَهم وتعلَّمْ لسانَهم تأمَنْ مَكرهم. نعم لبْسُ البرنيطة، والله، أصعب شيء على المسلم. فإذا دعتْ إليها ضرورةٌ جازت كما يؤخذ من كلام الزرقاني شارح خليل عند قوله في الردة: «كلبس زنار»، ويأتي ذلك في عدد ص 130[432]. وهذا السؤال من هذا الهندي كان ونحن لابسون جلابة[433] وشاشية[434] وكسوة ملف[435]، ولو كنا بالكساء والبرنوس[436] والعِمَّة والفرجية[437] والقفطان[438] لكان أكثر.

وبعد تمام ترجمته وكتْبِ الأسماء التي عُلِمَها آدم[439] قالوا لا يدخل أحد إلاّ أدى واجبَ المبيت تسبيقاً فأديناه حيناً. وسألْنا عن الأكل فقالوا: لا أكل هنا، ولكن ذهبوا بنا إلى محل آخر أبعد منه فأكلنا ثم[440] نمنا إلى الصباح. وأول ما عملنا صباحاً الذهاب عند البُليس للجواب عن الأسئلة الباردة وطبع الأوراق. وعند ذلك أُعْطِيتْ لنا حرية التطوُّف في المدينة، فطُفنا وتفرجنا على أحسن أسواقها وأعظم شوارعها ومُنتَزهاتها وقصورها،

---

(432) أجاز الزرقاني لبس لباس غير المسلمين في بلدهم .شرح العالم الرباني. .. 8/ 77.

(433) جلابة: محرف عن الجلباب العربي، وهي عباءة واسعة عريضة مؤلفة من 3 أجزاء رئيسية تدمج بالخياطة وهي: القب: غطاء الرأس، وغطاء اليدين: الأكمام، وغطاء البدن .معلمة المغرب: 9/ 362.

(434) شاشية: طربوش لين أحمر يعتمره بعض الموظفين والمخازنية .معلمة المغرب: 15/ 5238-5237.

(435) سبق التعريف بالملف.

(436) له أصل في العربية: كل ثوب رأسه منه ملتزق به دراعة كان أو مِمطراً أو جُبة، يقال إن اشتقاقه من البرس: القطن. لسان العرب: برنس، ويطلق عليه في المغرب أيضاً السلهام: لباس كالمعطف له غطاء للرأس وليست له أكمام .الإكسير في فكاك الأسير: هـ 121.

(437) نسبة إلى القائد فرجي مملوك السلطان أحمد المنصور السعدي كان يختص بلباسها الخواص والشخصيات .إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار: 2/ 428. وهي ثوب يُتفضل به مفتوح المقدمة بنحو 40 زراً وهو يقابل "الدفينة" لدى النساء:
Le dictionnaire Colin d'Arabe dialectal Marocain: 6/ 1434.

(438) قفطان: لفظ تركي أصله خفتان: ثوب فضفاض سابغ مشقوق المقدم يضم طرفيه حزام، تلبس فوقه جبة .معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية: 164 و352.

(439) تلميح للآية الكريمة{وعلم آدم الأسماء كلها}: البقرة: ٣٠.

(440) لدى س "و" بدل "ثم".

ومنه قصر الملك المسمى باكنهام أو فالكينهايم[441] والميدان المقابل له الذي كان فيه الاحتفال بالعيد السابق، فوجدناه لم يزلْ مُزَيَّناً، ويظهر أن احتفال النجليز كان بالغاً، وأن الزينة عندهم أكثر مما رأيت في باريز.

وقد سُحتُ في لندرة في أهم الشوارع والأمكنة، وكانت مدة السير في الأتومبيل ساعة وربعاً، وهي ليست قليلة لمن يريد نظرة إجمالية، وإن كانت يسيرة بالنسبة لعظمة لندرة، فهي مفيدة إفادة إجمالية مع حصول التفصيل في بعض أماكن دخلتُها مستوعباً. فنقول: أهمية لندرة من حيث كثرة السكان، وكبر المدينة، والحركات التجارية والاقتصاد، فهي أول مدينة في العالم في ذلك، والصادر والوارد منها من الأبضعة شيء فوق ما يُحصى ولا يستقصى. وهي أكبر مدائن العالم وعواصم المدن، ولا يمكنني وصف عشُر العشر من مِعشارها في سِفر كامل، فمساحتها تزيد على مائة ميل وثمانية عشر ميلاً مربعاً، فمساحتها إذاً خمسة أضعاف باريز، على ضفتي نهر التيمس[442]، أو التمز، وطول شوارعها أكثر من ثلاثة آلاف ميل، تنيرها مليون مصباح بين كهرباء وجاز. وعدد سكانها ينيف عن سبعة ملايين، زيادة عن من يفد إليها؛ وكم من يوم يقولون إنها في نصف النهار تحوي إثني عشر مليوناً لمن يأتيها من جهات متعددة. فهذه مملكة لا مدينة، وكم من مملكة لا يكون فيها هذا العدد، بل ممالك: فأهل المغرب والجزائر وتونس لا يبلغون هذا العدد، يعني ما هو تحت الأحكام النظامية الفرنسية. ويبلغ ثَمن الأرض في وسطها، الذي يُقال له السيتي[443]، نحو خمسين ليبرة لكل قدم مربع. وفيها 216 ميداناً، و565 محلاً للأنغام الموسيقية والتمثيل، ونحو 300 معرض ومتحف، وفيها 14 محطة حديدية كبيرة، أكبرها محطة

---

(441) الكلمة الأخيرة ساقطة لدى س، وباكنهام أو بالبكنهايم: قصر Buckingham: مقر إقامة الملوك البريطانيين منذ سنة 1837 .D.E.H: 2/ 755.

(442) التيمس: Tamise، Thames طوله 336 كلم ينبع من هضاب Cotswod، يمر من حوض لندنماراً من Oxford وLondon ويصب في بحر الشمال: .D.E.H: 3/ 1240

(443) السيتي: The City: قلب لندن النابض ومركز رجال الأعمال والأبناك: .D.E.H: 2/ 755

واترلو[444]، فإذا أشرفتَ عليها من محل عال رأيت جبالاً من الأبنية تعلوها غابات من المداخن مُسْوَدَّات السطوح والجُدر. وإذا أشرفْتَ على ميدان أو شارع رأيت بحراً من الخلق يعلوه موج من العجلات والمرْكبات، والكل على نظام تام، وسكينة ووقار وأدب عام، يحترمون القانون والأوامر الملوكية احتراماً فائقاً حدَّ التصور.

وفيها من البُليس إثنا عشر ألفاً: مهما وقف واحد من البُليس وأشار بيده إلى ألف من الناس أو عدد من المرْكبات، وقف الكل كأنما على رؤوسهم الطير[445]، فلا يتقدم واحد بِقَدم حتى يشير إليهم بالانصراف. ولولا هذا النظام وذلك الأدب لهَلكوا. وفي الفندق الذي كنت نازلاً فيه دفتر المشتركين في التلفون، أوراقه 500، مكتوب بخط رقيق جداً، رُباعي كبير، كُل ورقة مملوءة بالأسماء، مرتب على حروف المعجم كأنه قاموس، لو طُبع القاموس في ذلك الشكل كان مساوياً له، هذه أسماء مَن عنده التلفون في محله وكم من محل ليس فيه.

وإذا أردتَ واحداً من التجار مثلاً، فإنك تجد في كل مركز بريدي أو فندق كبير شهير دفتراً لأسماء التجار مُبَوَّباً أبواباً، كل باب لنوع من المتاجر، كباب السكر وباب الأتاي[446] وباب الكتان[447] وباب التحف المنزلية، إلخ. فإذا أردتَ البحث عن دار من دور التجارة فلا تكفي العظمة ولا الشهرة، بل لابد أن يكون بيدك العنوان مُبَيَّناً فيه محلُّها في أي قسم من أقسام المدينة، وهي عشرة أقسام: الشرقي والغربي والجنوبي والشمالي، وهكذا كل قسم مدينة عظيمة من أكبر مدن العالم. وقد وقع لي أني بحثت

(444) معطة واترلو Waterloo مسماة باسم المعركة التي هزم فيها الانجليز والبروسيون نابليون 1815: D.E.H: 3/ 1362. وانظر شرح ليبرة في ص 126.

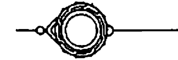
(445) يقال للقوم إذا كانوا ساكنين: كأنما على رؤوسهم الطير، لأنه لا يقع إلاّ على شيء ساكن من الموات فضُرب مثلاً للإنسان ووقاره وسكونه. لسان العرب: طير، وهو بنفس المعنى ولكن بتفسير آخر في كتاب جمهرة الأمثال: 2/ 143.

(446) الأتاي: الشاي في العامية المغربية.

(447) الكتان: نوع من الثياب. لسان العرب: كتن. ويستعمل في المغرب لعموم الثوب.

عن أحد التجار المشهورين عندنا في المغرب بتجارة الأتاي والكتان والشمع، وحيث لم أعرف في أي قسم هو ولا عدد منزله أحضروا كناش التجار ولكن لما لم أعرف النوع الغالب عليه من أنواع المتاجر ما عرفوه لكثرة الأسماء المتقاربة معه، ولم يتيسر لي لقيُه ولا معرفة جهته.

مفاضلة بين لندرة وباريز



أما من حيث التأنق والجمال الذاتي والعَرضي وسعة الشوارع والتحسين بجميع أنواعه، فهي أقل بكثير مما شاهدنا في باريز. بل لو كانت شوارع داخلية لندرة التي هي محل هذه الحركة العظيمة المسماة سيتي، على قدر شوارع باريز في الاتساع لَعَدُّوها ضيقة، لكثرة السكان هنا أكثر مما في باريز، فكان يلزم أن تكون شوارعُها أوسع من باريز رعياً لهذه النسبة. لكن الواقع بخلاف ذلك. فشوارع باريز أوسع بكثير وأكثر استقامة، فلذا يكثر الزحام في لندرة حتى تقف بنا العربات في جل الطرق، ولا سيما عند مُلتقاها، مع أنها في نفسها شوارع متسعة ولكن لا تكفي لكثرة السكان.

شوارع لندرة في غاية النظافة، وهي من البلدان الأنيقة في البناء ولكن تأنُّقَ باريز أكثر من ذلك؛ بناء لندرة[448] مزين مزخرف، ولكن زينة باريز وزخرفتها وتنسيقها لا أظنه يوجد في سواها. فبناء لندرة جُله من آجُر مطبوخ، ويوجد بعض البناء الحجري الذي هو كبناء باريز في الضخامة والهندام، وكمال النظام والإحكام، ولكن أبنية باريز، يعني كل ما رأيت منها، وإن كنت لم أُحِطْ بجميع البلد، ولكن كل ما رأيته بناء حجري أو بالسيمان (البرصلانة)[449]، بناء مرصوص في غاية النظام والإحكام والأبهة والفخامة والضخامة. أما بناءُ لندرة فالجُلُّ ليس كذلك وإنما هو بناء متوسط بالآجر، وليست فيه الضخامة والفخامة والتأنق الذي في باريز، وإنما هناك

---

(448) المقطع من قوله: "في غاية النظافة" إلى "بناء لندن" ساقط لدى س.

(449) السيمان: Ciment: الإسمنت، والبرصلانة Portland بنفس المعنى نسبة لشبه جزيرة Portland بجنوب انجلترا حيث كان يحرق نوع من صخورها للحصول على الإسمنت: D.E.H: 2/ 1012.

بعض الشوارع دورها على كيفية باريز، ويوجد كثير من المواضع ليس كذلك. وبناءُ لندرة الذي هو على طَرز باريز هو مُشابه لها من كل الوجوه إلاّ في الارتفاع، فإنه أقل ارتفاعاً واتساعاً من باريز. فلندرة، مع كون أبنيتها التي هي من الآجر، على طبقتين وثلاث طبقات، والذي على نسق باريز على سبع طبقات، وفيها ما هو على تسع. ومع ذلك فطبقات لندرة يجعلون لها سُمكاً لا يبلغ في الارتفاع طبقات باريز، وكذلك المخازن التجارية وأبوابها لا تبلغ في الاتساع ما تبلغه مخازن باريز، فلذلك كانت هذه[450] أفخم وأضخم.

زد على هذا أن أبنية باريز على نسق واحد تقريباً في الارتفاع والاتساع والفخامة، إلاّ نادراً، فهي كلها قصور كأنها دور ملوك اجتمعت هناك، بل كأن باريز دار مَلِكٍ عظيم اختار لها ما تعلقت شهوته الناشئة عن ذوق مصيب، أما أبنيةُ لندرة فهي مخلوطة: هذا عال وهذا نازل، هذا من حجر وهذا من آجر، وهذا أحمر وهذا أسود، وجل أبنيتها سوداء بالدخان أكثر من باريز حتى أنهم صاروا يدهنون ظاهر أبنية لندرة بدهن أسود كلون الفحم حتى تظن أن الدار بُنيت من الفحم البرّاق اللون.

وبالجملة، فضخامة الدور التي هي قصور، وتشييد المنازل وتنميق المخازن، وضخامة البناء، وسعة الشوارع والفناء، وتنسيق الأشجار، وكثرة الأزهار، ظهرت بأكمل مظاهرها في باريز أكثر من لندرة بكثير. فقصر فالكينهايم وقصر صان جيمس[451] اللذان هما دار المُلك المشهوران في الدنيا كلٌ منهما قصر فخيم عظيم البناء، وسيع الفناء، ولكن أمثالهما في باريز كثير كقصر اللوفر، وقصر نابليون، وقصر التروكاديرو[452] وغيرهما، بل هما لا يُعَدان شيئاً بالنسبة إليهما. وانظر ما كتبه أحمد فارس في عدد 334 وعدد 335، من "كشف المخبّا عن أحوال أوربا[453] فإنه حَطّ من قدر هذين

(450) لدى س "هي".

(451) يقصد Saint Jame's palace.

(452) سبق التعريف بهذه المعالم الفرنسية.

(453) انظر: كتاب الرحلة الموسومة بالواسطة في معرفة مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا، أحمد فارس الشدياق، مطبعة الدولة التونسية، ط. 1، 1283 هـ. وفيه عقد المؤلف مقارنات بين لندن وباريز كان مفضلاً هذه الأخيرة في أغلبها: 237-325.

القصرين جداً، وهما دار مُلك النجليز: وانظر ما كتبه المذكور عن باريز في الورقة نَمْرَ[454] 238 ونمر 239 تعلمْ صحة ما قلناه[2]. وما كتبتُ إلا ما رأيت، وبالغت في تنظيف قلمي من المبالغة.

ميادين لندرة

ميادين لندرة كثيرة، وهي في باريز أوسع بَراحاً، فما رأيت في لندرة مثل ميدان كونكورد[455] في الاتساع والزخرفة والتأنيق ولو ميدان الترافلجار[456] وميدان قصر فالكينهايم[457].

منتزهاتها

منتزهات لندرة كثيرة، ولا سيما بقرب القصر المذكور، وعلى ضفة نهر التيمس، ولكن منتزهات باريز ألطف، وفيها الأزهار، لما للفرنساويين من الاعتناء بالزهر، وما لهم من لطافة الذوق. أما منتزهات لندرة التي وقفت عليها ما رأيت فيها أزهاراً، وإنما أرض[458] خضراء بالربيع في غاية الخضرة، وكثير منها ترتع فيها الأغنام فكان الشبه بالبادية فيها أتم، ولكن بساتين باريز ترتَعُ فيها غزلان إنسية، وتوجد فيه أكثر من لندرة بكثير.

نهر لندرة المسمى التمز[459]

نهر التمز، أو التيمس، هو كنهر لاسين في باريز، كلٌ منهما يشق المدينة شقين: ذاك في لندرة وهذا في باريز. ذاك عليه قناطير وهذا كذلك، منها ما هو بناء حجري، ومنها ما هو حديدي. منها ما هو للمشاة والحوافل، ومنها ما هو للعربات الحديدية خاص بها. والواديان كبيران إلا أن

---

(454) نَمْرَ: يقصد Numéro: رقم.

(455) سبق التعريف به.

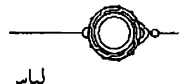
(456) الترفلجار: Trafalgar Square: من أهم ساحات وسط لندن: D.E.H: 3/ 1284.

(457) سبق التعريف به.

(458) لدى س: "أراض".

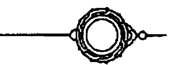
(459) سبق التعريف به.

نهر لندرة أكبر من نهر باريز، وكونهما تسير فيهما السفن الصغار، ولم أر هناك كقنطرة إسكندر الثالث[460] المبنية على قوس واحد فهي من عجائب باريز، أظن لأن وادي لندرة أعظم فلا يمكن فيه ذلك، والله أعلم.



لباس النجليز

لباس أهل لندرة هو كلباس باريز: الرجال كالرجال، والنساء كالنساء. لكن باريز أجمل وأهلها أزيد حذقاً ومهارة في ذلك وإتقاناً له، ولا سيما النسوان، فقد بلغن في باريز حدّ النهاية حتى أنه يُضرب بهن المثل في أوربا وغيرها. فإنك إذا كنت في باريز تظن أهلها في عيد دائم، فلا ترى إلاّ متجملاً أو متجملة كما تقدم، بل ما يمر في باريز من العربات وعربات النقل لا ترى فيها إلا الشيء الجميل، وهي في نفسها كذلك، بخلاف لندرة فإن أهلها أقل في ذلك كله، بل لا ترى هنا شيئاً جميلاً أو مُتَجَمّلاً حتى ترى أضداد ذلك من بشيع أو شنيع في الحامل أو المحمول أو فيهما.



نظام النجليز في السير بالشوارع (تنبيه)[461]

نظام لندرة في سير العربات والمشاة هو مخالف لنظام أهل باريز، فأهل لندرة يقصدون في سيرهم ذات اليسار، كنظامنا في فاس، فالذاهب فيها يقصد جهة يساره والآتي كذلك فلا يقع اصطدام، ولكن ذلك مطرد دائماً وأبداً، لا كما عندنا بفاس أنه غالب فقط، فيشذ بعد المارّة عن الجادة التي هي جهة اليسار، فيقع في الاصطدام، والحمد لله على عدم وجود عربات سيارة في فاس وإلا لهلكوا كثيراً، لعدم نظام الناس في السير على جهة واحدة، بل يخالفون القاعدة فيقعون في الاصطدام. أما أهل باريز فإنهم يقصدون اليمين، فينبغي للغريب الذاهب إلى هنا أو تلك أن يستحضر هذه القاعدة، وليكن على بال لِئَلاّ يقع له اصطدام أو مَلام، فإذا كان في باريز

(460) كما تنسب إليه معالم أخرى في باريز ككنيسة نوطردام 1163 م. كتاب الرحلة الموسومة **بالواسطة...**: 262.

(461) كلمة وضعها المؤلف بين قوسين، وهي ساقطة لدى س.

فليقصدْ جهة اليمين دائماً، فلا يصطدم بأحد ولا يعنفه أحد، ويكون آمناً على نفسه من الخطر. وإذا وصل إلى لندرة فليقصد ذات اليسار، على عكس باريز. واسْتَحْضِرْ ذلك في الانتقال من محجة لأخرى، أو عند مقاطعة الطرق، فمن لم يستحضره وغفل وقع في الحوافر وذهب ضحية الغفلة.

ولكثرة الزحام والحركة في لندرة ترى في كل مقاطعة من مُقاطَعات الطرق[462] البُليس البلدي واقفاً ينبه الناس لذلك ويأمرهم بالوقوف حتى يذهبوا الأول فالأول، ولتمام نظام البُليس وكمال طاعة الناس له واحترامهم لأوامره، فإنه يقف في ملتقى الطرق ولا يتكلم، وإنما يرفع يده فيقف الصادر والوارد دفعة واحدة، لا يتقدم أحد بقَدم حتى كأن بيده كهرباء توقف الجميع. وهذا في لندرة أكثر منه في باريز؛ ففي لندرة مهما افترقت الطرق إلاّ ويقف الإنسان برهة من الزمن لا محالة كي يجد نوبة[463] وينتهز فرصة، والبُليس الذي يراقب ذلك كثير، بخلاف باريز، فلا يحتاج الإنسان للوقوف إلاّ في قليل من الشوارع، وهي ذات الحركة الكبرى، ولا يجد البُليس إلاّ قليلاً بالنسبة إلى لندرة، ولولا البُليس في لندرة، لهلك كثير من الناس لما للمحوذيين من الشراسة والعجَلَة.

طرق لندرة التي تحت الأرض



يوجد في لندرة طُرُق تحت الأرض تسمى ميطرو[464]، مثل باريز، ولكن في لندرة مدارجها ضيقة لضيق الطرق، فيقع الازدحام عند النزول أو الصعود أكثر من باريز. وهذه الطرق في لندرة أنفاق تحت الأرض، بل تحت الوادي؛ فكم من محل فيه طريق تحت الأرض يمر فيها آلاف. وفوقها الوادي تسير فيه آلاف على الزوارق، وفوقه قناطر تحمل آلافاً. فهي ثلاث طرق بعضها فوق بعض، كل ذلك لكثرة السكان وكثرة الحركة التجارية.

(462) يعني في كل مفترق طرق.

(463) النوبة: تعني الدَّوْر في العامية المغربية.

(464) ميطرو: Métropolitain: سكة الحديد في الحاضرة.

ولولا سهولة المواصلة ما عُمرت البلاد ولا اجتمع هؤلاء السكان في مدينة واحدة.

الماء المضاف[465] في لندرة

الماء المضاف في لندرة يجعلونه مدفوناً في وسط طرق العجلات لضيق الشوارع عن جعله في محل مرور المشاة التي هي جوانب الطُرُق، ولذلك كثيراً ما تجدهم يصلحونه فيتعذر الطريق، فتضطر للرجوع إلى طريق أخرى جميعُ الحوافل والعجلات النقالة، فيقع الزحام. وهذا لا تكاد تراه في باريز لأن جوانب الطرق المسماة طِطْوار[466] أوسع من لندرة، وفيها جعلوا الماء المضاف. ولذلك إذا حفروه للإصلاح أمكن المارة أن يمروا، ولا يتضرر المشاة إذا ازدحموا، بخلاف الحوافل وعجلات النقل.

ولاتّساع شوارع باريز يوجد في بعضها المسمى بُلفوار السكة الحديدية الكهربائية المسماة تراموای[467] التي تحمل المارة دون الأثقال، وهي ما رأيتها في الطرق التي مررت بها في لندرة لعدم اتساعها كباريز.

نعم، جعلوا الأتومبيلات السيارة المسماة أُمنيبوس[468] التي تحمل المارة ذات طبقتين، بخلاف هذا النوع في باريز فهو ذو طبقة فقط، إلاّ أن هذا النوع في باريز أوسع منه في لندرة، ويوجد نوع منها في لندرة يسير بالبخار وما رأيت مثله في باريز لأنه ليس جميل المنظر وله صوت مُهوس.

نعم، في لندرة، بل في بلاد النجليز، السكَكُ الحديدية أضخم وأوثق وأتقن[469]، ولهم عناية بها ليست لغيرهم، والعدد الذي يسافر كل يوم

---

(465) يقصد بالماء المضاف المجاري الناقلة للفضلات السائلة، وقد استعمل محمد الصفار نفس المصطلح في رحلته: صدفة اللقاء مع الجديد، رحلة الصفار إلى فرنسا: 168.

(466) ططوار: Trottoir: الرصيف.

(467) تراموای: Tramway وهو وسيلة نقل داخل المدينة تسير على سكة على سطح الأرض وتعمل بالكهرباء.

(468) أمنيبوس: Omnibus وقد وصفه الصفار في رحلته دون أن يذكره بالاسم: صدفة اللقاء مع الجديد رحلة الصفار إلى فرنسا: 144.

(469) واضح أن الأولى في هذه العبارة: "أكثر إتقاناً".

بلندرة كثير أكثر من باريز، والمحطات كثيرة مُحدقة بِلُندرة من كل الجهات، تذهب لسائر بلدان النجليز بكل سرعة وضبط، وعدد المحطات أربعة عشر محطة كبرى، أكبرها محطة واترلو، ولقد رأيت قنطرة عند مدخل القطار إلى محطة لندرة من فولكسطون على وادي التمز متسعة، ما رأيت مثلها في الاتساع، حسبت عليها ستة أو سبعة خطوط حديدية. وفي تلك المحطة ترى من الخطوط الحديدية فوق الأرض وتحتها، فترى قطاراً فوق قطارات مما يُدهش البال ويحير العقل العالم ويفهم معنى قوله تعالى: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾[470] و﴿إن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾[471]. فإذا كان مخلوق حادث يعمل هذا ويعلمه، فكيف قدرة الخالق وعِلمه؟ والكل منه وإليه سبحانه منسوب حقيقة، لا رب غيره.

وأعجَب من هذا أن القطارات واختلاف جهات مرورها تراها في غاية السرعة، والنظام التام والتُؤدة والرزانة في السكان، كل يذهب إلى محل ركوبه. ومهما[472] وصلتَ المحطة وجدت كثيراً من الناس واقفين لإرشاد الركاب إلى جهات الركوب ومحل قطْع الأوراق. وأعجَب وأغرب من الكل أنك لا تسمع بوقاً ولا صفيراً ولا كثرة هرج كما يوجد في محطات افرنسا، ولو كانت القطارات تصفر هنا ما أمكن السكنى بقرب المحطة ولا ينام أحد هناك. ولقد كنت نازلاً في فندق أكار[473] فكتوريا، ملاصقاً المحطة، والقطارات الكثيرة صادرة واردة كل ساعة أو دقيقة ولا تسمع صفيراً أو زئيراً ولا شهيقاً، وإنما هو دوي عجلاته الخفيف، وما حصلتْ مني قط التفاتةٌ إلى المحطة من نافذة بيتي إلاّ رأيت قطاراً داخلاً وآخر خارجاً، وربما رأيت قطارات متعددة وكل ذلك لكثرة الحركة الصناعية والتجارية في أرض النجليز التي تُدهش فِكْرَ متأملها؛ وبلاد النجليز كثيرة الصنائع والمعامل أكثر

---

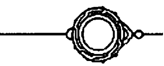
(470) وردت الآية كثيراً في القرآن الكريم من ذلك البقرة: 108.

(471) الطلاق: 12.

(472) يعني بمهما: كلما.

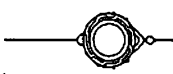
(473) يعني محطة القطار: .Gare

من غيرها، إلاّ ما كان من ألمانيا.



النجليز أعرف بالتجارة

النجليزيون مشهورون في العالم بمعرفة طرق التجارة وأساليب الإيراد والإصدار، وأعانهم على ذلك ما عليه تربيتهم من صدق المعاملة والقناعة بالربح القليل ليباع العدد الكثير. ويقولون: القليل في الكثير كثير، وهذه قاعدة مطردة ضرورية. فصِدقهم في المعاملات الصدق التام الفائق في ذلك غيرَهم هو الذي مهد لهم الاستيلاء على معظم تجارة العالم، فالنجليزي إذا سَمَّى لك الثمن فخذ أو اترك ولا تفاتحه في المهاودة[474]. هذا خُلُقُ الكثير منهم أو الكل فيما سمعنا ممن طال مُكثهُ بين ظهورهم[475] الآمادَ الطويلة، مع صدق لهجتهم وعدم خداعهم في التجارة لا في السياسة، فحصلت للعالم بهم ثقة تامة أعانتهم على اتساع متاجرهم مع أقطار العالم.



شغف النجليز بالرياضة البدنية

من أخلاق النجليز محبة الرياضة البدنية والاعتناء بها أكثر من غيرهم. وقد رأيتهم في منتزهاتهم يعانونها صباحاً ومساء، هم وأولادهم ونساؤهم، حتى ان جل منتزهاتهم لا يعتنون فيها بالأزهار وإنما هي الأشجار ونبات ربيعي يلعبون فوقه رياضة لأبدانهم، واعتناء الفرنساويين بالرياضة أقل من النجليز فيما رأيت.

نعم، الفرنساويون اعتنوا بالأزهار فاستغنوا بالرياضة الفكرية عن البدنية، وهي لا تُغني، ولقد نزلت عند أوْبَتي من منشيستر في فندق أكار فيكتوريا، وهو على نسق كران أوطيل في باريز، وإن كان لا يلحقه بل بينهما ما بين الثرى والثريا، ولكن يشبهه في كثير من الأوصاف التي وصفنا هناك. وكان نزولي في غرفة تطل على نهر التيمس وعلى الأكار معاً، وكانت

---

(474) المهاودة: لفظ في العامية المغربية بمعنى المساومة الفصيح.

(475) المشهور: بين ظهريهم وظهرانَيْهم وأظهرهم، ولم يُستعمل بين ظهورهم. لسان العرب: ظهر.

تعجبني نافذة في الطبقة العليا وهي السابعة، تطل على نهر التيمس حيث رسم هناك شبه نصف دائرة عليه فيها خمسة قناطر، كلها تظهر من تلك النافذة وهي متوازية متقاربة، لا فراغ بين القنطرة والقنطرة إلا نحو 200 ميطر فيما أظن، فيبدو لي من هذه النافذة منظر لطيف من أجمل مناظر لندرة على الوادي المذكور، وهو أشبه شيء بوادي لاسين في باريز من جهة قصر النواب، حيث تظهر هناك قباب فخيمة وأبنية عظيمة وقناطر متقاربة.

نعم، الفرق هو أن أبنية باريز هناك متباعدة لسعة الطرق والميادين، فالمحل هناك صحّيّ جيداً، أما في لندرة فأقل اتساعاً. وفي باريز ليس في ذلك المحل الأبنية الفخيمة والقصور الشامخة، إذ جل ما بقرب ذلك المحل مباني الدولة ومصانع الملوك الأُوَل. وقد بلغت الأبنية هناك أقصى درجات اللطف والضخامة والزخرفة، أما هنا فالبناء مختلط بين دولي وأهلي.

نعم القناطر هنا متقاربة أكثر من باريز كما سبق، فمنها ما هو للسكك الحديدية، ومنها ما هو للتراموای والمشاة والعجلات والحوافل، فهناك حركة عظيمة أكثر مما في باريز وعمارة أيضاً أكثر، وفي الوادي زوارق كثيرة ليست في لاسين؛ ومن جملة تلك القناطر قنطرة عظيمة بالبناء تظهر أنها قديمة على نسق قنطرة وادي سبو[476] بضواحي فاس، على ثمانية أقواس كلها مملوءة ماء، والزوارق تمر تحتها لارتفاعها.

رصيف فيكتوريا والمسلة المصرية التي به[477]

وقد جعلوا على ضفة الوادي رصيفاً متسعاً جعلوه كميدان كبير ورصفوه طريقاً عرضها 64 ميطراً، تسير فيها العربات الترامواي وبجانبيها طريقان للمشاة متسعان جداً، واحدة منهما على شط النهر، مهما ذهبتَ وجدت درجاً تهبط للنهر لركوب الزوارق والاصطياد. وسمَّوا هذا الرصيف

(476) نهر بالمغرب بمنطقة الغرب، يصب بالمحيط الأطلسي بالمهدية قرب مدينة القنيطرة .الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة المدن والقبائل: 263.

(477) الكلمتان الأخيرتان ساقطتان لدى س.

المتسع الطويل باسم مليكتهم الشهيرة فيكتوريا[478]. ورأيت فيه من جهة حافة الوادي مسلة مصرية[479] عليها كتابات قدماء المصريين[480]، وأمامها تمثالان من نحاس، أظنهما مصريين، إذ عليهما حروف مصرية تشبه كتابة المسلة. وهذه المسلة تشبه مسلة باريز التي تقدّم وصفها في ساحة كونكورد، وعمر مسلة لندرة منذ 1500 قبل المسيح، فهو سنوات 3419، وقد أهداها محمد علي باشا للنجليز فنقلوها سنة 1877، وغرقت في الطريق وأخرجوها في السنة بعدها، وفيها وُضعت في محلها المذكور. وهي قطعة من حجر مربع عريض من قاعدته، ولا زال يستدق إلى رأسه، كُتب عليه من جوانبه الأربع كتابات بالخط المصري القديم، تشير إلى تاريخ وسبب صنعه، وهي قائمة هناك كصومعة عالية تظهر من بعد.

وبجانب هذا الشارع المقابل للوادي عدة بساتين بلدية جميلة، وابتداؤه من أكار فيكتوريا الذي كنت نازلاً به. وقبالة الأكار من الجهة الغربية ساحة جميلة بقرب كنيسة عظيمة هناك فيها عدة تماثيل، منها تمثال جورج الرابع ملك النجليز[481]، وتمثال الجنرال[482] هنري المتوفى سنة 1857، وتماثيل سباع هائلة من المعدن محيطة بمسلة طويلة مخروطة الشكل على غير مثال المسلة المصرية، عليها تمثال عظيم.

وهناك فسقيتان[483] من حجر تفوران بالماء. على مثال فوّارات ساحة

---

(478) ملكة بريطانيا العظمى (1819-1901) طبعت عصرها الذي يعد رمزاً لقوة بريطانيا العظمى 1819-1901. D.E.H: 3/ 1941.

(479) ذكر الطهطاوي هذه المسلة عند إشارته إلى مثيلتها في فرنسا التي أهداها الخديوي في عصر الرحالة المصري إلى فرنسا. **تلخيص الإبريز في تلخيص باريز**: 2/ 255. كما ذكرها صاحب كشف المخبّا الذي نرجح أن يكون هو المصدر الذي اعتمده المؤلف. **كتاب الرحلة الموسومة**. . .: 256.

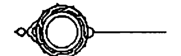
(480) يعني الحروف الهيروغليفية.

(481) الملك جورج الرابع George IV (1762-1830). D.E.H: 2/ 564.

(482) كلمة ساقطة لدى س.

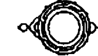
(483) فسقيتان: مثنى فسقية: النافورة في العامية المغربية. اشتقت من الفسق بمعنى: الخروج عن الأمر. لسان العرب: فسق. وذلك لخروج الماء منها.

كونكورد في باريز، ولكن شتان بين الثرى والثريا.



تعصب النجليز

وقد وجدت هناك كثيراً من الرجال والنساء والصبيان؛ فبينما نحن ننظر في التمثال الذي فوق المسلة، لنعرف لمن هو، وإذا بهم اجتمعوا يتعجبون من لباسنا، كأن الإنسان ما خرج من بطن أمه إلاّ باللباس الأوروبي، فإذا خالفه غَيَّر صُنعَ الله وبدَّلَ خلق الله. فما أشد تعصبهم، وما أحسن تسامح المسلمين الذين لا يعيبون على الغريب شيئاً! فمنعَنا ذلك من تحقيق التمثال وذهبنا لحالنا.



غريبة، وهي آلة كتابة بالكهرباء

رأيت في الفندق الذي كنت نازلاً فيه غريبة، وهي سارية خشبية رُكبت عليها آلة كتابة تحركها قوة كهربائية متصلة بمركز الأخبار التلغرافية في شركة روتر[484]، تنطبع فيها جميع أخبار العالم، في أوربا وأميريكا وغيرهما. وصاحب الفندق يؤدي لشركة روتر مقداراً معلوماً على الإعلام المذكور. وبعد فراغ آلة الكتابة من الكَتب، يأتي المكلَّف بها وينزع منها الورقة ويعلقها هناك في وسط مركز الفندق، ويجعل بدلها ورقة أخرى بيضاء لتكتبها ثانياً وهكذا، وذلك ليطلع المسافرون هناك على جميع أخبار العالم التي تحدث في كل لحظة من غير أن يحتاجوا إلى الخروج وسماع الأخبار من الناس، ولا إلى شراء الجريدة أو انتظار طبعها، مع ما في ذلك من العطلة وضياع الوقت. ومن ذلك علمت أن النجليز يعرفون مقدار الوقت الذي قالوا فيه إنه ذهب[485]، وأرسلوها مثلاً وعملوا بالمحافظة على ذهَبِهم.

---

(484) شركة روتر Reuter نسبة إلى مؤسسها (Julius Reuter) (1816-1819) أسس مكتباً للمعلومات سنة 1851 سينطور إلى وكالة الأنباء الكبيرة المعروفة بهذا الإسم/3 D.E.H: 1101.

(485) قد يكون المؤلف عنى القول السائر بين الناس: «الوقت من ذهب.» وقد يكون عنى قول الإنجليز خاصة: Time is money.

ووقعت لي غريبة مع رجل إنجليزي؛ وذلك أنني وقفت أمام هذه الآلة الكاتبة أتأمل في كيفيتها، وإن أمرَها لعجيب ما رأيت مثله في باريز ولا غيرها، وبإزائي رجل افرنساوي نتذاكر معه في كيفية ذلك. فوقف رجل من أعيان النجليز وسألني عن بلدي، فقلت له: المغرب الأقصى. فقال: إني أعرف طنجة ووصلتها، وما قدرت أن أصل لفاس بسبب قُطاع الطرق إذ ذاك. فعلمت أنه كان هناك على عهد الحوادث الحمارية[486] والريسونية[487]. فقلت له: أما الآن فقد سكنت الأحوال ومدُّ الأمنُ رواقه ولم يبق شيء، وإذا بالآلة كتبت أن البُليس قد اعتصب[488] في ليفربول وأن عدد المعتصبين بلغوا 929، وأن بعض المخازن التجارية وقع فيها السلب والنهب حتى تداخلت[489] القوة العسكرية. فالتَفَتُّ إليه وقلت له: هل قرأتَ ما في هذه الورقة؟ فقال: نعم. فقلت له: الحمد لله، قد تساوينا بل بلدُنا أهنأ، فالنُّهاب عندنا في البوادي، أما أنتم ففي داخل المدن. فأخرَسْتُه.

ثم إن هذه الآلة، والله، لَمِن أعجب العجائب لو لم أر في إنكلاتيرة إلا هي لكانت كافية؛ كيف والرجل يطَّلع[490] على أخبار العالم وهو في

---

(486) نسبة لأبي حمارة أحد الثوار الذي أسهموا في إضعاف الدولة المغربية ويسروا الغزو الفرنسي، قتل بعد وقوعه في الأسر سنة 1909 م .**معلمة المغرب**: 5/ 1655-1656 .**أعلام المغرب العربي**، عبد الوهاب بن منصور: 1/ 303-397. كما ألف كتاباً عنه المؤلف الحجوي: مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم ح 123. وقد نشر بعضه ضمن: **انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره، دواعي الإصلاح والتنظيم**، محمد الصغير الخلوفي، مطبعة المعارف الجديدة بالرباط، 1994.

(487) نسبة لأحمد الريسوني ثائر بشمال المغرب في بداية القرن 20، تأرجح بين الولاء للسلطان ولإسبانيا، اعتقله محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى أن توفي 1925 م .**الأعلام**، خير الدين الزركلي: 1/ 250؛ **الحركة الريسونية من خلال الوثائق المغربية**، عبد العزيز التمسماني خلوق، مطبعة سليكي إخوان، طنجة، 1997؛ **معلمة المغرب**: 13/ 4522.

(488) اعتصب: استعملها المؤلف بمعنى الإضراب، وله أصل في اللغة: اعتصب القوم إذا تجمعوا ضد فريق آخر. لسان العرب: عصب. واستعملت الكلمة بمعنى الإضراب في صحف الفترة: انظر مثلاً جريدة **السعادة**: 5/ 7/ 1919. 7/ 8/ 1919.

(489) لدى س "تدخلت".

(490) لدى س "مطلع".

نزله، من غير أن يطرقه طارق ولا أن يستبطئ رسولاً، فيعلم حال البورصة والتجارة، وغلاء السلع ورخصها، وحروب الأمم وسِلمها، كلٌ في حينه من غير فوات إبان ولا ضياع وقت. فهذا مثال الكشف[491] الذي أنكره بعض المعتزلة، وربما يتوصلون بالكهرباء إلى ما هو أعجب وأغرب. فما أجَلَّ صنع الله، وما أعظم قُدرتَه سبحانه لا ربَّ غيره!

وإن عَجائب أوربا كثيرة، وهي في الحقيقة ليست عجائب أوربا بل عجائب العِلم[492]، وغرائب اختراعات عقل البشر النبيه المتيقظ. ولولا أني التزمت أن لا أخبر إلا بما رأيت لقصصت عليكم من عجائب أوربا أو العلم[3]، وخصوصاً في لندرة وباريز اللذان هما ينبوع الحكمة الأوربية. غير أني لعدم طول مقامي وعدم معرفتي بشيء من اللسان النجليزي والفرنساوي، فليَقبل المنصفون معذرتي، وليعلموا أني ما وصفت باريز ولا لندرة، وإنما وصفت قسماً من كل منهما وصِفَتَه أو مَحلاً نزلتُ فيه أو زرته، رسمياً أو غير رسمي، لسماعي به أو طريقاً مررت بها كما يمر الحالُ المرتِحل، والعاقل يقيس الشبيه بالنظير، {والله عليم خبير}[493].

مسجدان للمسلمين في لندرة أحدهما للجمعة في وُكين[494]

أخذتُ عشية الأحد حافلة أتومُبيلية، وطلبت من السائق أن يذهب بي لزيارة مسجد المسلمين الهنود الذي أسمع به في لندرة. فلم يعرفه هو ولا عدة من السائقين للأتومبيلات التي كانت حاضرة في لاكَار، ولا البُليس. ثم ذهب بي إلى دائرة البُليس وسأل هناك ليدلوه عليه، فلم يعرفوه ولكن أرشدوه إلى مأكل للهنود المسلمين ليدلوه عليه. فذهبنا ولم نجد من يعرف

(491) الكشف في الاصطلاح: الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً .موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب: 684. وواضح أن المؤلف أطلقه بغير قليل من التسرع في هذا السياق.

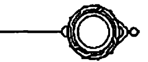
(492) لدى س "العالم".

(493) الحجرات: 13.

(494) الكلمتان الأخيرتان ساقطتان لدى س.

المسجد، وبقينا نطوف في كثير من الحارات ونحن نسأل عنه ولا دليل. فلما قرب الغروب رجعنا لمحلنا ولا طائل سوى أنا كنا جازمين بوجود مسجد في لندرة، فرجعت شاكاً فيه. غير أن الوفد السوداني المصري حقق لنا بعضُ رجاله وجودَه، بل وجودَ مسجدين أحدهما كبير للجمعة في ضواحي لندرة بمحَال يقال له وُكين أخبر[495] أنه صلى فيه الجمعة، وخطيبه رجل إنجليزي خطب باللغة النجليزية وبعض الآيات عربية.

قال الراوي: إنه لما قرأها بكى فأبكى الحاضرين بخشوعه، وأنه يوجد في لندرة كثير من النجليزيين أسلموا بإسلام أحد عظمائهم اللورد هادلي، لما له من الاعتبار في قومه وعائلته؛ وإن في المسجد صومعة وموضع الماء للوضوء مثل المساجد الشرقية الإسلامية، ووقفوا على مسجد أصغر منه داخل مدينة لندرة.



السفر إلى منشيستر

كان انفصالي عن[496] لندرة في الساعة 2/1 2, بعد الزوال، قاصداً إلى منشيستر. فمررنا في أرض كلها خضراء، مع أننا في يوم 31 يوليوز، وذلك لكثرة رطوبة هذه البلاد بالأمطار المتكاثرة والبرودة الشديدة. فكنا في هذا الفصل والمطر يتعاهدنا ونحن مدَثَّرون بالثياب، وهذه الأرض كثيرة العمارة مثل افرانسا، بل أزيدُ وحركتها في التجارة أكثر، فكل محطة وصلْناها رأينا فيها من أنواع الموسوقات والموضوعات[497] شيئاً كثيراً.

وعلى سفرنا، وتعلَمُ تعبَ السفر، فقد استرحتُ وحمدتُ الله على مفارقة نزل لندرة، إذ بتُّ فيه ليلة نابغية[498] يساورني فراشها وغطاؤها

(495) لدى س "أخبرني. وُكين: Woking. Voyage d'Europe: 117. محال: عامية: مكان.

(496) يعني مغادرتي.

(497) سبق توضيح معنى الموسوقات والموضوعات.

(498) إشارة إلى بيت النابغة الذبياني:

فبتُّ كأني ساورَتْني ضئيلة ... من الرُّقْش في أنيابها السُّمّ ناقعُ

ديوان النابغة الذبياني: 33 .

بضئيلة[499] من الرُّقش[500] يراها الله شرَّ ليلة عانيتُها في سفري هذا. فِراشُها كأنه من شوك على حجَر صلد، ضيق، متوسداً وسادة كأنها قطعة جبل، ولكن في حُدور[501]، وبالجملة بتُّ ليالي في بوادي المغرب والجزائر ولا[502] كهذه: جُمِعَ فيها جيشُ البرغوث إلى عسكر البعوض، إلى ضيق المحال والمَرافق، وعدم اللسان الموافِق، هذه الليلة التي أديتُ كراء محلها قبلها وقدرُه خمسة أَزِيلة[503] مغربية، داخلٌ فيها قهوة الصباح المرَّةِ بدون سكَّر، في نزل سماه صاحبه الأوتيل؛ والحرية اقتضتْ أن يسمى من شاء ما شاء بما شاء من الأسماء التي هي شريفة على خسيس. ولهذا كان السفر قطعة من العذاب[504]، وقد استهونتُ ألمَ السكة الحديدية ولا ألمَ الفراش.

عادة النجليز عدم الزيوف[505] عند الأكل

وليس لهم في ذلك المنزل حتى زيوف الأكل، وهذا في غالب محلات الأكل عند النجليز، مع أن بلدهم هي بلد الكتان. وفي بعض محلات لها اعتبار، يجعلون زُيُوفاً من الكاغيط[506] بخلاف أرض افرانسا، فلابد من

---

(499) الضئيلة: الحية الدقيقة. لسان العرب: ضأل.

(500) الرُّقش ج رقشاء: الأفعى بخطوط ونقط على ظهرها .المصدر السابق: رقش.

(501) لدى س: "حرور".

(502) "ولا" ساقطة لدى س.

(503) أزيلة: ج ريال Real كلمة إسبانية معناها ملكي: عملة فضية وقد تدوولتْ الكلمة بالمغرب عند قبول استعمال الريال الإسباني بالمغرب منذ بداية القرن 19، وفي سنة 1881 قام الحسن الأول بإصلاح نقدي وضرب بأوربا قطعة نقدية من عشرة دراهم سماها الريال الحسني ولها عدة أجزاء، ثم صار كل ريال ينسب للسلطان الذي أصدره، وانقطع التعامل بهذه العملة سنة 1920 .معلمة المغرب: 13/ 4507؛ معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية: 215.

(504) في م و س، العذاب قطعة من السفر، وهو سبق قلم من الكاتب؛ "السفر قطعة من العذاب". حديث: صحيح مسلم بشرح النووي: 13/ 70.

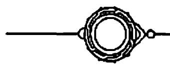
(505) الأصل في الزِّيف في العامية المغربية: "الذيل يجر من ثوب المرأة" .أمثال العوام في الأندلس: 2/ 195 هـ. تشبيهاً بجر الحمام الذنابي ودفع مقدمه بمؤخره مستديراً متبختراً في مشيته. لسان العرب: زيف. ويقصد به هنا قطعة ثوب قطني تستعمل لمسح أو لتجفيف اليدين بعد الطعام.Le Dictionnaire Colin d'Arabe Dialectal Marocain: 3/ 764 .

(506) الكاغيط: تحريف صوتي لكلمة الكاغد الفارسية المعرّبة ويقال فيه الكاغِد والكاغَد والكاغذ: الورق .الآلة والأداة: 300؛ لسان العرب: كغد. ويعني هنا المناديل الورقية.

زيوف الأكل في كل محلّ محل.

لا تقل لي إن المغاربة ليس لهم زيوف، إنا نجيبك بأن فقيرهم وحقيرهم له زيف واحد بعد الأكل، ولابد عند المغاربة من غسل الأيدي بالصابون وتجفيفها في الزّيف. وفي ذلك نهاية النظافة، وذلك مفقود عند غيرهم. لذلك جعلوا لكل آكل زيوفاً، أما النجليز فلا، نعم في الأوطيلات العالية يعملون بعادة الإفرانسيس.

ومما لاحظتُه في الطريق بين لندرة ومنشيستر أنهم جعلوا السكة الحديد خطين، خط ذاهب وخط آيب، فأمنوا من الاصطدام، وذلك لكثرة الحركة. ومع هذا تجدهم فتحوا تُرَعاً كثيرة[507] في الأودية تجرها ثيران تمشي بشط النهر، فترى الثوْر ذاهباً مع شط الترعة يجر زورقاً حاملاً المحصولات الصناعية والأرضية، وذلك موجود في افرانسا والألزاس واللورين، ولكن هنا أكثر والحركة أزيد.



كثرة الغنم في انكلاتيرة

ومما لاحظته أيضاً في طريقي هذه كثرة الغنم هنا في انكلاتيرة وسِمَنها للغاية لكثرة النبات، وذلك أكثر مما في افرانسا بكثير. نعم، البقر في افرانسا أعظم جثة وأكمل بنية من بقر النجليز، وكذلك الخيل أيضاً لكن للجَرّ، أما خيل الركوب والسباق فعند انجلترا أحسن. وخيول النجليز مشهورة في العالم، كالخيل العربية، ولا سيما إذا تناسل فرس بين عربي وإنجليزي فذلك النهاية. حتى إن الفرنساويين يزِنون ما في الفرس من الدم النجليزي والعربي، وبنسبة زيادتهما فيه يتشرف ثمَنُه. ولهم ناس عارفون بذلك وبزِنَتِه وزيادته ونقصه، وربما بلغ الفرّس الآلاف المؤلفة من الإبرة[508] الذهبية.

الأشجار بين لندرة ومنشيستر كثيرة، ولكن تظهر في افرانسا أعظم

---

(507) لدى س "كثيراً".

(508) الإبرة أو ليبرة: "اسم العملة الإنكليزية عند المغاربة أخذاً عن الإسبانيين الذين يسمونها Libra esterlina ومعناها ليبرة شرعية". الرحلة الإبريزية إلى الديار الانجليزية: 31.

وأطول. والاعتناء بالخضرة في افرانسا أكثر أيضاً لصلاحية الجو والأرض لذلك أكثر من انكلاتيرة، وإن كانت الزراعة هنا راقية من أرقى ما يوجد.

وفي قرب منشيستر رأينا الخضر مزروعة كثيراً، وكل من له قطعة أرض[509] يجعل لها سياجاً خشبياً أو نباتياً أو سلكياً، ولا سيما عند الخط الحديدي ولا يصل أحدٌ الخطَّ الحديدي[510] لكثرة الحركة وخوف الخطر لسرعته، وذلك كله بخلاف افرانسا.

مررنا في طريقنا على عمائر وقرى كثيرة. منها مدينة راكبي[511]، بها مدرسة شهيرة يقرأ فيها الطبقة العليا من أولاد النجليز. ومنها مدينة سطاكبوط[512]، فيها مصانع ومكينات عديدة، وهي قريبة إلى منشيستر[513] بينهما الترامواي. ولقد رأينا منظرَها أسود يعلو الدخان فوقها ثم يكسو حيطانها بأردية سوداء، وكذلك لما وصلنا إلى منشيستر.

منشيستر



وكان وصولنا في الساعة 7 عشية، ولما وصلنا لم نجد أحداً يعرف اللسان يدلنا على نزل ننزله. واجتمع علينا الصبيان يتعجبون من لباسنا ولساننا، فجاء البُليس وفرَّقهم حيناً، ولم يفهم مقصدنا ولا وجدْنا من يعرف الفرنساوي ولا كلمة. ولم يكن معنا عنوانٌ ولا واحد من الفنادق التي لا شك أنها متعددة هناك. وسبب هذا عدم أخذنا بالاحتياط، إذ كان الواجب أن نصحب معنا ترجماناً أو عنوان فندق على الأقل. لكنا اتكلنا على جَعلنا تلغرافين لرجلين من تجار المغاربة الذين هم موجودون بكثرة في منشيستر

---

(509) لدى س "من الأرض".

(510) العبارة من "ولا يصل" إلى "الحديدي" ساقطة لدى س.

(511) راكبي: Rygby، اشتهرت بتضمنها المدرسة التي لُعبت بها لعبة الريكْبي لأول مرة سنة 1823. D.E.H: I/ 1128.

(512) سطاكبوط: Stackport: مدينة صناعية انجليزية على نهر Mersey المصدر السابق: 3/ 1213.

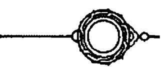
(513) سبق التعريف بها.

فقلنا: إن أخطأ واحد أصاب الثاني، فأحدهما زعم أن التلغراف لم يصله، والآخر قال إنه ظن أني عملته من باريز وأني لا أصل إلا غداً، والله يغفر لهما.

وقد انقضت المشكلة أني تذكرت بجيبي عنوان رجل أعرفه هناك فأعطيته لصاحب السيارة وذهب بي إلى داره فوجدت بها أحد الرجلين اللذين وجهتُ لهما التلغراف. وقد اعتذر فما نَفَع إلا قبول العذر لكونه من أحباب سيدي الوالد[514]، رحمه الله، فاستحضرتُ قوله عليه السلام في "صحيح مسلم": «من البِر أن يُكرم الرجل أهلَ ود أبيه»[515]. ولا إكرام كقبول العذر.

ولما سمع بي هناك أصحابُنا المغاربة اجتمعوا عليَّ هناك، وسمَرنا سمراً مفيداً. وقد سألوني في مسائل مهمة عن أمر دينهم، إذ جلهم، والحمد لله، متدين، فأجبتهم بما حضرني في تلك السُّوَيعة.

مسائل فقهية



مسح الذراعين في التيمم

فمنها: هل مسح الذراعين واجب في التيمم أو لا؟

الجواب أن الواجب مسح اليدين للكوعين[516]. أما مسح الذراعين من الكوعين إلى المرفقين فليس بواجب وإنما هو سُنة على المشهور[517]. لما ثبت أنه، عليه السلام، تركهما في بعض الأحيان. فقال أحدهم إنه كان مريضاً برِجْلَيْه لا يقدر على جعل الماء بهما، فأفتاه بعض الناس بالتيمم وقال له:

(514) سبق التعريف به.

(515) صحيح مسلم: 16/ 165-166.

(516) لدى س "والكوعين".

(517) صحيح مسلم بشرح النووي: 4/ 61-62. المسح إلى المرفقين سنة عند المالكية والحنابلة أما الحنفية والشافعية فيحسبون التيمم على الوضوء لذلك جعلوه فرضاً، والسبب في كل ذلك إجمال الآية واختلاف الأحاديث. الفقه الإسلامي وأدلته: 1/ 585-586.

يَجب مسح الذراعين. فقلت له: أما فتواه بالتيمم فلم تصادف صواباً، والصلاة به باطلة. يجب عليك إعادة ما صليت به إذا كنت قادراً على جعل الماء فيما عدا الرّجلين، إذ يمكنك أن تمسح على النعلين إذا كانتا طاهرتين ولبستَهما على طهارة وتصلي بهما، ولا تنزعهما فإن الطرق هنا نظيفة غالباً إذ لا تمر فيها الدواب. والعضو الواحد أو المتعدد إذا تعذر غَسله لا يُنتقل به للتيمم، بل يُمسح عليه ويغسل غيره. وإذا كانت النعال نجسة نزعتَها ومسحت على رجليك وصليت، أليس يُمسح على الجبيرة والجوارب، التقاشير[518]، إذا كانت الرّجل مريضة كالجبيرة؟ ومن الأحاديث المتواترة مَسْحُه، عليه السلام، على الخُفين[519].

وأما فتواه بعدم إجزاء مسح اليدين، ووجوب مسح الذراعين في التيمم، فهي فتوى غير صحيحة لما علمتَ أن المشهور خلافهُ، وهو في "**نظْم ابن عاشر**"[520] على أن قولكم إن الكسوة الأوربية تمنعكم من مسح الذراعين لا أسلمه لكم، إذ يُمكنكم إزالة السترة والتوضُؤ أو التيمم ثم تَرُدونها ولا ضرر عليكم ولا كبير مشقة، فاعتَرفوا بذلك كله[521].

الملف الذي يصنع من صوف الميتة

ومنها سؤالهم عن الملف[522] الذي يُصنع من الصوف، وربما تكون صوفَ مِيتة. هل تصح به الصلاة؟

---

(518) كلمة ساقطة لدى س. ومعنى الكلمة: الجوارب في العامية المغربية.

(519) صحيح مسلم بشرح النووي: 3/ 173-174؛ سنن ابن ماجة: 1/ 189-194؛ **الفقه الإسلامي وأدلته**: 1/ 471 و497.

(520) يقصد قول ابن عاشر:

فُروضه مسحُك وجهاً واليديْنْ ... بالكوع والنيةُ أولى الضربتين

سُنتهُ مسحهما للمرفقِ ... وضربة اليدين ترتيبٌ بقي

مختصر الدر الثمين والمورد المعين لأحمد بن محمد الفاسي على منظومة المرشد المعين على الضروري من علوم الدين: 112 و117.

(521) المقطع من قوله «على أن قولكم» إلى «بذلك كله» ساقط لدى س.

(522) سبق التعريف به.

الجواب هل الغالب في الصوف التي يُصنع منها الملف هو الصوف المجزوزة من الغنم الحية أو المتوفة؟[523] فقالوا: الغالب المجزوزة الطاهرة. وهذا ضروري وغيره نادر بالنسبة إليه. فقلت لهم: الحُكم للغالب، ولهذا قال خليل: «بخلاف نسجه»[524] فقال بعضهم: وهناك صوف ما لم يُذَكَّ من الغنم بل ذبَحه أهل الكتاب، فقلت لهم: أما أوّلاً فالغالب هو المجزوزة الطاهرة كما اعترفتهم، وسبق أنَّ الحُكمَ للغالب. على أن صوف أهل الكتاب تابعة لذبيحتهم[525]وطعام الذين أوتوا الكتاب حِل لكم[526]؛ على ما أفتى به الإمام ابن العربي المعافري فالْبَسوه ولا حرج.

وقد كانت المذاكرة جرت بيني وبين أعضاء الوفد في أكل ذبيحة النصارى، ورأيت أن الضرورة تبيح لنا أكلها، زيادة عن فتوى ابن العرَبِي بالجواز في الاختيار، ولو رأيتَه يفتل عنق الدجاجة[527]. فكان بعض أعضاء الوفد لا يعمل بهذه الفتوى، ولكن كان يأكل المرق والخضر المطبوخة مع اللحم. فقلت له يوماً: ما أعْرَفَك بالفقه! تُحرِّم اللحم وتأكل مرَقه! فصار بعد ذلك لا يأكل المرق بل يذهب لمحلات اليهود يأكل عندهم. فقلت له: أي فرق بين ذبيحة يهودي أو نصراني مع أن حكم القرآن علّق على الكتابية[528]. وإنما الفرق بين طعام اليهود والنصارى أن الثاني نظيف موافِق للصحة بخلاف الأول. ومع هذا كله بقي يأكل طعام اليهود ويتورع عن طعام النصارى، والكلُّ سواء في الحكم، وإنما «لكل امرئ من دهره ما تعودا»[529]. وقد زعم هذا البعض أن ابن العربي تفرَّد بهذا القول، وهو

---

(523) لدى س: "المندوفة".

(524) "ولا يصلي بلباس كافر بخلاف نسجه": أي تباح الصلاة بثوب نسجه كافر .المختصر في الفقه على مذهب الإمام مالك: 9.

(525) لدى س "بذبيحتهم".

(526) المائدة: 6.

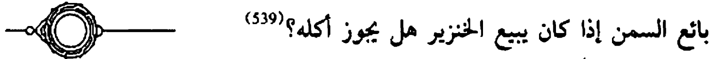
(527) أحكام القرآن: 2/ 554.

(528) يقصد قوله تعالى: {اليوم أُحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم.} المائدة: ٥.

(529) شطر بيت للمتنبي: تتمته: وعادةُ سيف الدولة الطعنُ في العدا .العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: 2/ 384.

قصور؛ فقد مشى عليه الونشريسي[530] في [531]، ورجحه الإمام الحفار[532] قائلاً: بل أهل المذهب كلهم يقولون إنَّ أكل طعام أهل الكتاب حلال لنا إلا ما خُص من ذلك، فقفْ عليه. وقد وهّن الرهوني[533]، كلام ابن العربي هذا بوجوه[534] كلها مردودة بسَطْنا القول فيها في غير هذا الموضع[535]. وكما رجح الحفار كلام ابن العربي قَبله الزيات وسَلَّمه وكفله أحمد بابا السوداني[536] وغيره، والله أعلم.

ومنها سؤالهم عن ثوب من الشَّعَر يُجعل تحت بطانة السترة، بينها وبين الملف، فقلت لهم: هل تحققتْ لديكم نجاستُه؟ فقالوا: لا، بل جُهلتْ حالُه. فقلت لهم: البسوا ولا حرج لقول الشيخ خليل: «بخلاف نسجه»[537]. وقد لبس صلى الله عليه وسلم ثياب الشعر والصوف تأتي من أرض الكفار، ولم يبحث في كونها مجزوزة أو منتوفة ولا في الشعَر هل من حلال الأكل أم من حرامه وذلك في الكتب الصحاح[538].



بائع السمن إذا كان يبيع الخنزير هل يجوز أكله؟[539]

ومنها: سألوا عن رجل يبيع لهم السمن في منشيستر ويبيع أيضا في

---

(530) أحمد بن يحيى الونشريسي، فقيه مالكي، مؤلف، (-1508 م) .الأعلام: 1/ 269.

(531) انظر موافقة الونشريسي لابن العربي في هذه الفتوى في: **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل الأندلس والمغرب**: 2/ 9-10.

(532) الحفار: أبو الفتح هلال بن محمد بن جعفر، من رجال الحديث، فارسي الأصل (-414 هـ). **الأعلام**: 6/ 94.

(533) أبو عبد الله محمد بن أحمد الرهوني، فقيه مالكي، منسوب إلى رهونة من قبائل غمارة بشمال المغرب، مؤلف (-1815 م) .الأعلام: 6/ 17.

(534) **حاشية الرهوني على شرح الزرقاني على المختصر**: 3/ 11.

(535) يقصد مؤلفه المفقود الذي أشار إليه في فهرسته: '**حاشية لطيفة على الزرقاني وبناني والرهوني**'. **العروة الوثقى**: 76. وأشار إلى هذه القضية بإيجاز في: **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**: 1/ 156-157.

(536) أحمد بابا التنبكتي السوداني، المؤرخ المؤلف (-1628 م) .الأعلام: 102-103.

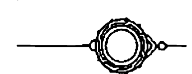
(537) انظر 148.

(538) انظر مثلاً **سنن ابن ماجة**: 2/ 193.

(539) عنوان ساقط لدى س.

حانوته لحم الخنزير، ولكن لا يتناول السمن بيده بل بآلة مخصوصة لا يتناول بها غيرَه ثم يجعله في كاغد[540] ويناولهم إياه ويتحفظ من أن يخلط به غيره. ولم يجدوا غيره يبيعهم إياه إلاّ على هذه الحالة.

الجواب: إذا غلب على ظنكم التحفظ من خلط السمن بشيء آخر محرَّم شرعاً فلا حرج، فإن الطعام لا يُطرح بالشك كما نص عليه الفقهاء، فضلاً عن الوهم.



الخميرة من حثالة شعير يصنع منه الخمر

ومنها: سألوا عن الخميرة التي يعجنون بها خبزهم أنها من حُثالة[541] الشعير الذي يعصره النجليز ويأخذ منه الخمر. فقلت لهم: هل تؤخَذ الحثالة قبل جعل الماء خمراً، وقبل انسحاب حكم الخمرية عليه أم بعده؟ فقالوا: بل قبل تخميره. فقلت لهم: لا حرج، كُلوه هنيئاً مريئاً لأن العبرة بالحالة التي تناولتم أنتم الخمير فيها، وهو إذ ذاك لا زال حلالاً. أما مآل العصير بعدما أخذتم أنتم حُثالته فله حكم يخصه. فقالوا: إننا بعدما نأخذ الشعير يصير خميرة، وهو معنى التخمر. فقلت لهم: هو كدقيق الحنطة أيضاً، فإنه يتخمر ويصير حامضاً خميرة أيضاً، وهذا معنى هذه المادة وهي التخمير التي أُخذ منها لفظ الخمر لغة وشرعاً.

وقد نص الفقهاء أن ما ليس بمائع، كالخميرة، لا يحرمُ منها إلاّ القدْر الذي يؤثر في العقل أما ما قلَّ، كالخميرة التي تُخلط مع العجين، فلا حُرمةَ ولا حدَّ فيها، كما أنها طاهرة قليلها وكثيرها. ومن أكل منها القَدر الذي أثَّر في عقله ليس عليه إلاّ الأدب لا الحد[542].

ثم بيَّنْتُ لهم معنى الخمر، وهو المائع الذي يغطي العقل مع نشاط

---

(540) سبق التعريف به.

(541) حثالة الشعير قشارته: لسان العرب: حثل.

(542) الحد: العقوبة التي تنال الإنسان في جسمه أو نفسه، والأدب هو التعزير وهو ضرب دون الحد، تأديباً .معجم فقه ابن حزم الظاهري: 1/ 300؛ لسان العرب: عزر.

وتفريح سواء كان من العنب أو من[543] غيره، خلافاً لأبي حنيفة الذي يخصه بالعنب والتمر، وحُكمه الحرمة والنجاسة المغلَّظة كالبول، ووجوب الَحد في قليله وكثيره. فالحرمة مأخوذة من عشرة مواضع في آية واحدة وهي: ﴿إنما الخمر والميسر﴾إلى قوله[544]؛ وهي جعلُها مع الأوثان، وهي الأصنام، وتسميتُها بالرجس وأنها من عمل الشيطان والأمر بالاجتناب، كما تقول: اجتنبْ عدوك، وهو أبلغ من الأمر بالترك، وتعليق الفلاح على الاجتناب، وما فيها من إيقاع العداء وإيقاع البغضاء، وذلك من أقبح ما يُجتنب، والصد عن ذِكْر الله، والصدّ عن الصلاة، والنهي بصيغة الاستفهام المومئ به إلى التهديد الشديد[545] ويؤخذ أيضاً من قوله تعالى: ﴿فيهما إثم كبير[546]وقوله: ﴿إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾[547]. وأما النجاسة فحيث عبر عنها بالرجس، وبذلك عبر عن لحم الخنزير في قوله: ﴿أو لحم خنزير﴾[548]، فإنه رجس وهو نجس بإجماع. وكفى في نجاستها عموم الأمر باجتنابها، وغاية ما يعبر عن النجس أن يُجتَنَب، ونجاسة المسكر هو قول الجمهور، إلا ما يُنقل عن ربيعة[549] من طهارته.

وأما وجوب الَحد فبالسُّنة[550]، وقد أقام الحدَّ فيها عُمَر فجلد ثمانين، وجلد فيها عثمان أربعين مقتدياً بفعل أبي بكر[551]، ويكبر حاصل

---

(543) كلمة ساقطة لدى س.

(544) المائدة: 92.

(545) المقطع من قوله: «وهي جعلها...» إلىقوله: «التهديد الشديد»، ساقط لدى س.

(546) البقرة: 217.

(547) الأعراف: 31.

(548) الأنعام: 146.

(549) ربيعة: ربيعة الرأي، إمام حافظ فقيه مجتهد مفتي المدينة، توفي سنة 753 هـ .الأعلام: 3/ 17.

(550) لدى س "فالنسبة"، وقد خلص المؤلف في الفكر السامي.. إلى أن الحد في الخمر بالقتل شُرِّع بالسنة كما نسخ بالسنة .الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: 1/ 52. (طبعة المشرق).

(551) انظر مثلاً: الفقه الإسلامي وأدلته: 6/ 159-160.

حرمتها[552] ويحرم على المسلم تملكها، ويبطل تقويمها حتى لا يضمن ما تلف منها. فهذه أحكام الخمر الستة.

وقال أبو حنيفة بحلّية النبيذ، وهو عصير ما ليس بعنب، واعتبره كبقية الأطعمة والأشربة المباحة، لكن لا يبيحه مطلقاً، بل يبيح منه القدر الذي لا يُسكر بالفعل كالجرعة الواحدة. فإذا زاد الشارب حتى سكر بالفعل فهو حرام ويُحد عنده، وذلك لأنه يَفهم قوله عليه السلام «كل مسكر حرام»[553] على أن المعنى المسكر بالفعل[554]. وأما إذا شرب منه ما لم يسكر بالفعل فلا حرمة ما لم يكن من الخمر الوارد في القرآن، وهو عصير العنب والنخيل، زاعماً أنه هو الذي يُطلق عليه الخمر لغة[555]. فإذا كان منه فقليله ككثيره، الكل حرام عنده أسكر قليله بالفعل أو لم يسكر. وقد استدل بقوله تعالى: ﴿**ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكراً**﴾[556]، فإن هذه الآية فسرت الخمر المحرم في الآية التي نزلت بعدها في تحريمه، وهي قوله: ﴿**إنما الخَمر والميسر والانصاب. .**﴾(الآية)[557] وبحديث أنه عليه السلام مر بحائط من حيطان المدينة المنورة ورأى شجرة عنب ملفوفة على نخلة فقال عليه السلام: «الخمر من هاتين» وأشار بيده إلى النخلة والعِنَبَة[558]. قالوا: إن هذه الجملة تسمى حصرية عند الأصوليين، فيُستفاد منها أن الخمر محصور في هاتين الشجرتين وبقوله عليه السلام: «حُرمت الخمر بعينها والسُكر من كل شراب»[559]. وهو استدلال ضعيف: فإن الآية

---

(552) الكلمات الثلاث السابقة ساقطة لدى س.

(553) صحيح مسلم: 3/ 1587.

(554) اعتبر أبو حنيفة غاية السكر وأكمله هو الموجب للحد. انظر: **الفقه الإسلامي وأدلته**: 6/ 150.

(555) يقتصر معنى الخمر لغة على عصارة العنب. لسان العرب: خمر.

(556) النحل: 67.

(557) المائدة: 92.

(558) **صحيح مسلم**: 14/ 221-222؛ **سنن ابن ماجة**: 4/ 437. وانظر تفريق الحنفية بين حد السكر وحد الشرب فيما ذكر أعلاه في: **الفقه الإسلامي وأدلته**: 6/ 150 و7/ 5485-5486.

(559) **الضعفاء**، العقيلي: 4/ 124. والسَّكَر: نقيع التمر الطري الذي لم تمسه النار أو هو النيء

ما سيقت على سبيل التفسير حتى يُستدل بها، وإنما هي امتنان بنعَم الله تعالى، واستفادة الحصر من الحديث، إن ثبتَ، ليس بنص، ومثل هذا التركيب قد لا يُقصد منه الحصر لأن الجزء الثاني غير مُعرَّف. على أن لنا ولأصحابنا أن يجيبوا بأن الآية ليست تفسيراً للخمر[560] بل للسَّكَر، فلا دليل فيها لأحد الفريقين، على أنها بيان لبعض الأنواع التي يُتخذ منها المسكِر؛ والمسكر كما يكون منهما يكون من غيرهما بإجماع. وفي الصحيح نزل تحريم الخمر وهي تُصنع من خمسة أشياء: العنب والتمر والحنطة والشعير والعسل، قاله عمر على منبر النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة متوافرون حاضرون فلم يُنكروه، فهو كإجماع سكوتي[561]. وروى أبو داود وابن حِبان وغيرهما عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الخمر من العصير والزبيب والتمر والحنطة والشعير والذرة وإني أنهاكم عن كل مُسكر»[562]. وكفى بهذا دليلاً على الحنفية، ولذلك يعتبر جمهورُ الأمة قولَهم شاذاً في هذه المسألة ومُدرَكه ضعيفاً[563]. مسألة المقطَّر من هذه الأنواع حُكمُه حكم المُقَطَّر منه ما دام مُسكراً. وأفتى بعض العلماء بأنه تبدلت صورتُه بالنار واستحالت ماهيتُه[564].

هل يجوز جمع الصلوات للضرورة؟

ومنها سؤالهم: هل يجوز جمع الصلوات إلى الليل، لأن الضرورة

من ماء الرطب إذا غلى واشتد وقذف بالزبد وسكن غليانه، عند أبي حنيفة، والمشهور أن نبيذ التمر إذا لم يطبخ هو السكر. **الفقه الإسلامي وأدلته**: 7/ 5491.

(560) لدى س: "للخمرة".

(561) الإجماع نوعان: قولي أو قطعي ولا خلاف في حجيته، وإجماع سكوتي أو ظني يعتبره الجمهور ليس بحجة. **أصول الفقه الإسلامي**: 191. ويعرف الحجوي الإجماع السكوتي قائلاً: «وهو أن يجيب واحد من المجتهدين ويسكت الباقي ولا مانع من الإنكار. وفيه تفصيل والحنفية يعتبرونه حجة». **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**: 1/ 46-47. (طبعة المغرب).

(562) سنن ابن ماجة: 4/ 437.

(563) تناول المؤلف هذه المسألة في الفكر السامي: 1/ 52-53. (طبعة المغرب).

(564) انظر الفقه الإسلامي وأدلته: 7/ 5491.

تلجئهم إلى ذلك لكونهم يلبسون اللباس الإفرنجي الضيق وينتعلون النعال الإفرنجية أيضاً؟

الجواب: إن جمع الصلوات لا يجوز بحال، وهو كبيرة. قال عليه السلام: «مَن جمع بين صلاتين فقد أتى باباً من أبواب الكبائر»[565] - حديث صحيح، وقال عليه السلام: «أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة الصلاة»[566] - وهو صحيح أيضاً. وقال عليه السلام فيمن فاتته صلاة العصر: «فكأنما وتر أهله وماله»[567]. فلا يجوز لكم تأخير الصلاة عن وقتها المطلوب، ولا رخصة في ذلك في الدين. وأما اعتذاركم بأمر الكسوة، فلا يُعجزكم إزالة السترة والنعل عند الوضوء مرة أو مرتين في اليوم، ولا إضاعة دقائق أو دقيقتين من الزمان في تحصيل فرض أو فرضين، بل النعل يمكنكم المسح عليه بشرطه من غير إزالة كما سبق. فربما تذهب لكم ساعات في محادثة من لا تحب محادثتُه. ولا تفوت، كيف بكم إخواني، إن الله أوجب عليكم أن تُقبلوا عليه بقلبكم وجوارحكم خمس مرات في اليوم والليلة، تقفون بين يديه تعبدونه لاستحقاقه العبادة، لأنه ربكم الذي خلقكم وخلق لكم ما في السماوات وما في الأرض، وتشكرونه أن غذاكم بنعمه. خلقكم في أحسن تقويم، وصوَّركم فأحسن صوَرَكم وأكملَ أعضاءكم وحواسَّكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة وركَّب فيكم عقولاً لتُقبلوا عليه بها في كل وقت من الأوقات الخمسة، فها أنتم تريدون اختصارها وجمعَها في وقت واحد. أليس هذا من الجفاء العظيم؟ يُقبل عليكم فتُدبرون عنه! فإذا صيرتم الأوقات الخمسة وقتاً واحداً لمشقة قريبة غير معتَبرة شرعاً، فكأنكم تُصلون وقتاً واحداً، وذلك مخالف للحكمة التي أرادها في تفريق الصلاة على الأوقات. فلهذا كان تأخير الصلاة من الكبائر.

---

(565) ميزان الاعتدال في نقد الرجال: 2/ 303.

(566) السنن الكبرى: 2/ 387.

(567) سنن الدرامي: 1/ 280.



مراد الحق سبحانه وتعالى من تفريق الصلوات على الأوقات أن نواجهه، سبحانه، بأبداننا وقلوبنا خمس مرات في اليوم والليلة ونترك الدنيا وراءنا. ولذلك نفتتح الصلاة بقولنا: الله أكبر، فهو أكبر من الدنيا التي ملأت قلوبنا، وأكبر من كل شيء يلهينا عنه. وأن نحمده على نعمتي الإيجاد والإمداد بقولنا: الحمد لله رب العالمين، والعالم هو ما سواه سبحانه. الرحمان بنا، حيث رحم ضعفنا فأفاض علينا نور الوجود والإمداد والعقل والإدراك والإيمان والإلهام للرشد والخير. الرحيم المتجاوِز عنا إذا عصينا، المقبِل علينا ونحن في غفلاتنا مُعرِضون، ملك يوم الدين، وهو يوم الجزاء والقيامة. قد ذكَّرَنا سبحانه في الفاتحة، التي تُكرر سبع عشرة مرة في اليوم والليلة بيوم القيامة وأهواله من مناقشة الحساب، ومجازاة المحسن والمسيء لننزجر عن المحَرَّمات ونسرع إلى الطاعات.

فيا أيها الإخوان، إن مَن تفكَّرَ في اليوم والليلة سبع عشرة مرة في يوم الحساب والجزاء بالنعيم أو العذاب لا محالة ينزجر، فلا يكذب ولا يخدع ولا يغش ولا يحلف، ولا يشرب خمراً ولا يزني ولا يفعل مُحرَّماً، بل يُقبل على الطاعات ويتصف بمكارم الأخلاق ويغتنم وجوه الخيرات، فلذلك يقول: إياك نعبد، ولا نعبد سواك، عبادةً لا رياء فيها ولا سُمعة، فيكون مخلصاً، وإياك نستعين، فلا استعانة ولا تعلُّقَ بسواك، فيكون متوكِّلاً مطمئن القلب، ساكن النفس، مرتاح الضمير، مفوِّضاً أمره لمولاه، عائشاً عيشة راضية. وتلك الصراط المستقيم، صراط من أنعم عليهم، وهم المسلمون الحقيقيون، لا غيرهم ممن حلَّ عليهم غضب الرب وضلوا.

فيا إخواني إن كان هذا هو المقصد من الصلاة، فكيف يؤخرها الإنسان وجُماع الخير فيها؟ وبتأخيرها تُفَوِّت تلك المقاصد كلها، والله يقول: ﴿حافظوا على الصلوات﴾[568]، ولا يُقبل منكم عُذر في تأخيرها. ألا ترى أن مَن فقد الماء أو لم يقدر عليه لم يُقبل منه التأخير، بل يتيمَّم ويصلي ولا يحتاج إلى

(568) البقرة: 236.

غسل أو وضوء، بل قد اختصر الله لنا التيمم فيقتصر الإنسان على مسح الوجه واليدين، لأن الوضوء المقصود منه، مع التعظيم، النظافة بغسل اليدين والفم والأنف والوجه والرّجلين ومسح الرأس والأذنين. أما التيمم، فلما كان القصد منه هو إظهار احترام الحضرة الإلهية بالدخول لميدان المشاهدة اقتُصر فيه على مسح ثلاثة أعضاء. ولا يُقبل في تأخير الصلاة عُذر إلاّ لمن أُغمي على عقله وسُلب الإدراك، فقط، وذلك إن لم يجد المسجد صلى، ولو في كنيسة؛ قال عليه السلام «جُعلت الأرض لي مسجداً وطَهورا»[569]. فأي ما أحد أدركَتْه الصلاة فلْيُصلِّ، ومن لم يقدر على القيام جلس، ومن لم يقدر على الجلوس اضطجع، فإن لم يقدر فبإيماء: إذ القصد[570] الأهم حضور القلب مع الله، ومناجاة الرب والخضوع إليه.

غير أني رأيت هذه المواعظ لم تؤثر في القوم، فقد حضر وقت المغرب وما صلى معي أحد منهم مع أني أعلَمْتهم بحضور الوقت أولاً، وثانياً لعلهم يفعلون، وكل الموانع التي يدّعونها أعذار منتفية إذ ذاك. ولكن أين القلوب التي يؤثر فيها المواعظ! فكان أسفي على ضياع وعظي كأسفي على ضياع دينهم وهم عنه سائلون.

البلد إذا انعدم فيها الشفق هل تسقط صلاة العشاء عن أهلها؟

ومنها سؤالهم أن منشيستر لا يوجد لها شفق في بعض ليالي السَّنة، حتى أنهم يقرؤون الجرائد في نصف الليل من غير مصباح ويكون الليل قصيراً جِدّاً، والنهار طويلاً جداً من ساعات 22[571] يصومونها كلها في بعض السنين. وفي وقت وجودي هناك كانت المغرب على الساعة العاشرة، لأن عرض البلد 53 وبعض دقائق، ولا يغيب الآن عندهم الشفق إلاّ في نصف الليل. ونهارهم أطول من نهار افرانسا وليلهم أقصر: فإن عرض باريز

(569) فتح الباري، ابن حجر: 10/ 488.

(570) لدى س: "المقصود".

(571) كذا في م، لدى س "الاثنين وعشرين".

49:95 فقط. فسألوني: إذا لم يغب الشفق هل يصلون العشاء أم لا؟

الجواب: اعلموا أولاً[572] أن الشفق المرادُ به الحمرة التي تبقى في السماء بعد غروب الشمس، لا البياض الذي يبقى بعد غروب الحمرة فلا عِبرة به، خلافاً لأبي حنيفة، ثم البلد التي لم تغب فيها الحمرة تردَّد فيها المتأخرون من الفقهاء هل تسقط عنهم العشاء لأن وجوبها معلَّق بسبب، وهو الوقت الذي هو غيبوبة الشفق، وحيث انعدم المسبب الذي هو الوجوب أم لا، والصواب، إن شاء الله، أن صلاة العشاء لا تسقط عنهم[573] إذا لم يغب الشفق، بل يُصَلونها بعد طلوع الفجر لقوله عليه السلام لضمام بن ثعلبة، كما في "الصحيح": «إن الله أوجب عليك خمس صلوات في اليوم والليلة»[574]. وهو كغيره من عموم الأمة في هذا الخطاب؛ وكذلك حديث الإسراء: «إن الله فرض على الأمة خمس صلوات فقال هي خمس وهي خمسون...» (الحديث)[575]. فلابد من الإتيان بالخمس كلها ليخرج من عُهدة ترك الصلاة. وفي مسلم وأبي داود وابن ماجة والترمذي من حديث النواس بن سمعان في حديث الدجال: «قلنا: يا رسول الله، وما لُبْثُه في الأرض؟ فقال أربعين يوماً، يوم كسَنَة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم، قلنا، يا رسول الله: أرأيت اليوم الذي كالسَّنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ فقال: لا، ولكن اقْدروا له»[576]، قال الترمذي: «حديث غريب حسن صحيح». قال في "**مجمع بحار الأنوار**[577]": قوله: «ولكن اقْدروا له»، أي اقْدروا له قدرَ كل يوم من أيامكم المعهودة وصلوا فيه صلاة كل يوم بقدر ساعاته».

---

(572) كلمة ساقطة لدى س.

(573) المقطع من "العشاء لأن وجوبها "إلى" لا تسقط عنهم" ساقط لدى س.

(574) صحيح البخاري: 1/ 35. (طبعة دار ابن كثير).

(575) السيرة النبوية: 2/ 49-50.

(576) صحيح مسلم بشرح النووي: 18/ 65-66.

(577) في م، مجمع بحار الأنهار، والمقصود كتاب: "مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار" لجمال الدين محمد طاهر، ذكره صاحب شذرات الذهب: 4/ 410.

ثم الوقت الذي هو سبب لم ينعدم، بل هو موجود لأنه المدة أو حركة الفلَك، وهي موجودة في أي محل كان المسلم، أما غيبوبة الشفق فهو علامة على الوقت وليس هو الوقت نفسُه. فالقول بأن الوقت قد انعدم غلط محض. ألا ترى مَن كان ساكناً في القطب الشمالي الذي يكون النهار فيه ستة أشهر والليل ستة أشهر، هل تسقط عنه الصلاة ولا يصلون إلاّ خمس صلوات في السنة كلها لعدم طلوع الفجر وغروب الشمس؟ فيبقى أهلها في غفلة عن الله هذه المدة كلها؟ كلاّ ثم كلاّ، بل يُقَدِّرون الأوقات ويُصَلون ويجعلون ما بين اليوم والليل أربعة وعشرين ساعة، إذ طَلَبُ الصلاة له[578] حكمة، وهي التوجه إلى المولى وشُكره على أنعامه كما سبق. وهذا القدر قد اشترك فيه أهل الأقطار كلها؛ كذلك هنا يحتاطون ويؤخرون العشاء حتى يطلع الفجر، لأن ضروريها يمتد إلى طلوعه كما هو القول المختار، والله أعلم. وقد بلغني أن شهاب الدين المرجاني القازاني[579] أفرَدَ هذه المسألة بتأليف لم أقف عليه.

وسُئلتُ كثيراً في هذه الرحلة هل يجوز لبْس البرنيطة واللباس الإفرنجي أم لا؟

فكنت أجيب بأن اللباس الإفرنجي ليس خاصاً بالكفار حتى يُسأل عنه، بل يَلبسه الأتراك وبعض العجم وأهل مصر وأهل تونس والجزائر، فلا معنى للقول بأن لباسَه رِدَّةٌ أو حرام في بلد الإسلام، فأحرى بلاد النصارى يقول بناني[580] في "حواشي الزرقاني" لدى قول خليل «وشد زنار»[581] ما نصه: «المراد به ملبوس الكفار الخاص بهم»[582]. أما البرنيطة، فهي خاصة بهم لا يلبسها مسلم في بلاد الإسلام، فلا يجوز لباسها في بلاد

---

(578) كلمة ساقطة لدى س.

(579) شهاب الدين بن بهاء الدين المرجاني القزاني مؤرخ (-1889 م) مجتهد اشتهر بانتقاد المتقدمين، له كتاب "مستفاد الأخبار في تاريخ قزان وبلغار"، يتضمن قائمة مؤلفاته. الأعلام: 3/ 178.

(580) عبد الرحمن بن جاد الله البناني المغربي، فقيه أصولي مؤلف (-1198 م). الأعلام: 3/ 302.

(581) سبق توثيقه.

(582) انظر النص في شرح العالم الرباني والإمام العارف...: 7/ 78.

الإسلام. أما في باريز أو لندرة مثلاً فيجوز لُبسها لقول الزرقاني: «وقُيد قول خليل وشد زنار أيضاً بما إذا فعله في بلد الإسلام» بلفظه، وسلّموه، فمفهومه الجواز في بلد الكفر مطلقاً كان لضرورة أم لا، وسلّموه. قال بناني: «وأما إن كان ذلك لضرورة، كأسير عندهم يضطر لاستعمال ثيابهم، فلا حرمة عليه فضلاً عن الردة»[583]- قاله ابن مرزوق[584] وسلّمه الرهوني[585].

ثم إن فعله في بلدهم لا شك في اضطرار الإنسان إليه لتعصبهم الشديد في لباسهم بخلافنا نحن الذين لا نتعرض لأحد ولو لبس كيفما لَبِس. ويُشترط في الجواز أن لا يلبسه محبة في ذلك الزي ولا ميلاً لأهله وإلا كان رِدة (انظر بناني، والله أعلم)[586].

وصف منشيستر[587]

وفي يوم 1 غشت أصبحت في منشيستر فأخذت مركبة وطُفت في أحياء المدينة، وإذا هي مدينة كبيرة مهمة جداً، جميلة البناء والشوارع والمساكن. ومن جمالها أن غالب دورها لها بستان بجانبه فيه شجيرات وأزهار، ومع ذلك أكثرت الحكومة فيها من المنتزهات العمومية، فهي أكثر البلاد منتزهات. وهي في الدرجة الأولى باعتبار الصناعة لا تُدركها أي مدينة سواها، وغالب بني آدم يُكسى منسوجاتها القطنية، فلا تكاد توجد نسْمة إلاّ وتمتعت بذلك، وتمتع منها أهل هذه المدينة بالنقود، أسواقها وشوارعها منظمة للغاية، ومخازنها منضدة بالبضاعة، وبها فَبارِك[588] عديدة، لذلك

(583) انظر نص بناني في المصدر السابق.

(584) ابن مرزوق الحفيد محمد بن أحمد، عالم بالفقه والأصول والحديث والأدب (-1438 م). الأعلام: 5/ 331. نسب بناني هذا الرأي لابن مرزوق: شرح العالم الرباني: 7 / 78 .

(585) حاشية الإمام الرهوني على شرح الزرقاني لمختصر خليل، وبهامشه حاشية المدني كَنون: 8/ 98.

(586) شرح العالم الرباني والإمام العارف. . .: 8/ 77.

(587) سبق التعريف بها.

(588) فبارك: جمع فبريكة وهي المصنع، مأخوذ من الاستعمال اللغوي اللاتيني .Fabrique

يقصدها التجار من شاسع الأقطار، بل توطَّن بها تجار من فاس ومصر والشام وغيرها.

مررتُ على مركز البريد ودخلته فوجدته مهماً جداً، وأُخبرتُ أنه للمَكاتِب الأهلية فقط، أما المراسلات الأجنبية[589] فلها مركز آخر لا يقل عنه في الأهمية.

وزرتُ مدرسة الفنون الكلية وبقربها مستشفى عسكري، وبعده مستشفى أهلي ومدرسة الأسنان، وبقرب ذلك مدرسة ليلية لتكميل الدروس الصناعية.

ودخلتُ دار البلدية، وهي مهمة للغاية، وبها مركز البُليس. وقد وقفنا برهة من الزمن أضاعوا لي فيها كثيراً من الأشغال للطبع على أوراق السفر حتى قلت للترجمان: لولا أن سبب خروج آدم من الجنة بيّنه القرآن[590] لَقُلْت إنه هرب من برودة أسئلة بُليس إنجليزي، ويوجد من البُليس في منشيستر ألف رجل.

وفي داخل دار البلدية عدة تماثيل لرجال مهمين من الإنجليز، منها تمثال عالم إنجليزي اخترع الفنيك[591] المعلوم في فن الأدوية؛ وقبالة دار البلدية تمثال جد الملك الحالي زوج الملكة فيكتوريا، وهو ألماني الأصل[592]، والتمثال في وسط قبة مزخرفة. وحُكي لي أنهم أرادوا هدمه في أول الحرب تغيُّظاً من أفعال الألمان، لكن راجعوا بصيرتهم وعلموا أن ذلك يجرح عواطف العائلة المالكة.

---

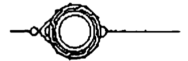
(589) المكاتب يعني المكاتَبات: المراسلات المحلية لا الدولية.

(590) يعني قوله تعالى: {فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو، فإما يأتينّكم مني هدى.} طه: ١١٧-١٢٠.

(591) الفنيك: Phénol: يستعمل عدة استعمالات منها الأدوية كما ورد في المتن، خاصة الإسبرين، وكذا مبيد الحشرات: 970/ 3: D.E.H.

(592) الأمير ألبير زوج الملكة فيكتوريا أمير Sax-Cobourg-Gota (1819-1861) تزوج الملكة سنة 1840: 30/ 1: D.E.H. وانظر عن السلالة الألمانية لهذا الأمير نفس المصدر: 3/ 1154.

تعصب النجليز



ولا شك أن هذا من التعصب الذي يعيبون على المسلمين أقل منه. وقد تقدم أني رأيت في كنيسة سطرسبورغ في الألزاس تمثال المرشال الفرنساوي، ما غيَّروا فيه شيئاً إلى الآن، كما أن التماثيل الألمانية المنصوبة هناك أبقاها الفرنسيون كما وجدوها.

زرت في منشيستر بعض دور التجارة المهمة، وفي منشيستر البنوك العديدة الموجودة في شارع خاص بها. ومن الدُّور التي زرتها دار التاجر الرايط المشهورة بالأواني المعدنية من الأثاث والخُرْثي[593]، ودور بعض إخواننا المغاربة الذين لهم شهرة هناك: كدار الفاضل الأديب الخبير، الذي قلَّ أن يوجد له في فنه نظير، السيد أحمد ابن جلون[594]، فإن الرجل على جانب عظيم من اللطف والأدب والصدق في المعاملة، والجد والحمية الدينية والوطنية، وهو مَلجأ سائر المغاربة لطول مُكثه هناك مدة تنيف على الثلاثين سنة، ورُبي هناك صغيراً وتضلع من لغة القوم وعرف أساليب الحقوق والسياسة، وهو أقدم رجل مغربي هناك، يأخذ بمجامع قلبك، مهما لَقيتَه، لمكارم أخلاقه وحسن أدبه، وهو أفضل رجل لقيته هناك. أما بقية المغاربة الذين وجدت هناك إنما هم نواب عن إخوانهم القدماء، كانوا هناك وربحوا في الحرب الأرباح الكثيرة وبارحوا تلك الديار إلى أوطانهم، وما بقي إلا من كان عندهم من الخدمة مُعمْرين الفضاء.

غريبة وتنبيه

سألتُ في منشيستر عن رجل كنت أسمع عنه كثيراً في الجرائد المصرية، وهو المسمى عبد الله كويلهام[595]، فإنه كان يزعم أنه أسلم ودخل

(593) الخرثي: المقصود هنا متاع البيت وأثاثه الجديد المعروض للبيع. لسان العرب: خرث.

(594) أسرة ابن جلون أسرة كبيرة اشتهر أفرادها بالتجارة داخل المغرب وخارجه. انظر مثلاً: **زهر الآس في بيوتات أهل فاس**: : 1/ 520-559.

(595) محتال مدع وقد كتب عبد الكريم مراد مقالات تفضحه في صحف منها "مصباح الشرق" و"المؤيد": المدرسة الناصرية بفاس: 125.

في الدين الحنيف مختاراً له على سائر الأديان، وأنه قام بواجب الدعوة يدعو إخوانه النجليز للإسلام. فقال لي السيد أحمد ابن جلون المذكور وغيرُه: إن الرجل قد تظاهر بذلك مدة طويلة، وكان يطبع جريدة يُشهر فيها أعماله يوجه بها للآفاق، فتقاطرت عليه الإعانات من أقطار الإسلام، وخصوصاً من أرض الزنوج والهند، وأطمَعهم أنه يبني مسجداً في بلد سكناه في ليفربول[596] وأنه أسلم على يده 500 نفس. قال الراوي: وقد رأيت بعيني نجل ملك الأفغان سلم إليه صُرة ذهب حين جاء البلاد النجليزية. قال: وأخبرني كويلهام المذكور أنها ألف وخمسمائة جنيه لبناء المسجد. قال: ثم إنه تبين أن لا مسجد، وأن المحل الذي اشتراه جعله باسمه على أنه داره ليس بمسجد، وتبين خداعه وأنه لعبة لعبها فأخذ بها أموال المسلمين بباطل من القول لا حقيقة له. وقد ارتكب جناية في شهادة بطلاق امرأة، حيث إن صنعته كان محامياً. ولما رأى عزم الحكومة على القبض عليه فرَّ إلى الأستانة، وهو هناك الآن مُظهراً لنصرانيته، لا علاقة له مع الإسلام، واستأثر بما نهب باسم نشر الدعوة وبناء المسجد. وحُكيَ لي عن اختلاسه حكايات، منها حُجاج انقطعوا من السودان وذهب بهم صاحب مركب إلى أميريكا، ولما رجعوا منها إلى بلاد النجليز ذهبوا عند كويلهام المذكور ليأخذ بيدهم، فكتب إلى تجار منشيستر فجمعوا لهم إعانة أراد كويلهام أن يستأثر بذلك ويترك الحجاج المساكين في انقطاعهم، ولكن ابن جلون المذكور أبى إلاّ دفع الإعانة يداً بيد. فانظر إلى حال المسلمين ينخدعون للكذابين كثيراً، لحسن ظنهم وصفاء طويتهم. فيظنون كل الناس مثلهم. وكم رأيت من انخداع المغاربة والجزائريين لأصحاب الطُرُق فيربحون منهم أموالاً باسم المشيخة، وأين هي المشيخة؟ وإنما هم كذابون، والمشيخة تتبَرّأ منهم براءة الذيب من ولد الأتان[597]. ولولا انخداع المسلمين بالكذابين ما كانت ثورةٌ في بلاد

(596) ليفربول Liverpool تقع على البحر الإيرلندي وعلى نهر Mersey ثاني أكبر ميناء بريطاني: D.E.H: 2/ 751.

(597) إشارة إلى براءة الذيب من دم يوسف في قصة هذا الأخير، يقال: براءة الذيب من دم يوسف، لكن المؤلف وظفها بما يلائم الأحداث التي عاصرها في المغرب تعريضاً بأبي حمارة.

الإسلام، ولا نجحَ قط أبو حمارة[598] ولا أبو عمامة[599] ولا أبو حصيرة[600]، ولا أحد من الدجالين؛ فهذه نصيحتي لإخواني المسلمين.

فارقتُ منشيستر في الساعة 10 2, يوم السبت 2 غشت، وكانت الأمطار غزيرة في أيام حلولي فيها، والبرد كان شديداً مثل أيام مارس عندنا في المغرب، لكن أخبروني أن قبل يوم[601] وصولي كان الحرُّ شديداً، فالهواء هناك شديد التقلب، مُضرٌ بمن فرّط ولم يكن معتاداً له.

عطلة النجليز الصيفية

وفي يوم نهوضي منها كانت عندهم العطلة الصيفية، يُعطلون فيها جميع الأعمال، ويخرجون لمدن السواحل يجعلون هناك نزهة، وتقف فيها حركة التجارة والصناعة، وذلك معروف عندهم كل سنة. والعَمَلة كلهم تبقى لهم أجورهم وهم[602] معطّلون لها، ويكون لهم فرح عظيم ونشاط كبير بالحرارة التي يفقدونها جل أيام السنة، وهذا شيء عمومي[603] في بلاد النجليز كلها.

بعد مفارقتي منشيستر كان رجوعي إلى لندرة عن طريق ستوكطبوط[604] إلى كريو[605] إلى ستوفورد[606] إلى برمنكام[607] التي لها الشهرة المعلومة في

---

(598) سبق التعريف به.

(599) أحد الثوار الذي سرعوا احتلال المغرب كسابقه الذي تحالف معه سنة 1904 توفي سنة 1908. انظر ترجمته بتفصيل في: **أعلام المغرب العربي**: 2/ 72-93.

(600) اسمه عبد القادر العتيكي ثائر كسابقيه. انظر: **انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره، دواعي الإصلاح والتنظيم**: 151-/ 154.

(601) كلمة ساقطة لدى س.

(602) كلمة ساقطة لدى ص.

(603) يقصد عام.

(604) سطوكطبوك Stockport سبق التعريف بها ص 145.

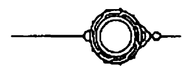
(605) كريو: Crewe.

(606) ستوفورد: Stafford مدينة صناعية تقع شمال Birmingham: D.E.H: 3/ 1208.

(607) برمنكام: Birmingham، مركز صناعي كبير .المصدر السابق: 1/ 138.

العالم بمعادنها الحديدية ومعادن الفحم الحجري، ومعاملها الكثيرة التي فاقت غيرَها والتي تبيع المعامل للآفاق كثيرة، وتبيع الفحم والحديد للكثير من الأقطار الأوربية والإفريقية والأسيوية. ومن برمنكام إلى ركبي[608] إلى نورتافتون[609] إلى إيشتون[610]، إلى واتفورد[611]، إلى لندرة. وكان حلولي في لندرة الساعة 45 6, أقمت فيها ليلتين ونزلت في فندق في محطة فكتوريا، وتقدم لنا وصفه.

وفي يوم الاثنين، في الساعة 7 صباحاً، سافرت من لندرة إلى فولكسطون، وبعد انفصالنا من محطة فكتوريا، التي هي طبعاً بأطراف البلد، بقينا نسير مسرعين ربع ساعة في القطار بين الأبنية المتصلة من دور ومخازين، ونحن تارة نعلو فوقها فتظهر تحتنا، ونحن نتفرج في السكان خارجين صباحاً من منازلهم كالنمل، وتارة تذهب بنا تحت الأرض، وكلها مدينة واحدة. ثم بعد ربع ساعة خرجنا إلى البادية التي لو كانت في المغرب لعددناها خير حاضرة، لكثرة الأبنية والمنازل، غير أنها ليست متصلة، وهي في أرض جميلة خضراء، لا ترى فيها غبراء ولا شهباء، إلى أن وصلنا إلى فولكسطون، وتقدم لنا وصفها. ومنها ركبنا في يومنا إلى باريز، فوصلنا في الساعة 5 عشية، ونزلنا في فندق الرويل هوتيل[612].



اجتماعي بأعيان السودان المصري

لما ركبتُ البحر من فولكسطون إلى بولون، وجدت في الباخرة وفد السودان المصري الذي استقدَمَه النجليز لحضور احتفال عيد النصر لمثل مأموريتنا. وبمجرد أن وقع بصرهم عليّ رغبوا في الاجتماع بي، ورغبت أنا كذلك. وقد اجتمعتُ بهم وتذاكرت معهم، فوجدتهم سادة السودان ومن

---

(608) سبق التعريف بها ص 144.

(609) نورتافتون: Northampton مدينة صناعية تقع بوسط انجلترا: D.E.H: 2/ 899.

(610) إيشتون: Eston.

(611) واتفورد: Watford.

(612) الرويل هوتيل: Royal Hotel.

نخبة رجاله وأعيانه. وها أنا أذكر لك أسماء من دُعي رسمياً للاحتفال، مع بيان وظائفهم.

1 ـ الشيخ سيدي أبو القاسم أحمد هاشم، شيخ علماء[613] السودان المصري: عليه جلالة العلم والوقار وهيبة المكانة والاعتبار. عالم كبير وشاعر شهير.

2 ـ أخوه الشيخ سيدي الطيب أحمد هاشم، شيخ المفتين، كذلك مشارك له في صفاته.

3 ـ سيدي إسماعيل الأزهري: قاضي دارفور كذلك.

4 ـ سيدي علي المرغاني، شيخ الطريقة المرغانية وشريف من أعاظم السودان ونقيب الأشراف.

5 ـ الشريف سيدي يوسف الهندي، شيخ طريقة.

6 ـ سيدي عبد الرحمن بن الإمام محمد أحمد المهدي الذي كان أمير السودان[614]: له احترام واعتبار.

7 ـ الشيخ إبراهيم فرحة، شيخ قبيلة جعليين[615].

---

(613) لدى س "عطاء".

. نعى مذياع لندرة هذا السيد الذي بالغ في مدحه وأهم ما ذكر له هذه الرحلة التي ذهب لها صحبة هذا الوفد لتهنئة ملك النجليز بالنصر. وكانت وفاته بالسودان، الذي هو وطنه، يوم الأحد 19 ذي الحجة سنة 1361[3]. وذكر أنه بمجرد إشهار الحرب الحالية الألمانية 1939 عرض على الحكومة الإغاثة بكل ما كان في إمكانه رحمه الله. قال المذيع، وهو الشيخ جمعة المصري، إنه كان أعرف الناس بأنساب قبائل السودان وأحوالهم. تغمده الله برحمته الواسعة التي وسعت كل شيء. (هامش للمؤلف الحجوي).

(3) موافق 28 دجنبر 1943. وهذا يعني أن المؤلف أضاف هذا الهامش في هذا التاريخ أو بعده والحرب العالمية الثانية قائمة .

(614) انظر في شأن محمد أحمد المهدي: الأعلام: 6/ 20.

(615) قبيلة الجعليين: من أشهر قبائل العرب في السودان تقيم على شواطئ النيل الكبير .معجم قبائل العرب القديمة والحديثة: 1/ 196.

8 ـ الشيخ علي التوم، ناظر قبيلة كبابيش عرب الجهة الغربية[616].

9 ـ الشيخ عوض الكريم أبو السن شيخ قبيلة الشكرية[617].

10 ـ الشيخ إبراهيم موسى، ناظر قبيلة الهدنداوة[618] عرب الجهة الشرقية.

فهؤلاء رسميون، ومعهم بعض أعيان غير رسميين من الفضلاء: منهم الشيخ جعفر أحمد شرفي التاجر بأم درمان، والده أحد وزراء المهدي. ومنهم الشيخ حسن شريف، ابن بنت المهدي، وغيرهم.

فلما دخلتُ البيت الذي كانوا فيه قاموا إلي، على عادة المصريين، وهشوا وبشوا بفصاحة لسان، وطلاقة وجه وثبات جَنان، وأجلسوني بينهم[619] كأخ مع إخوانه، وحصل لهم فرح عظيم بالاجتماع بي مثل ما حصل لي بهم، وهم في لطف لقائهم وحسن سلامهم كالمصريين والتونسيين: أدب لائق، وترحيب وإجلال فائق، يلوح على سيماهم الخير، وعلى لسانهم الفصاحة والأدب اللذان هما نتيجة العلم والتربية الحسنة. وبمجرد استقرار المجلس سألوني عن إخوانهم المغاربة وأحوال المسلمين، فأخبرتُهم بحسن الأحوال وتقدم البلاد، منذ احتلال افرانسا، في مدارج الأمن والعافية والسلامة[620] من مصايب الحرب التي عضّتْ غيرَنا فأدمَتْ أطراف الممالك. فحمدوا الله على ذلك وأخبروني بمثله عن أحوال بلادهم؛ وسألوني هل أعطيتم عسكراً للمحاربَة؟ فقلت: نعم، لكن لم يذهب أحد

---

(616) قبيلة الكبابيش: من أشهر قبائل العرب في بادية كردوفان بالسودان .المصدر السابق: 3/ 976.

(617) قبيلة الشكرية: من أقوى وأشهر قبائل العرب البادية في الباطنة بالسودان فيها تسعون فخذاً ونيف .المصدر السابق: 2/ 603.

(618) قبيلة الهدنداوة: لعله يقصد قبيلة الهنادي وجمعها بصيغة الجمع العامية، والهنادي قبيلتان :قيمان بمصر وبالصحراء الغربية .المصدر السابق: 3/ 1228.

(619) لدى س "معهم".

(620) يشي كلام المؤلف بتعامله مع المستعمر الفرنسي، وهو أمر سيعرض نتاجه الفكري للإهمال بعد الاستقلال.

رسمياً جبراً، وإنما من شاء تطوعاً[621]. فقالوا: أما نحن فما ذهب من السودان أحد، وسألوني عن مصارفة افرانسا معها، وهل تحترم مساجدنا. فقلت: نعم، إن افرانسا معلوم ذلك منها طبعاً، فهي أكثر الدول مسامحة في ذلك لعدم تعصبها للأديان، بل تترك الحرية التامة[622] لأهلها. وما رأينا منها إلا اعتناءً بمساجدنا وصيانة لها أكثر مما كانت، وصانت الأحباس ونظمت إدارتها ولا زالت سائرة في ذلك سيراً حثيثاً.

ولما رأيتُ التفاتَ بعضهم لبعض علمت أنه بلغهم خلافُ ذلك، فأكدتُ لهم الخبر وقلت: إني أكلمكم بكل حرية في هذا الأمر، فإني الآن لست في افرانسا ولا في المغرب، بل في مركب إنجليزي في بحر المانش، ولست موظفاً أخاف على وظيف، ولا حضر هنا من أراقبه مثلاً، وما كان معنا إلاّ الترجمان الإنجليزي المكلف بوفدهم، فقلت لهم: إني أحقق لكم ذلك. واسْتخبرتُهم عن أحوال قُطرهم وأحوال إخواننا السودانيين، فطلبوا مني أن أُعَرفَ أهلَ المغرب بأحوالهم بإيضاح، فإنه بلَغهم أن المغاربة يعتقدون أنهم زنوج سودانيون متوحشون، والحال أن السواد الأعظم من أهل السودان المصري عرب صرحاء فيهم كثير من بيوتات الشرف والمجد، ولا زال نَسبهم محفوظاً إلى الآن ينقُل قَعْدَدَه[623] خلَفُهم عن سلفهم، لم يدخلهم تغيير ولا هُجنة، ولسانهم عربي لا يعرفون الزنجية إلاّ قليل منهم، والزنوج الأصليون هم سكان الصحاري والجبال السحيقة، ويعرف الزنجية من يجاورهم من قبائل العرب. وقالوا: حتى عوائدنا كعوائد العرب العُرَباء قبل البعثة في مجتمعاتهم واحتفالاتهم وولائمهم[624] وجل أحوالهم إلاّ ما كان من أهل المدن الذين دخل بعضَهم رفاهية التمدن اليسير.

وقد رأيت لباس هؤلاء السادة كلباس علماء مصر والحرَمين تقريباً:

---

(621) هذا ما كانت تزعمه فرنسا وتروج له في الظاهر.

(622) لدى س "العامة".

(623) يعني ينقل تَسَلْسُله مقعْداً أي مُحكماً.

(624) لدى س "وولائمهم".

بالجُبّة الطويلة الضيقة الكُمّين طويلة الأكمام وبالعمائم. فبعضهم يجعلها فوق قلنسوة عَزف مُزوَّقة، كما يفعل علماء الحرمين، وبعضهم فوق قلنسوة كتان، والكل إسلام، ولا توجد الوثنية إلاّ في شواهق الجبال وشاسع الصحاري، وعلى مذهب مالك ابن أنس: سنيون أشعريون لهم ولوع بالطرق والأوراد الشاذلية[625] وغيرها. فيهم علماء وشعراء وكُتاب وفطاحل رجال في العلم والسياسة. ثم قال لي بعضهم: إن العرب دخلوا السودان المصري في القرن السادس الهجري من ثلاث جهات، وهو التاريخ الذي دخلوا فيه إلى إفريقيا، دخلوه من جهة مصر والحبشة وفُزان[626] في أرض طرابلس الغرب في زمن الفاطميين أمراء مصر. أما من كان دخل في زمن عمرو بن العاص، حوالي سنة 20 هـ، فكانوا جنداً فاتحين قليلين وما وصلوا إلى ضفاف النيل، وكانوا يُسمون الفُنْك (بالكاف المعقودة)[627].

سؤال وفد السودان عن أحوال المغرب من حيث العلوم العصرية

سألني بعضهم: هل فُتحت مدارس في المغرب لِتلَقّي العلوم الوقتية المتعين على عموم الأمة الإسلامية طلبُها، وهي ضالة الإسلام المنشودة، وبدونها لا يُرجى خير للإسلام، فأخبرْتُهم بأني أول من تولى مندوب الصدر الأعظم في وزارة المعارف، وأني بذلت مجهوداً كبيراً بالخطب على العموم[628] في كثير من المناسبات، وفي دروسي الحديثية والتفسيرية وغيرها، وفي

(625) نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي (-656 هـ) شيخ الطريقة الصوفية المشهورة، سمي نسبة لشاذلة بتونس .الأعلام: 5/ 120.

(626) فزان: ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب، يقال إنها سميت بفزان بن نوح عليه السلام .معجم البلدان، ياقوت الحموي: 4/ 260.

(627) الفنك: الفونج: ورد ذكرهم في معجم قبائل العرب: دخلوا في حروب مستمرة مع الجمليين .معجم قبائل العرب القديمة والحديثة: 2/ 196.

(628) تولى المؤلف منصب نائب الصدر الأعظم في وزارة العلوم والمعارف بعد فرض الحماية على المغرب 1912، وقد ألغي هذا المنصب لفترة قبل أن يعاد ويسند إليه من جديد .محمد بن الحسن الحجوي والحماية: 216-217؛ معجم المطبوعات المغربية: 96.

توالیفي حتى حصل الإقبال في الجملة على هذه العلوم[629]. ولكن أغلب الأمة، تقريباً، لا زال نافراً منها، لم يقع عليها الإقبال المطلوب، مع أن الدولة الحامية تبالغ مجهودها في فتح المدارس وتشويق الناس إليها بواسطة عقلاء الأمة الذين فهموا أهمية المسألة، وفُتحت عندنا في كل المدن عدة مدارس، ولا زالت تنمو وتزيد لولا الحرب الماضية لكان أكثر. وأملنا عظيم في النجاح وبلوغ المرام. فقالوا: إن السودانيين قد أدركوا أهمية العلوم العصرية وأقبل عليها جمهور الأمة، وقد فُتحت عندهم ما ينيف عن الستين مدرسة. وعندهم في الخرطوم، الذي هو عاصمة البلاد، مدرسة كلية جامعة للعلوم العصرية والعربية معاً، فيتخرج منها القضاة والعدول والمدَرّسون في العلوم العربية وغيرها، ويتخرج منها المهندسون والتراجمة والموظفون في الوظائف العالية. وجل المعلمين في المدَارِس هم الآن من السودانيين وقليل من المصريين، لا نحتاج إلى جلب المدَرّسين للعلوم العصرية من جهات أجنبية، بل عندنا مديرون ومفتشون للمدارس، بل للمعارف من نفس السودانيين أكفاءُ لما هم فيه، نعم، عندنا مدرسون من النجليزيين يُعلمون لغتهم، وفي التعليم الانتهائي للعلوم الرياضية والطبيعية، وكل العلوم تُتلقى عندهم بالعربية: رياضية وطبيعية، واللغة النجليزية لها دروس مخصوصة. وقد تجنبوا في مدارسهم الطبيعيات العقلية[630] التي تمس بالعقائد، إذ ليست لها أهمية كبرى في الترقي الحاضر، إذ مَدارهُ على العمل لما يخشون من فساد اعتقاد الأولاد، ولعدم وجود كتب لها منقحة من كل ما يفسد عقائد المتعلمين، وحين توجد الكتب المنقحة يصير تدريسها عندهم قال: فالتلاميذ كلهم يتخرجون من المدارس متدينين معتقدين. وهم مُجدون أن يفتحوا مدرسة طِبيَّة ومدارس أخرى لما لأهل القطر من الإقبال على العِلم؛ وعندهم

(629) من مؤلفات الحجوي في هذا الإطار: تعليم المرأة تعليماً عربياً ابتدائياً، محاضرة ألقاها بالرباط وطبعت بتونس، ومحاضرات وكتب أخرى بقيت مخطوطة منها: "نقد التعليم الابتدائي"، "أصول التربية عند المسلمين"، وغيرها .مختصر العروة الوثقى، فهرست: 70.

(630) يقصد الفلسفة.

مطابع لطبع الكتب والجرائد[631]، ولهم أربعة جرائد عربية: "**رائد السودان**"، "**حضارة السودان**"، "**السودان**"، والرابعة - وهي الرسمية - "**غازيت سودان**[632]"، تطبع باللغتين العربية والنجليزية، وتكون فيها ميزانية مالية السودان كل سنة مبينة مفصلة. وعندهم في إدارات البلاد نظام خاص يقرب من نظام مصر، فعندهم قلم التشريع، الذي هو كمجلس شورى القوانين بمصر أعضاؤه 8: منهم 5 إنجليزيون و3 مسلمون، أحدهم رئيس العدلية الإسلامية وهو قاضي القضاة، فلا يصدر أي قانون أو ضابط في القطر إلاّ بموافقتهم عليه؛ وكذلك في الجنايات لهم مجلس أعلى.

القانون الذي يتمشون عليه في السودان هو القانون الهندي، لكنه هُذّب وأُصلحت منه[633] مواد لتوافق مصلحة البلاد. وفي كل المدن[634] لهم مجالس بلدية حرة تمام الحرية. قالوا: وأرضهم في غاية الخصب تنبت فيها الحبوب وكثير من الثمار، وعندهم الأمطار غزيرة زيادة عن النيل الذي يخترق أرضهم، وفي الغالب لا يحتاجون إلى سقيه لكثرة[635] الأمطار التي تكون عندهم صيفاً وخريفا.

وتوجد عندهم معادن، والسكك الحديدية مخترقةً البلاد طولاً وعرضاً. قالوا: وعندنا في أم درمان، التي هي قسم من الخرطوم، معهد ديني عظيم مثل القرويين[636] عندكم والأزهر في مصر، فتُلقى فيه العلوم الدينية وإنها عندهم في تقدم وازدياد. ويوجد عندهم مدّرسون كثيرون وتلاميذ عديدون، كما توجد معاهد أخرى في بقية المدن، ولهم رواتب كافية يتقاضونها تكفيهم.

---

(631) كذا، وواضح أن حق العدد هنا التذكير.

(632) رائد السودان: بدأ صدورها قبل الحرب العالمية الأولى، السودان: بدأ صدورها سنة 1904، غازيت سودان: الغازيتة السودانية بدأ صدورها سنة 1889، أما حضارة السودان فالظن أنه يقصد "سودان هرالد". الصحافة العربية، نشأتها تطورها، أديب مروة: 225-226.

(633) لدى س: "فيه".

(634) لدى س "البلاد".

(635) لدى س "الكثير".

(636) بنيت جامعة القرويين سنة 245 هـ .جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس: 52؛ جني الآس في بناء مدينة فاس: 1/ 46-47.

والأحكام الشرعية راجعة للقضاة، والتجارية لمجلس التجارة، والجنايات لمجلس الجنايات كما في مصر. وسألتُهم عن الكتب التي يدرسونها في المسجد الأعظم بأم درمان وفي غيره، فذكروا "[637] وشروحه، و"[638] و"تلخيص القزويني"[639] و"جمع الجوامع"[640] وغير ذلك من التآليف مثل ما في القرويين، فسُرّ كلٌ منا بما سمع من صاحبه، فقلت لهم: سبحان الله، إن الأفكار النجليزية مشابهة للأفكار الفرنساوية، الكل يبحث عن المحافظة على الأمن والارتقاء، وانتشار العلم والتقدم، لا يتعرضون لدين أحد ولا يوذون إلاّ من يريد إقلاق الراحة وشبوب نار الفتن أو عصيان القانون، لا غرض لهم فيما سوى ذلك. وإن المغرب على مثل الحال التي أخبرتُم بها.

ثم إن الوقت كان ضيقاً لم يمكننا أن نزيد في المذاكرة، إذ مدة ركوبنا من فولكسطون إلى بولون كلها كانت نحو ساعة ونصف قضيناها في هذه المذاكرة التي كانت أشهى للنفس من الراحة للعليل، ومن إغفاء الساهر في الليل الطويل. وما شعرنا إلاّ والمركب واقف ببولون، ولما نزلناها وانتقلنا للسكة الحديدية افترقنا، وقد ذهبوا إلى باريز، ومنه إلى مارسيليا لركوب البحر إلى مصر، ثم منه إلى بلادهم، أصْحَبَهُمْ الله السلامة وإيانا جميعاً.

ثم لما وصلت باريز أقمتُ هناك يومين لقضاء بعض المآرب وتوجهت إلى مارسيليا، فكان نهوضي من باريز صبيحة الأربعاء، الساعة 7.

وداع باريز

وداعاً لك يا باريز، رغماً عنا ودَّعناها[641] والقلوبَ أوْدَعناها وأسفنا لفراقها أسَفِ مُحِبٍّ فارق حبيبه. فارقناها وأي طبع لطيف يقوى على فراقها، بارَحناها وأي أحد يحب الجمال يقول بمبارحتها بعدما اجتمعت الألسن على

(637) مختصر خليل، المتوفى سنة 776 هـ، وهو عمدة المالكية في الفقه.
(638) ألفية ابن مالك المشهورة، لابن مالك بن هشام المتوفى سنة 761 هـ.
(639) تلخيص مفتاح العلوم للسكاكي، لخصه عبد الرحمن القزويني المتوفى سنة 729 هـ.
(640) جمع الجوامع للتاج السبكي المتوفى سنة 771 هـ.
(641) كلمة ساقطة لدى س.

مدحها والقلوب على حبها؟ (وافر)

أُودِّعكم وأودِعُكم جَناني   وأنثُر أدمُعاً مِثلَ الجُمانِ
فلو نُعطى الخيار لما افترقنا   ولكنْ لا خيارَ مع الزمانِ[642]

وقد خرج معنا واديها، لاسين[643]، يودعنا منساباً معنا انسياب الأفعى في بسيط رُصع من ياقوت أخضر، وعليه أغصان باسقة، عليها أطيار ناطقة، وأغراس متناسقة، بينها مياه متدفقة. وكان الجو معتدلاً مائلاً للبرودة، فقطعنا نصف النهار كأننا في جنة نعيم، والقطار يسير رَمَلاً وخَبباً[644]، ولهيب الأسى ما خبا، وقلوبنا تذوب لفراق باريز وواديه وحاضِرِيه وباديه.

ولما كانت الساعة 2/1 12,، دخلنا في نفَق جبل عظيم مشى فيه القطار بمهل فقطعه في 10 دقائق. وهناك ودّعْنا البرودة، بل والاعتدال، وانتقلنا للجهة الجنوبية من أرض افرانسا التي هي أكثر حرارة من الجهة الشمالية، فوجدنا السماء مُصحية، والجوُّ صافياً جافاً، وبرزت الغزالة[645] في أثوابها الذهبية. ففي أول الأمر تلقيناها بغاية الفرح، كما يتلقى المبرودُ كانونَ الوقود، وكنا نستحسن منظرها متعرضين لأشعتها، فما كان إلاّ كلمح البصر أو أقرب، حتى ملَلْناها وسئمنا وقودها، بل ثقل علينا شعاعها، واستقذَرْنا لُعابَها، وألقينا علينا من الثياب الشِّعار[646] بعد الدثار[647]، وجعلت الجباه تتقطر عرَقاً، والقلوب تتفطر حرقاً، فسبحان من لا يتغير.

وقد مررنا في طريقنا هذه بعدة قرى ومزارع وحقول وأشجار وغابات،

---

(642) نسب البيتان لتاج الدين محاسن في سلطان الغرام وقد ينسبان للقاضي عبد الوهاب ولابن رشيد.

(643) La seine.

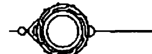
(644) الرمَل: الهرولة: سير دون المشي وفوق العدو. والخبب: سرعة السير ومنهما اشتق اسما البحرين الخليليين المعروفين. لسان العرب: رمل- خبب.

(645) الغزالة: من أسماء الشمس .المصدر السابق: غزل.

(646) الشعار: ما ولِيَ جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب .المصدر السابق: شعر.

(647) الدثار: الثوب الذي يُستدفأ به فوق الشعار المذكور سابقاً .المصدر السابق: دثر.

ومياه غزيرة إلاّ أن مناظر هذه الجهة قريبة من مناظر المغرب لتقارب درجة الحرارة، إذ صرنا نرى الزرع المحصود يابساً، والثمار ظاهرة النضج، والجنادِب[648] ذاتَ ثجٍّ وعَجٍ[649].



مدينة ليون وآثار[650] الإسلام فيها

وفي الساعة 2/1 5, عشية، وصلنا إلى مدينة ليون، إحدى المدن الفرنساوية الشهيرة بمعامل الحرير، وهي مدينة عظيمة مبنية على ضفة وادي كبير، عليه عدة قناطر ظهرت منها ثلاثة، واحدة مررنا عليها، وأخرى قربها محمولة على حبال الحديد من غير بناء تحت الحبال ولا أقواس. وتقدم لنا في رحلة تونس[651] في السنة الماضية، وصف واحدة من هذا النوع، رأيتها في قسمطينة، وأخرى على وادي أم الربيع[652] بطريق مراكش، وأعظم الثلاثة قنطرة قسمطينة[653]. ورأيت عن بعد قنطرة أخرى على أقواس حجرية، بعيدة من المحطة، وأخرى ذات سبعة أقواس وغيرها، حاصِله سبع قناطر رأيتها.

وفي البلد حركة تجارية عظمى، يدل على ذلك كثرة طرق المواصلة فيها، حتى إنه يوجد في محطتها الترامواي، حيث لم يكتفوا بقطارات البخار بل زادوا طريق الميطرو الموجودة هناك في المحطة تحت الأرض تمشي بالكهرباء أيضاً، مثل ما تقدم وصفه في باريز ولندرة. وهي هنا لها محطات

(648) الجنادب: ج جندب: ذكر الجراد .المصدر السابق: جدب.

(649) الثّجّ: الصبُّ الكثير، والعجُّ رفع الصوت صياحاً .المصدر السابق: ثجج- عجج.

(650) ليون Lyon مدينة فرنسية ذات موقع استراتيجي بين البحر المتوسط وحوض باريس وألمانيا، كانت عاصمة في العصور القديمة، كان له دور كبير في تاريخ فرنسا: D.E.H: 2/ 767.

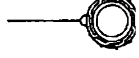
(651) قام المؤلف بثلاث رحلات إلى تونس 1918-1921-1925، لخصها جميعاً في كتاب "حديث الأنس عن تونس" .العروة الوثقى: 74؛ دليل مؤرخ المغرب الأقصى: 2/ 339. وهو كتاب مفقود.

(652) أم الربيع: نهر بالمغرب يمر بمدينة أزمور قرب مدينة الجديدة .الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة المدن والقبائل: 50.

(653) العبارة من "وأخرى على" إلى "قسمطينة" ساقطة لدى س.

في المحطة الحديدية، مهما نزل الإنسان من السكة البخارية نزل إليها في درج وركب تحت الأرض وذهب لأي جهة شاء من جهات المدينة. هذا زيادة عما هناك من الأتومبيلات السيارة والحوافل ذات الحوافر. وفي الوادي زوارق تذهب حاملة وترجع حاملة، وكل ذلك يدلك على عظمة التجارة بهذه المدينة.

ثم المحطة الحديدية من المحطات المهمة، عليها قبة زجاجية عظيمة. وفي المدينة ما في أمثالها من القصور الفخيمة والدور المُنَمَّقة ذات سبع طبقات وأقل، كدار البلدية وغيرها، فلا نطيل بذلك. وفيها مناسج الحرير الكبرى التي تبعث بمنسوجها إلى الأقطار البعيدة، فهي بمنزلة منشيستر في لندرة التي تُوَرِّد الكتان إلى كثير من البلدان، ولكن ليس الحرير كالكتان وليس نسج داود كالعنكبوت[654].



بناء الطابيا[655] في ليون، لعله من آثار الإسلام

عجبتُ منه في ليون، والتفتُّ إليه بنوع خاص، وجودُ بناء الطابيا المعروف عندنا في المغرب، فإنه يوجد شيء منه في ليون وفي ضواحيها كثير، كأن أبنيتها بناء مراكش ووجدة. وما رأيت ذلك في بلاد افرانسا وانكلاتيرة إلاّ بهذه المدينة وضواحيها وفي بواديها. والغالب على ظني أن ذلك من بقايا العرب الذين دخلوا هذه النواحي وفتحوها[656] على عهد الدولة المروانية والعامرية في الأندلس. ولعل هذا الشكل في البناء بقي من عملهم.

كما أن سكان هذه الجهة الجنوبية يوجد فيهم كثير من النسل العربي

(654) يشير إلى قوله تعالى{وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين، وعلمناه صنعة لبوس لكم ليحصنكم من بأسكم، فهل أنتم تشكرون .}الأنبياء: 78-79.

(655) نوع من البناء سائد بالمغرب تقوم مادته على حجارة دقيقة مرصوصة بالجير. وتتم عملية البناء بين ألواح خشبية تنصب على جانبي الجدار ثم تُزال بعد ذلك. أسماء الجزف المعروفة في مدينة فاس، عبد القادر زمامة ضمن: متنوعات محمد الفاسي: 99. ويسمى أيضاً بناء اللوح.

(656) لدى س "وما".

والإصباني، ويظهر ذلك في ألوانهم وشعورهم. فأهل الجهة الجنوبية من افرانسا شَعرهم أسود ولونهم أشد حمرة من أهل الشمال، وشعور أهل الشمال تميل للشقرة. وفي عيون أهل الجنوب سواد لا يوجد في أهل الشمال. وأيضاً جهة الشمال أبرد من الجنوب، لكن أشكال السكان تدل على قربهم من الشكل العربي المغربي.

مرسيليا[657]

وصلنا إلى مرسيليا في الساعة 2/1 1, من ليلة الخميس، ونزلت في فندق جنيف، قبالة البورصة من جهة البحر، وهو نزل جيد[658] من حيث البناء لكن خَدَمته سْوسريون[659]، معاملتهم غير حسنة. على أن أهل مرسيليا، عموماً، أخلاقهم دون أخلاق أهل باريس، وإن شئت فَقُلْ دون أخلاق الفرنساويين لاختلاطهم بالغرباء كثيراً.

مرسيليا أول مرسى تجارية فرانساوية، وإن شئتَ فقُل هي أعظم مرسى تجاري على البحر الأبيض المتوسط، وأول مدينة فرنسوية في حركة التجارة، وهي نقطة المواصلة بين افرانسا ومستعمراتها الإفريقية التي هي أهم مستعمراتها، خصوصاً تونس والجزائر وبعض مراسي المغرب. وهي ثاني مدينة فرانساوية[660] في العمارة وكثرة السكان.

مرساها خليج أمين للغاية، ففي وسط البلد مرسى قديم تاريخه ألفان وخمسمائة وثلاثون سنة، لأن مرسيليا من أقدم المدن الفرنسوية[4]. وهو خليج مربع دخل من البحر في أول البلد، يحيط به البرّ من جهاته الثلاث، إلاّ منفذ ضيق تدخل منه المراكب، وتحيط به الديار والمخازن. وهذا الخليج الآن لا تدخله المراكب الكبار البخارية، لكن تدخله مراكب الصيد

---

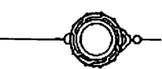
(657) انظر مثلاً: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: 2/ 237.

(658) مرسيليا: ثاني أكبر مدن فرنسا وأكبر موانئها التجارية، تقع على البحر المتوسط/2 :D.E.H . 797.

(659) لدى س: "بعيد".

(660) سوسريون: .Suisses

والشراعية. وقد مَدوا من هذا الخليج بعض خُلجان صغرى على هيأة الأودية للزوارق ويصطادون منها الحوت[661].



قنطرة بحرية متحركة

من أعجب ما يُرى في مرسيليا هذه القنطرة الغريبة الصنع، وذلك أنه عند مَنفذ الخليج الكبير السابق من جهة البحر، جعلوا قنطرة معلقة في أسلاك معدنية غليظة، وتلك الأسلاك مربوطة في قنطرة حديدية عالية عُلقت فيها عجلات رُبطت فيها الأسلاك التي عُلقت فيها القنطرة المتحركة. ثم إن القنطرة الحديدية العليا محمولة على ساريتين حديديتين هائلتين، واحدة مرتكزة على ضفة الخليج اليمنى والأخرى على الضفة اليسرى، ثم العجلات الملاصقة للقنطرة العليا التي علقت فيها الأسلاك تماسُ سلكاً مُكَهْرَباً، فإذا أرادوا تحريك القنطرة السفلى ضغطوا على العجلات بآلة هي بيد رجل في الضفة اليمنى وآخر في اليسرى، ذاهبة آيبة بقوة كهرباء الأسلاك، وهي من أغرب ما يُرى. ركبنا فيها بأجر زهيد، خمس سنتيمات لكل راكب، ومعنا أتومبيلان كارّو[662]حاملة الأثقال. ولقد اندهشتُ من ثقل ما كان محمولاً فيها، مع كونها معلقة في الجو إلى علو شاهق، وإنما جعلوها متحركة لِئلا تعوقَ المراكبَ عن المرور من المنفذ إلى داخل الخليج أو خارجه.

وفي مرسيليا مرفأ صناعي أعظم من هذا وأوسع، يسع المئين من المراكب، ووراءه مرفأ آخر أوسع منه. فلقد ركبت في بابور "عبدة"[663]، من كبانية باكي[664]. فلما أقلع بنا من المرفأ الداخلي، كانت المدة في قطعه

(661) أسست في القرن VI قبل الميلاد: .D.E.H: 2/ 797

(662) الحوت: يقصد السمك «والمشارقة يخصصون هذه اللفظة للحوت الكبير أما المغاربة فإنهم لا يستعملون إلا الحوت للنوعين ولا يقولون في مخاطباتهم السمك مطلقاً» .الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية: هـ 21.

(663) كارّو: عربة مجرورة بالحيوانات، كما يطلق عليها كروصة من الإسبانية Caroza ويعني هنا شاحنة صغيرة لحمل البضائع.

(664) سميت الباخرة "عبدة" باسم منطقة عبدة المغربية الواقعة وسط البلاد حاضرتها مدينة آسفي. الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة المدن والقبائل: 309.

المرفأ الأول والثاني خمسين دقيقة، لكن بنصف قوته البخارية. وإنَّ هذا المرفأ لمن أعظم وأضخم المرافئ، عليه مخازن عظيمة مما يلي البلد، ولا زالت الخِدمة جادة في إتمام عمل المرفإ الخارجي الذي هو وراء الداخلي.

وعند انتهاء المرفإ الداخلي قنطرة حديدية من أعجب ما يُستغرب، وذلك أن المرفأ الداخلي، الذي هو عبارة عن خليج على هيأة صهريج عظيم مُحاط برصيف مبني من حجر وسيمان[665]، في غاية الإحكام والإتقان لأنه يدافع تيار البحر عن الخليج. وما أبقوا لهذا الخليج إلاّ منفذاً واحداً تدخُل منه المراكب، لكنه ضيق فلا يسع إلاّ مركبين عظيمتين، واحداً ذاهباً وآخر آيباً. فجعلوا في وسط هذا المنفذ دَكَّة[666] مبنية بناء متيناً في وسط الماء، وركَّبوا عليها قنطرة حديد طويلة على قدر المنفذ مرتكزة على تلك الدكة، فإذا كانت مركب داخلة أو خارجة أداروا القنطرة بآلة حديد مرتكزة[667] في وسطها فوق الدكة فدارتْ بكل سهولة. وبعد مرور المركب ترجع القنطرة لمحلها يمر عليها الناس من ضفة هذا الرصيف إلى ذاك. وعند تركيبها يتصل الرصيف فلا يبقى للخليج منفذ ولا يمر مركب إلاّ بعد تحريك القنطرة لفتح الطريق. فالقنطرة إذا رُكبت على الرصيف رَسمتْ خطاً من الشرق إلى الغرب، فإذا أدارها المكلَّف بها صارت تتباعد عن الخط الذي كانت راسمة له، ثم رسمت له خطاً من الجنوب إلى الشمال.

ثم بانفصالها عن المرفإ في الساعة الخامسة عشية، انفصلنا عن أرض أوروبا واستقبلْنا الوطنُ العزيز بصدور مَلاها الشوق، وقلوب حنَّت إليه حنين الرضيع إلى أمه، والجِذع إلى خير البشر عليه السلام[668]. استقبلناه بوجوه باسمة مستبشرة، وأفئدة ملؤها الأمل بجمع الشمل ومشاهدة الأهل. فلو مُثِّلتْ أشواقُنا في العالم الحسي لما مُثِّلتْ إلاّ بأجنحة تطير بنا إلى أهلنا،

---

(665) كبانية: .Compagnic وشركة باكي الملاحية: Paquet، وقفت على إشهار منتوجاتها في جريدة السعادة: 1/ 9/ 1938 وما يليها من الأعداد.

(666) سيمان: الإسمنت: .Ciment

(667) الدكة: بناء مرتفع قليلاً عن الأرض يسطح أعلاه. لسان العرب: دكك.

(668) لدى س "متركزة".

لسآمتنا من الاغتراب وذهاب ذَهَب الجيوب في المصارف الباهظة لغلاء كل شيء، إلاّ الخبز، وفراغ المخازن الأوروبية من البضائع، فما وجدنا ما نشتري للتجارة لا في افرانسا ولا في انكلاتيرة، وإنما بعض الديار[669] قَاوَلَتْنا[670] بتوجيه شيء من البضاعة بعد ستة أشهر ونحوها. وصرفتُ كثيراً مما صحبتُه معي للتجارة في مصارف السفر والباقي رددتُه، وما اشتريت للتجارة إلاّ قليلاً لا يُسمن ولا يغني، والأسوام[671] زادت عما كانت عليه في الحرب في كثير من الأشياء، مع أن العالَم كان يظن خلافَ ذلك. ولذلك كانت البضاعة وقع فيها نزول عظيم عند إمضاء شروط الهدنة.

ولفقدان المتاجر[672] أسباب أهمها في هذا الوقت اعتصاب[673] العَمَلة وسريان الأفكار البولشفكية[674] للطبقة السفلى من العامة، يريدون مساواة العَمَلة مع أصحاب المعامل في الأرباح فيعتصبون ويمتنعون عن العمل، يدّعون غلاء المعيشة فيلبي أصحاب المعامل طلبهم ويزيدونهم في الأجور وينقصون من ساعات العمل. لكن أصحاب المعامل يزيدون ما زادوه للعَملة على أثمان البضائع، فيتفاحش ارتفاعها، ولا أدري إلى ماذا تصير إليه هذه الأحوال وإنما هي فوضى تحت ستار الاعتصاب.

وكل يوم تعتصب طائفة من العمال: فيوم وصولنا لباريز اعتصب عَمَلة المطاعم والقهاوي، فلم نجد في محل نزلنا من يناولنا الطعام إلاّ رب المطعم وكُتابه. ويوم وصولنا سطرسبورغ وجدنا اعتصاب أصحاب التراموات[675].

---

(669) يشير إلى إحدى معجزاته (ص) فقد روي: أن رسول الله (ص) «خطب إلى يزق جدع واتخذوا له منبراً فخطب عليه فحنّ الجدع حنين الناقة، فنزل النبي (ص) فمسه فسكت». سنن الترمذي: 5/ 204.

(670) يعني بعض دور التجارة أو الصناعة.

(671) قاولتنا: أعطتنا قولاً، وهو استعمال مغربي بمعنى واعدتنا.

(672) الأسوام: يعني الأثمان، من استمته: سألته عن ثمن السلعة. لسان العرب: سوم.

(673) يعني البضائع المتاجر فيها.

(674) اعتصاب يقصد بها إضراب العمال، وقد كانت الكلمة متداولة بهذا المعنى في الفترة انظر مثلاً: جريدة السعادة: 3/ 5 -1919/ 7/ 7 -1919/ 8/ 1919.

(675) البولشفكية: Bolchevik، هم أنصار Lénine في روسيا منذ بداية القرن العشرين. تعني أغلبية باللغة الروسية، غير أنها صارت تطلق مجازاً على الاشتراكية الروسية بعد قيام الثورة

ولما جعلت الحكومة في محلهم ضباط الجيش الفرانساوي، هجم المتصبون على يوطْنا منهم[676]وقتلوه وجرحوا اثنين؛ وهكذا عملُ المتصبين: يهجمون على من يقوم بالعمل بدلهم فيمنعونه بالقول، فإذا لم يساعدهم قتلوه. وفي انكلاتيرة اعتصبَ أصحاب مناجم الفحم الحجري، فأثّروا على بلدهم وعلى افرانسا وغيرها بسبب انقطاع الفحم وفُقدت الصنائع[677]، لأن الفحم به حركة دوالب المعامل. ثم اعتصب البُليس الذي هو نظام[678] انكلاتيرة وتقدمت الإشارة إليه[679].

وهكذا كلَّ يوم تعتصب طائفة، وكل هذا من آثار مصائب الحرب الهائلة التي قوضتْ أركان العمارة والتمدن والسلم والهناء، خففَ الله عن العالم آلامها بمَنِّه، آمين. وذلك أن الحرب زرعت أفكار البولشفكيين أولاً، ثم أتت على النقود الذهبية والفضية التي كانت في صنادق مالية المتحاربين فنقلتها مصارف الحرب إلى صنادق المتحَايدين، ولم يبق إلاّ الأوراق، وغلت أثمان الفضة والذهب. والغالب أنها في الحقيقة ما غَلَتْ لأنها هي قيم الأشياء في العالم قاطبة، وإنما الأوراق نزلت بسبب ذهاب ما كان في البنك ضماناً لها من النقود. مثلاً، البنك الجزائري طبَع عدداً من الأوراق إبان السلم بإذن من الدولة وأنزل قدرها من الذهب ضماناً لها تحت مراقبة الدولة، فلما وقعت الحرب أباحت قوانين الحرب للدولة أن تأخذ كل ما بيد الناس من النقود في البنوك وغيرها ففعلتْ[680] واشترت بها الضروريات من الخارج، لأن المتحايدين إذ ذاك لا يقبلون إلاّ الذهب، فذهبت ضمانة الأوراق، إذ كانت تلك الأوراق ديْناً حالاً[681] على البنك الذي وَضَعَ خط

الروسية 1917، ولا شك أنها كانت حديث الساعة زمن الرحلة. واستعملت هذه الكلمة: بولشفيك، في صحف الفترة. انظر مثلاً جريدة السعادة: 15/ 7/ 1919.

(676) الترموات: جمع Tramway.

(677) لدى س "يوطناهم". ويوطنا: Lieutenant: إحدى رتب الضباط.

(678) يعني المصنوعات.

(679) لدى س "ناظم".

(680) يقصد إشارته إلى إضراب رجال الأمن.

(681) لدى س "فقلت".

يده عليها هو وكاتبه الأول مضموناً بالذهب. فأما قبل الحرب، فكان الناس يتصارفون بها كما يتصارفون بالذهب، لأنك مهما ذهبتَ بها عند البنك التي هي باسمه، إلاّ ودفع لك القيمة حيناً ذهباً أو فضة، أما بعد الحرب فإنه لا يدفع قيمةً، فلم تبق كما كانت في الخارج، فصار الدول الأجنبية لا يقبلونها إلاّ بحطيطة[682]، وإن كانت في افرانسا مثلاً بقيت كما كانت، لا يطلب فيها أحد نقصاً ولا زيادة، لكن المعاملة بها عامة ولا يوجد غيرُها إلاّ نادراً. فإذا أخذ الإنسان الورق الذي قبضه في افرانسا بمائة فرنك وذهب إلى إصبانيا أو سويسرة ليشتري كتاناً أو ملفاً أو سكراً اعتبروا المائة فرنك بستين فقط، فعظمتْ قِيم المواد التي تحتاج افرانسا إلى جلبها من خارج وتبعها غيرها بالضرورة. فهذا السبب الأعظم في غلاء المعيشة.

ولما غَلت المعيشة على مُلاّك الدور والمخازن زادوا في الأكرية بنسبة ما زيدَ في المعيشة بالضرورة: إن الذي كان يقبض ألف فرنك في الشهر كراءً يَعول بها عياله لم تبق كافية له إلاّ إذا زاد ستمائة مثلاً، وهكذا سائر الأشياء، ولا زالت كل يوم ترتفع. وفي الحقيقة كل هذه المصائب من الحرب، ومن فكرة المصارفة بالأوراق، فإنها حيلة استنزفتْ ثروة الأمة وجعلتها بيد الدولة والبنوك وأرباب الأموال. لكن مع طول الأيام، لما تتوفر الأموال بيد الدولة من الضرائب بالضرورة، تردُّ للبنوك ما اقترضتْ منها، فترجع الثقة للأوراق كما كانت شيئاً فشيئاً. هذه الأزمة التي تركناها وراءنا في أوربا، وخصوصاً في بلد المتحاربين، نعم، مصيبة ألمانيا في هذا الباب أعظم، وذلك أن المارك الألماني تركناه يساوي ستة وثلاثين سنتيماً فرنسوية، والمارك هو فرنك وربع. فمالية ألمانيا وهنتْ[683] أكثر من غيرها بكثير، ومن هذه النسبة تعلمُ مقدار النصر الذي حصلت عليه افرانسا، ولقد كنت أتذاكر

---

(682) الدَّيْن الحالّ: الدين إما أن يكون إلى أجل مُسمى وإما أن يكون حالاً في ذمة المقترض يطالبه به المُقرض متى شاء أو إن شاء أنْظَرَه .معجم فقه ابن حزم الظاهري: 2/ 358.

(683) الحطيطة: ما يُحطُّ من جملة الحساب فينقص منه، اسم من الحط. لسان العرب: حطط. ويقصد إلاّ بنقص من قيمتها.

يوماً مع الوزير السيد الحاج عمر التازي[684] في هذه المسألة فأخبرني بثمن المارك، فعجبتُ من أمره حتى تحقق ذلك عندي، وأخبَرَني أنه اشترى منه عدداً بذلك الثمن، وقال لي: «كل ما تريد منه ها هو[685] موجود» وزاد نزوله بعد ذلك. وفي هذا الشهر ديسانبر[686]، الموافق لربيع الأول، بلغت قيمته إحدى وعشرين سانتيماً[687] فإذا اعتبرته بالنسبة إلى السكة الأميريكانية التي هي أعلى من الفرنك الفرنساوي بكثير، بنحو ثلاثة أضعاف، صار المارك الألماني عندهم ثمنُه كثمن أوراق لعب الصبيان، ليس له إلا قيمة الورق والطبع والتزويق فقط تقريباً. وأحطُّ منه أوراق الروسيا، فإنها تساوي الآن في افرانسا خمسة سانتيم أو ستة، فتكون في أميريكا بنحو سانتيمين، فلا أدري كيف هي المعيشة الآن في روسيا، وكيف هي أحوالها مع أن الفتنة لم تزل فيها والحرب قائمة على ساق: كل يوم تهرم ثم ترجع إلى شبابها[688]. ولله در عمرو بن معد يكرب: (كامل)

الحربُ أولَ ما تكون فُتَيَّةً[689] تسعى بزينتها لكل جَهولِ
حتى إذا اشتعلت وشبَّ ضِرامُها ولَّتْ عجوزاً غيرَ ذاتِ حليلِ[690]

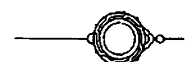
وبعد انفصالنا من ساحل مرسيليا، في الساعة السادسة، انتشر في البحر ضباب كثيف حال دون رؤية ما في البحر، وهالنا الأمرُ حيث أوقدت المراكبُ الأضواء ونفخت الأبواق خوفاً من اصطدامها مع مركب أخرى، وحصل في الوهم شيء من الأفكار المضادة للسلامة، فتعوَّذْنا بالله والتجأنا إليه. وقال بعض الركاب: لا تخفْ من الاصطدام، فالمراكب التي تصطدم بنا أغرقتها الحرب، والحركة في البحر قليلة فلا خوف من الاصطدام، وفي

---

(684) كلمة ساقطة لدى س.
(685) سبق التعريف به.
(686) كلمتان ساقطتان لدى س.
(687) ديسانبر .Décembre
(688) سانتيم: Centime: جزء من المائة من الفرنك.
(689) يبدو أثر اشتغاله بالتجارة مؤثراً في هذا المقطع، كما يبرز تحامله على احتجاج الطبقة العاملة من موقعه كتاجر.
(690) لدى س "فتنة".

الساعة السابعة انجلى ذلك وانقشعت الأوهام وحصل الأمن والحمد لله.

وكان البحر رَهْواً في غاية السكون، ونحن معه في غاية الراحة والاطمئنان إلى أن وصلنا إلى قرب جبل طارق فرأينا عجباً، وهو ملتقى البحر الأبيض مع المحيط، فإن تيار المحيط أعلى من الأبيض كأنها دَرْجه في البحر على امتداده قربَ ساحل جبل طارق، حتى أن البحر لما علاه حصل لنا إحساس بذلك مع سكون البحر إلى النهاية.



طنجة[691]

وقد وصلنا إلى طنجة في الساعة 9 صباح يوم الإثنين 18 أوط[692] ووجدت في المرفإ بعض الأحبة منتظراً، خصوصاً الفقيه الكاتب سلالة الوزارة، وعين أغصان[693] الصَّدارة، سيدي محمد العربي الصنهاجي خليفة النائب بطنجة والمستشار السياسي بها، ونائب المخزن في شركة الريجي[694]

(691) ورد البيتان في الشعر والشعراء، استشهد بهما عمرو بن معد يكرب: 220.

(692) طنجة: مدينة بأقصى الشمال المغربي ذات ميناء على بوغاز جبل طارق، كانت عاصمة المغرب الديبلوماسية في زمن رحلة الحجوي .الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة المدن: 304-305.

(693) أوط: شهر Août: غشت: 18/ 8/ 1919 موافق 21 ذي القعدة 1337 هـ.

(694) لدى س "وغير المضان".

* السيد العربي الصنهاجي رجل محنك في وظائف مهمة، وله اعتبار زائد ومحبوب لدى الخصوص والعموم، لما قام من كريم الخصال، وخصوصاً حسن أخلاقه وتواضعه الزائد. كان أبوه صدراً أعظم لدى الأمير المقدس مولاي الحسن،وأبوه مشهور بالعلم والشعر والأدب والفضل ومكارم الأخلاق وجميل الصفات التي أهلته لنوال الوظيف المذكور الذي لم يكن أعلى منه في المغرب. وبقي في الصدارة إلى أن توفي رحمة الله عليه سنة 1309. وفيها توظف ولده، السيد العربي المذكور، كاتباً في الوزاة الكبرى، وكان قبله كاتباً لوالده، وبقي كذلك إلى سنة 1321، وفيها ارتقى إلى وزير الخليفة مولاي حفيظ بمراكش. ولما نودي به ملكاً رقاه لوزارة العدلية عنده، ولما انتقل لفاس تركه وزيراً مع أخيه وخليفته مولاي بوبكر، ثم رجع إلى خطة الخطة في الصدارة، عام 1327، ثم ارتقى إلى خطة كاتب ثان بها بعد نشر الحماية الفرنساوية سنة 1330. ثم ارتقى إلى نائب وزير العدلية سنة 1332، ثم إلى خطته التي هو بها الآن في طنجة حفظه الله ووفقه وسنه 47 سنة. كانت ولادته سنة 1290 أطال الله بقاءه وبارك في أنفاسه. (هامش للمؤلف الحجوي).

ومعه كاتبه الفقيه الأديب السيد أبو بكر عواد[695]، نجل قاضي سلا الفقيه السيد علي عواد[696]، وكان نزولي بدار المستشار المذكور فأكرمَ، بل بالغ وتجاوز الحد المطلوب في الضيافة وحسن المقابلة[697]، جزاه الله خيراً، آمين.

ولقد زرت معاهد طنجة العلمية والدينية واستوعبتُ أحوالها. وكنتُ قبله قد ترددتُ إليها سبع مرات وهذه الثامنة. وآخر عهدي بها سنة 1330[698]، فرأيتها قد تأخرت كثيراً عن كل تلك المرات التي ترددتُ إليها. عرفتْ حركة تجارتها سقوطاً عظيماً ووقف سير نموها، فإني كنت أعهد بها حركة تجارية أكثر من كل المراسي المغربية، إلاّ ما كان من الدار البيضاء. وكنت أعهد بها البناء متزايداً، وكل يوم تُشيَّدُ القصور وتُنجْد[699] الدور، وتزداد العمارة، وتنمو التجارة، فما بقي الآن بها ولا شيء من ذلك. بل تأخرتْ في كل الشؤون الاقتصادية والعمرانية، حتى إن النظافة التي كنت أعهد بها لم يبق منها شيء، بل القاذورات تجدها مَهْما خرجتَ من منزلك. فهي أحطُّ المدن المغربية نظافة الآن.

ولقد تذاكرتُ مع المعتمَد السياسي الفرنساوي بها فسألني: كيف رأيت طنجة؟ فأخبرتُه بهذا فاعترف به، ولكن نرجو أن يكون لها مستقبل زاهر. فإن همة هذا المعتمَد الجديد متوجهة لذلك[700]، وخصوصاً فيما يرجع للتعليم، فإن في نيته إنشاء مدرسة لأولاد المسلمين وترتيب مدرِّسين بالجامع الكبير وغير ذلك.

---

(695) الريجي .Regie وقد تكون تحريفاً لشركة Energie Eléctrique du Maroc: من أوائل الشركات المنشأة أنذاك .معلمة المغرب: 5/ 1462.

(696) (-1971): المصادر العربية لتاريخ المغرب: 2/ 238.

(697) علي بن محمد عواد تولى المنصب المذكور أعلاه سنة 1309 هـ كما تولاه بعد ذلك بمدن أخرى، توفي 1354 هـ/ موافق 1935 م .من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين: 2/ 359-360؛ الإتحاف الوجيز: 181.

(698) المقابلة: "العناية" في العامية المغربية.

(699) موافق 1911-1912 م.

(700) لدى س "وتنجز".

وقد سألني عن الكيفية التي تُناسب أفكارَ المسلمين وديانتهم في ذلك فقلت له: لابد أن المدرسة تكون تعاليمها خالية من الفلسفة العقلية التي تناقض عقائد المسلمين، بل أول ما يدرس في مدارس المسلمين العقائد الدينية الإسلامية ليأمنوا على أولادهم من الكفر، ثم آداب دينهم في أحكام العبادة التي من جملة ما يُستفاد منها النظافة وحسن العشرة ونزاهة النفس. فهذا هو السبب الوحيد الذي يجذب المسلمين لتعليم أولادهم. أما فيما يرجع للتدريس فالمسجد الأعظم في المدينة لا يخلو من أهل العلم، وهم موجودون أعرفهم بأسمائهم، وبعضهم بأعيانهم. وإنما الأمر المتوقَّف عليه هو الراتب والمراقبة خوف الكسل. فاستحسنَ ذلك كله ووافق أفكارَه التي يظهر منها أنها حسنة جداً نحو المسلمين، جزاه الله خيراً.

وبعد مُكْثي بطنجة خمسة أيام وأربع ليال نهضتُ منها إلى الدار البيضاء يوم 22 أوط[701] عشية، فوصلت إليها في صبيحة اليوم بعده، على ظهر المركب "جبل درسة"[702]، وهو مركب صغير قَذِر لم يوافقني المبيت فيه تلك الليلة، وأتْعَبَني روائحه الكريهة وعدم وجود أسباب الراحة في محل النوم وغيره. والحمد لله على قِصَر المسافة، ولو طالت لهلكتُ.

وبعد حلولي بالدار البيضاء استرحتُ ليلةً من عناء البحر وتوجهت إلى الدار البيضاء لمقابلة الجلالة اليوسفية[703]، أدام الله نَصرهَا وأبَّدَ عِزها وفخرها، فقابلتُ جلالَته يوم الجمعة قبيل الصلاة وعلى محياه الكريم البِشْر، فسألني عما رأيت في رحلتي، فأخبرتُه على وجه الاختصار بما يناسب وتزودت منه صالحَ الدعاء[704].

وانصرفتُ لمسقط رأسي ومحلِّ أُنسي فاس، المحوطة بالله من كل باس،

---

(701) لدى س "كذلك".

(702) 22 غشت/ موافق 25 ذي القعدة 1337 هـ.

(703) سمي المركب باسم جبل درسة المدعو أيضاً جبل درقة: جبل مشرف على مدينة تطوان جنوباً. معلمة المغرب: 12/ 4017-4018.

(704) السلطان يوسف بن الحسن، وسبق التعريف به.

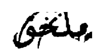
فوصلتها يوم الأحد بعده[705] بخير وسلام، ووجدت الأهل كذلك كما تركتهم، وعظمت النعمة بالاجتماع بهم. والحمد لله على نعمته التي بها تتم الصالحات. وهناك ألقيت عصا التَّسْيار[706]، وقرَّ القرار.

تمت الرحلة

(705) نشرت جريدة السعادة تهنئة للمؤلف بالعودة بمناسبة زيارته لمكتبها ووعْده إياها بموافاتها بما عزم على كتابته عن رحلته هاته: السعادة: 30/ 8/ 1919، ويبدو أن المؤلف وفى بوعد الكتابة عن الرحلة ولم يف بوعد تمكين الجريدة منها.

أي يوم 24 غشت (آب) 1919/ موافق 27 ذي القعدة 1337 م.

(706) التسيار: تفعال من السير، وألقى عصا التسيار: أنهى سفره وترحاله، وألقى المسافر عصاه إذا بلغ موضعه وأقام، ويضرب مثلاً لكل من وافقه شيء فأقام عليه. لسان العرب: سير-عصا.



تقرير فرنسي عن الحجوي

Sidi Mohammed El Hajoui Vizir de la justice et de l'enseignement Musulman.

Si Mohammed El Hajoui a assumé avant comme après l'avènement du protectorat de très hautes charges adminitives et judiciaires.

Né à Fès en 1874, d'une famille enrichie dans l'agriculture et le commerce, il commence sa carrière comme adel dans le palais de Meknes en 1900, il fut ensuite successivement nommé amin des Douanes à oujda en 1901, Naïb du vizir des Finances en 1903, délégué du vizirat de la guerre en 1904, amin chargé de l'emprunt à oujda en 1908.

L'Avènement du protectorat devait lui permettre d'accéder aux plus hautes fonctions: délégué de l'enseignement de 1912 à 1915 président de la qaraouiine de 1915 à 1921, de nouveau délégué à l'enseignement de 1921 à 1939, président du tribunal d'Appel du chraâ de 1939 à 44, il occupe depuis cette date le poste de vizir de la justice et de l'enseignent musulman.

Il s'est fait remarquer, dans ses diverses fonctions, par son expérience des hommes et des affaires, sa culture et la souplesse de son esprit. cette vie publique, si remplie n'a pas été préjudiciable à son goût de la recherche et de l'étude puisqu'il est l'auteur de plusieurs ouvrages et d'articles d'Histoire de droit, de lettre et de critique.

Au cours des dix dernières années Si Mohammed El Hajoui n'a cessé

---

* نص تقرير فرنسي يُجلي حال الحجوي قبيل عزله سنة 1955. المصدر: تقرير بالأرشيف الدبيلوماسي الفرنسي بمدينة نانط Nantes: D.A.CH, 331. نقلاً عن: محمد بن الحسن الحجوي والحماية، آسية بنعدادة: الملحق رقم 20: صص. 369 ـ 370.

de manifester ses sentiments d'attachement à la France et au régime du protecorat. Tenu à l'écart du trône par Si Mohammed Ben Youssef, il a recherché par un mouvement naturel, un appui de notre côté. L'avènement de Sidi Mohammed Ben Moulay Arafa aurait du lui permettre de prendre dans le Makhzen une place prépondérante car il avait autre fois connu le souverain et une estime réciproque liait les 2 hommes, mais le Sultan dut bientôt constater que son vieil ami ne jouissait plus de toutes ses facultés, il cessa de la recevoir et renonça à l'entretenir des affaires du vizirat qu'il traite desormais avec le 1èr naïb Si Mekki Jaïdi.

Le vizir il est vrai, n'est plus apte à gérer son département, il se refuse à examiner les questions importantes parce qu'elles lui paraissent trop longues à étudier, il ne peut plus signer que quelques lettres de suite et sa fatigue si telle parfois qu'il en oublie son nom, il signe alors d'un autre nom. le vizirat est pratiquent sans direction et les subordonnés refusent de prendre toute responsabilité, la direction des affaires chérifienne en est amené à consulter le président du tribunal d'appel du chraâ quand elle désire être éclairée. Les naïbs et les secrétaires appréhendent de paraître devant le vizir, car ces emportements sont aussi fréquents, et violants qu'injustifiés mais ils se vengent en colportant en médina les excentricités de ce vieillard qu'ils détestent. Des marocains venus de toutes les régions à l'occasion de chikaya d'examens d'Adoul ou de conseil de discipline se rendent compte par eux mêmes de l'état du vizir et ne se privent pas, a leur retour en tribus de décrire le spectacle ahurissant auquel ils ont assisté. Le Makhzen n'en sort pas grandi et le discrédit dont il est atteind rejaillit sur nous, car l'opinion marocaine nous tient responsable de la décrépitude des institutions et des hommes. Aussi parait-il temps de mettre un terme à la crise qui atteint le vizirat de la justice. Le premier intéressé à cette mesure n'est-il pas si mohammed El Hajoui lui même qui en s'attardant ainsi au de là du déclin, perd chaque jour un peu plus du prestige que lui avait acquise une brillante carrière au service de l'état, l'honorariat pourrait à son départ lui être décerné pour atténuer son amertume et le maintien de son traitement de vizir viendrait assurer l'aisance de ces derniers jours.

1 - 3 1955

سيدي محمد الحجوي وزير العدلية والمعارف الإسلامية

تقلد سي محمد الحجوي سواء قبل أو بعد مجيء الحماية مناصب إدارية وقضائية جد سامية.

وُلد بفاس سنة 1874، من أسرة اغتنتْ من ممارسة الفلاحة والتجارة؛ وقد استهل حياته المهنية عَدْلاً بقصر مكناس سنة 1890.

ثم عُيِّنَ بعد ذلك، على التوالي: أميناً لديوانة وجدة سنة 1901 م، نائباً لوزير المالية سنة 1903، مندوب وزارة الحربية سنة 1904، أميناً مُكلَّفاً بالاقتراض بوجدة سنة 1908.

وقد مكنه مجيء الحماية من تَسَنُّم أسمى الوظائف: مندوب المعارف من 1912 إلى 1915، رئيس القرويين من 1915 إلى 1921، ثم مندوب المعارف من جديد من 1921 إلى 1939، رئيس المحكمة الشرعية من 1939 إلى 44؛ وابتداءاً من هذا التاريخ شغل منصب وزير العدلية والمعارف الإسلامية.

وقد لَفَتَ الأنظارَ إليه أثناء تَقلُّده هذه الوظائف المختلفة، بخبرته كرجل أعمال، وبثقافته ومرونة فِكْرِه.

ولم يكن لهذه الحياة العامة الحافلة أي أثَرٍ مُضِرّ بميله للبحث والدراسة، إذ ألف عدة كتب، وأنشأ مجموعة من المقالات في تاريخ الفقه بالإضافة إلى رسائل في الأدب والنقد.

وخلال العشر سنوات الأخيرة لم يكف سي محمد الحجوي عن إبداء مشاعر تعلقه بفرنسا وبنظام الحماية. وقد أدى إبعاده من حاشية العرش من طرف سي محمد بن يوسف إلى نشدانه الدعم من لَدُننا كرد فعل طبيعي.

وقد كان بإمكان تَسَنُّم سي محمد ابن مولاي عرفة العَرْشَ أن يتيح له احتلال مكانة وازنة في دواليب المخزن؛ ذلك أنه كان على معرفة سالفة بالعاهل، وكان الرجلان يتبادلان التقدير.

لكن السلطان سيتحققُ بعد حين، أن صديقه القديم لم يعد يتمتع بكل مقدراته، لذلك توقف عن استقباله وانصرف عن مخاطبته في شؤون الوزارة

التي صار يُدَبِّرُها منذئذ مع النائب الأول سي المكي الجعيدي.

حقاً إن الوزير لم يعد مُؤهَّلاً لتدبير إدارته، فهو يرفض النظر في القضايا المهمة لاعتباره أن دراستها ستستغرقُ وقتاً طويلاً، بل إنه لم يعد يقوى سوى على توقيع بضعة رسائل على التوالي، وقد بلغتْ به شِدَّةُ التعب إلى نسيان اسمه، فيُوقِّعُ الوثائق، والحالة هذه، باسم غير اسمه.

إن الوزارة، عمليا، بدون إدارة، والمرؤوسون يمتنعون عن تحمل أية مسؤولية، وتضطر إدارة الشؤون الشريفة من جراء ذلك إلى استشارة رئيس مجلس المحكمة الشرعية عندما ترغب في توضيحات ما. ويخشى النوابُ والكُتاب الظُهور أمام الوزير نظراً لتكرار نوبات تَهَيُّجِه العنيفة وغير المُبرَّرَة. على أنهم ينتقمون بإشاعة غرائب، هذا العجوز الذي يكرهونه، في المدينة (القديمة). ويقفُ المغاربة القادمون من كل النواحي بسبب شكايات تتعلق بأعمال العُدول، أو المجلس التأديبي، بأنفُسهم على حال الوزير، ولا يتورعون عند عودتهم إلى القبائل عن وصف المشهد المذهِل الذي شَهِدوه.

وقد أدى ذلك إلى النيل من هيبة المخزن مما انعكس علينا؛ ذلك أن الرأي العام المغربي يعتبرنا مسؤولين عما حلَّ بالمؤسسات والرجال من ترهل.

لذلك يبدو أن الوقت حان لوضع حد للأزمة التي أصابت وزارة العدلية. وسيكون أول مُستفيد من هذا الإجراء هو سي محمد الحجوي نفسه، الذي سيؤدي به الإبقاء على حال الانحطاط هذه، أكثر مما هو حاصل، إلى أن يفقد كل يومٍ المزيد من حُظوتِه التي أنالَهُ إياها مَسارُهُ الإداري المتألق في خدمة الدولة. وبعد تسريحه يمكن تمتيعُه بمكانة تشريفية إسمية لتخفيف مرارة إقصائه، وسيزيد إبقاء معاملته كوزير من ضمان عَيْشِه حياة مُريحة في أيامه الأخيرة.

تعليق

الرحلة الأوربية:
تبشير متحمس بمَعين الآل

يستهل الحجوي رحلته على أرض أوربا بمؤشر زماني رمزي دال: ولوج عالم مختلف احتاج للتلاؤم معه إلى المُضي قُدُماً في الوقت ليُدْرِكَ الزمن الأوربي الجامح في آفاق المستقبل، يقول: «وهنا تبدلتْ عنا الساعة المغربية، لأن ساعة افرنسا بل وانكلاتيرة تتقدم على ساعتنا الآن بساعة واحدة ونصف»[1].

هكذا يحضر طيلة الرحلة هاجس الإحساس بالتخلف والاعتراف به دون مركب نقص، سواء بالتصريح كقوله بعد حديثه عن مزايا نظام التعليم الفرنسي: «بذلك القدر ارتقى مجموع الأمة من الحضيض الذي وقع فيه مجموع الأمم الغير متمدنة التي لا يَعرف غالبُ أفرادها كتابة ولا أدباً ولا حساباً ولا ولا..... كأهل المغرب الأقصى مثلاً»[2].

أو ضِمناً إذ تتعدد المقاطع التي يعترف فيها للآخر بالتحضر والمدنية[3] وحرية الفكر[4].

هذا بخلاف ما عهدناه في الرحالة المغاربة السابقين عموماً، فقد قدَّم الحجوي صورة إيجابية نسبياً عن فرنسا وغيرها[5].

---

(1) الرحلة الأوربية: 33.

(2) المصدر السابق: 44.

(3) انظر المصدر السابق: 42 و43 مثلاً.

(4) المصدر السابق: 39. وانظر في شأن هذه الفكرة: Voyage d'Europe: 179.

(5) المرجع السابق: 174. نشير إلى أن بعض معاصري المؤلف قدموا صورة إيجابية عن فرنسا، انظر مثلاً: حديقة التعريس في بعض وصف ضخامة باريس، عبد الله الفاسي، المطبعة البلدية، فاس، 1966.

لقد اعتدنا في الرحالة المغاربة السابقين نفوراً من الغرب وحضارته وإنكاراً لجدواها واستنجاداً بالدين، في فهم سطحي لمقاصده، لإثبات وَهْم تَفَوُّقهم، أو لبسهم مسوح الزهد والإعراض عن الأخذ بأسباب الدنيا لكونها فانية، ومن ذلك قول محمد الطاهر الفاسي: «والحاصل أنهم، دمرهم الله، يستعملون أشياء تدهش، سيما مَن رآها فجأة، وربما اختل مزاجه من أجل ذلك... وفيه إشارة إلى أن طيباتهم عُجِّلتْ لهم وذلك نصيبهم وحظهم»[6]. لذلك يتعين الاكتفاء، بالعلوم الدينية لأن «العقل على قسمين، ظلماني ونوراني، فالظلماني به يدركون الأشياء الظلمانية ويزيدهم ذلك توغلاً في كفرهم، والنوراني به يدرك المومن المسائل المعنوية»[7].

لقد عبر سلوك الحجوي أثناء الرحلة عن رغبة في الاستفادة وإفادة مواطنيه، ومن مؤشرات ذلك الفتاوي التي اجترحها هناك في انجلترا، صحيح أن للحجوي زخماً من الفتاوي بعضها مُضمَّنٌ في كتابه "**الفكر السامي**" وأغلبها الأعم يقبع على رفوف الخزانة العامة بالرباط، لكننا نُفرد منها تلك الفتاوي التي صدرت عنه في بلاد الآخر[8] لا في المغرب، باعتبارها أداة للتلاؤم والتعايش مع الغرب في عقر داره، ومن ذلك تجويزه لبس الثياب والصوف الناتجة عن ذبائح أهل الكتاب[9]، بل وثيابهم الخاصة[10]، وكذا تجويزه أكل ذبيحة النصارى عند الضرورة[11] فتُباح بذلك مُؤاكَلةُ الغربي، وتصير الفتوى قناة تفتح آفاق

كما توجد رحلة سابقة لم تتخذ موقفاً سلبياً من الغرب ويقول صاحبها في الختام «وبالجملة فرؤية هذه الأمور فيها مواعظ وحكم لا تبصر ومنعة للنفس لمن كان حظه النظر، وذلك كله من آيات الله الدالة على عظمته وقدرته الباهرة» .**تقييد الرحلة التتويجية لعاصمة البلاد الإنجليزية**، تحقيق عبد الهادي التازي، ضمن **مجلة البحث العلمي**: ع 29-30، 1979: 207.

(6) **الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية**: 19.

(7) **المرجع السابق**: 28. وانظر مثلاً انطواء الصفار وتأكيده مداراة الفرنسيين ما دام في دارهم. **صدفة اللقاء مع الجديد، رحلة الصفار إلى فرنسا**: 179 و182.

(8) يجيب فيها على نوازل ومستعصيات تعترض مواطنيه المقيمين ببلاد الإنجليز.

(9) **الرحلة الأوربية**: 130-131.

(10) يقول في هذا الشأن: «إن اللباس الإفرنجي ليس خاصاً بالكفار حتى يُسأل عنه بل يلبسه الأتراك وبعض العجم وأهل مصر وأهل تونس والجزائر فلا معنى للقول بأن لباسه ردة أو حرام في بلد الإسلام فأحرى بلاد النصارى» .**المصدر السابق**: 140.

(11) استشهد بقوله تعالى: {اليوم أحِلَّتْ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم

التواصل مع الآخر عند الحجوي بدل كونها، كما عند غيره، سيفاً مُصْلَتا للتحريم وترسيخ الحواجز المعنوية، بل ووضع استعمال المخترعات الحديثة في أمور الدين[12] موضع تساؤل ونقاش يفضي إلى استبعاد أي تفاعل مع الغرب ولو كان حيوياً اقتصادياً تجارياً يُدر على الفرد والأمة ما يدر من الربح الوفير[13].

لقد حرص الحجوي على الاقتصار على مشاهداته كما قال في مستهل الرحلة[14] غير أنه عمد ببصيرته النافذة إلى انتقاء ما يراه سبباً أو مؤشراً على التقدم لدى الغرب مما يغيب في وطنه، لذلك نلاحظ هَوَسه بذكر القناطر المسَهِّلة للمواصلات وهو التاجر العارف بجدواها الكبرى[15]. كما نسجل افتتانه بوصف المباني الفخمة[16]. وتسجيله صدق الإنجليز في تعاملهم التجاري[17] وتقديرهم قيمة الوقت، وعلى ذكر الوقت، نلاحظ هوس الحجوي بتدقيق أوقات الأحداث بضبط يتحرى تسجيل الدقائق. وقد أسهب في الحديث عن ساعة سطرسبورغ وركز على ضبطها الوقت إذ أورد أن «لها مدة سبعين سنة ما وقع فيها زيادة ولا نقص[18]»، وفي مقابل ذلك ذَكَر

وطعامهم حل لكم .}المصدر السابق: 178.

(12) انظر نماذج لهذه الفتاوي في: **الاجتهاد والتحديث**: 103-199.

(13) انظر: **العرب والفكر التاريخي**: 41، وقد ورث الحجوي هذا التفتح عن والده الذي كان بدوره تاجراً وأقام طويلاً بإنجلترا فقد أجاز التجارة بأرض النصارى، خلافاً لمعاصريه وقال في معرض ذلك مخاطباً ابنه: «لا تكن جامداً على قول الفروعيين» .**الفكر السامي**...: 1/ 150. (طبعة المغرب).

(14) **الرحلة الأوربية**: 23.

(15) ألا يمكن اعتبار ذلك دعوة ضمنية إلى الاقتداء بالغرب في هذا المجال خاصة أنه لا ينِي يقارن بين هذه القناطر ونظيرتها بالمغرب والجزائر؟

(16) خاصة أنه يقارنها أحياناً ببنايات بالمغرب .**الرحلة الأوربية**: انظر مثلاً 65.

(17) **الرحلة الأوربية**: 118.

كان الحجوي ذا حس تجاري واقتصادي ومما قاله حاثاً أبناء وطنه على الأخذ بأسباب التقدم وكأنه يحاور الوضع العربي الراهن: «حاربوا الفقر بالاقتصاد، والاختصار من العوائد التي تستنزف الأموال وباستنتاج الخبرات من الأرض والمياه وبإحياء الصناعات الوطنية والنهوض بها إلى مستوى الرقي الجديد فبالاقتصاد أصبح العالم مستعمرة إسرائيلية»: **الفكر السامي**...: 4/ .211. (طبعة المغرب).

(18) **الرحلة الأوربية**: 87.

منجانة أبي عنان بطالعة فاس في إيحاء رمزي نفسي، ربما غير مقصود، قائلاً إنها «اندثرت ولم يبق إلاّ بعض نواقيسها»[19].

ويرى مُترجِما الرحلة الأوربية أن الحجوي أعفى نفسه من الإشارة إلى طريقة عمل النظام السياسي الفرنسي أو البريطاني، واكتفى بوصف مظاهر عظمة معالم البناء وأبهة الاستقبال، ولم يذكر شيئاً عن النظام النيابي وفصل السُلط وعن العلاقة بين السلطتين المدنية والعسكرية[20]، وتساءَل المترجمان عن احتمال تفسير هذا المنحى بأنه تهرُّب وخوف من إمكان أخذ كلام كهذا من زاوية وضع الممارسة المخزنية المتقادِمة للسلطة موضع السؤال[21].

والواقع أن الحجوي كان على اطلاع على بعض هذه النظُم على الأقل، نستشف ذلك من خلال كتابه "**النظام في الإسلام**"[22]، إذ يعقد فيه بعض المقارنات بين التسيير الإسلامي وبين غيره. وتكفي الإحالة على الأستاذ العروي الذي تناول هذا المؤلَّف مؤكداً الرؤية العميقة لدى الحجوي وأن الفقه عنده أكثر واقعية من القانون المستوحى من الأصل اللاتيني[23].

لم يكن الحجوي طولَ الوقت مداهناً للمخزن الذي كثيراً ما وجه له صراحة ملاحظات قوية في موضوع طريقة الحكم[24] ولا للإقامة العامة التي واجهها في كتابات منتقداً سياستها في العدل[25] وفي فرض الظهير

(19) المصدر السابق: 88.

(20) *Voyage d'Erurope.* : 195 ذكر المترجمان عدم تمييز الحجوي بين الملكية والجمهورية: 178. والواقع أن الأمر يتعلق باستعمال لغوي عربي: "التغليب". انظر: الرحلة الأوربية: 103.

(21) *Voyage d'Europe*: 196.

(22) المطبعة الوطنية، الرباط، 1928. وانظر: **انتحار المغرب بيد ثواره دواعي الإصلاح والتنظيم**: 83 و107.

(23) *Esquisses historiques*: 120.

(24) انظر كتابه إلى السلطان عبد الحفيظ في: محمد بن الحسن الحجوي والحماية: 357-363.

(25) «خلص الحجوي إلى القول بأن العدلية زمن الحماية قد زادت فساداً عما كانت عليه قبلها، وبأن حقوق المغربي أصبحت مهضومة» .المصدر السابق: 190. يقول الأستاذ العروي «إن الحجوي لم يكن مجرد أداة في أيدي الإدارة الاستعمارية إذ حافظ على حريته الفكرية بل والاقتصادية» .*Esquisses historiques*: 115-116 .

البربري[26]. بل إنه تجاوز ذلك إلى انتقاد إخلال فرنسا بعقد الحماية وتصرفها كمحتل يقول: «وهذا يتنافى مع عقد الحماية الذي ينص على أنه لا تشريع ولا فريضة ولا ضريبة إلاّ بظهير شريف»[27].

نعم إن الحجوي كان موالياً لفرنسا بعد احتلالها المغرب غير أنه لم يكن مُمَحْوَ الشخصية بل كان يتفرد بآرائه الخاصة على مستوى الكتابة على الأقل. ومن ذلك أن انبهاره وتقبله الإيجابي للحضارة الأوربية لم يمنعه من إبداء رفضه لبعض مظاهرها وسلوكات أهلها لكنه في كل ذلك ظل أكثر مرونة من سابقيه.

يتخذ الحجوي موقفاً معادياً لوجه أوربا البلشفي ويُحَمّله جزءً كبيراً من مسؤولية الأزمة الاقتصادية التي تَلتْ الحرب العالمية الأولى، وجعلت البضائع تندر مما جعله يعود من أوربا، دون اقتناء ما كان يرجوه من بضاعة[28]، ويفعل ذلك من موقع التاجر أولاً ومن موقعه الطبقي كـ"برجوازي"، لا بدافع "الوعي الديني"[29].

وهو وإن اعترف للمسرح بتضمنه «مقاصد مهمة أخلاقية تهذيبية»[30]. فإنه يؤكد عدم تفاعله معه قائلاً: «فذلك شيء ليس هو ذوقنا، بل لا نستفيد منه لعدم معرفتنا جميعاً بلغة أهله، وعدم ملاءمته لمالوفاتنا وحركاتنا»[31]. بل إنه يأخذ عليه اشتماله بَذيء الكلام ومهيجات «شبق

---

(26) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم 254 نقلاً عن محمد بن الحسن الحجوي والحماية: 191-193. وانظر في الموضوع: الوئام في ظلال الإسلام بين العرب والقبائل البربر الكرام، مطبعة النهضة، تونس، (د. ت).

(27) مخطوط بالخزانة العامة رقم ح 122، ص 10. نقلاً عن: محمد بن الحسن الحجوي والحماية: 206، كما يتهم فرنسا بتخليها عن المبادئ التي أوهمت الناس بأنها جاءت بها .المصدر السابق: 209.

(28) الرحلة الأوربية: 161.

(29) كما يرى ذ. سعيد بنسعيد العلوي: أوربا في مرآة الرحلة: 85.

(30) الرحلة الأوربية: 63.

(31) المصدر السابق.

النفس للخنا وارتكاب الفواحش.. فلو خلا عن هذه الأمور لكان من أحسن المدارس التهذيبية»[32] في نظره.

ورغم إبداء الحجوي إعجابه بجمال نساء باريز في أكثر من مناسبة[33] فإنه انتقد انطلاقهن وتبرجهن «تبرجاً لا يُتصور فوقه إلا سفاد الحيوانات»[34]. في حين أثنى على تحفظ نساء الانجليز، وتوفير سبل عدم اختلاطهن بالرجال في المرافق العامة كالقطار وغيره[35].

ولم يتفرد الحجوي في موقفه هذا من المرأة الغربية، فهي كانت تجسد دائماً مثال "الحياة" و"الجد" و"العفة" في رحلات المغاربة، على الرغم من اقتران الصورة بمشاهد التبرج والخلاعة[36] وبالمقابل نجد الحجوي يتضايق كثيراً من البيروقراطية الإنجليزية خاصة لدى تعامله مع الشرطة[37] ولعل ذلك أن يكون بسبب مقارنته بين استقبالهم له وبين الاستقبال الرسمي الذي حظي به في فرنسا، دون الانتباه إلى أن التعليمات صدرت من المقيم العام الفرنسي بالمغرب في برقية رسمية باستقبال وفد الرحلة المكون من «شخصيات جد مهمة يلزم أن يُترك في نفوسها أحسن انطباع، وإكرام وفادتها، وتجنيبها كل العراقيل المادية»[38].

وإذا كانت شخصية الحجوي الطلائعية السابقة لعصرها قد حرمت المتلقي من النفحة العجائبية التي تشكل توابل كل رحلة، فقد عوضته بمصاحبة شخصية مرنة متفهمة مُحِبّة للحياة[39]، وأكثر ما يبرز ذلك في لحظة

---

(32) **الرحلة الأوربية**: 64. ويرى الحجوي أن لا وجه للمسرح "في الشرع الإسلامي ولا في الذوق العربي": نفس الصفحة.

(33) **الرحلة الأوربية**: 71 و113.

(34) **الرحلة الأوربية**: 72.

(35) **الرحلة الأوربية**: 102.

(36) **الواقعي والمتخيل في الرحلة الأوربية إلى المغرب**: 284.

(37) **الرحلة الأوربية**: 104 و109 مثلاً.

(38) انظر نص البرقية في: **محمد بن الحسن الحجوي والحماية**: 335.

(39) انظر مثلاً وصفه واسترخاءه بغابة بولون: **الرحلة الأوربية**: 71-72؛ وانظر كذلك احتفاءه بجمال باريز وذوق أهلها وحرصهم على مواراة كل قبيح. المصدر السابق: 42.

وداعه باريز حيث تفجرت قريحته الأدبية بلغة تلامس التعبير "الرومانسي" المشخص للطبيعة والمتفاعل معها بشكل فطري، يقول: «وداعاً لك يا باريز، رغماً عنا ودعناها، والقلوبَ أودَعناها، وأسفنا لفراقها أسفَ مُحب فارَق حبيبه، فارقناها وأي طبع يقوى على فراقها، بارحناها وأي أحد يحب الجمال يقول بمبارَحَتها... وقد خرج معنا واديها، لاسين، يودعنا منساباً معنا انسياب الأفعى في بسيط رصع من ياقوت أخضر»[40].

هذا بالإضافة إلى حس السخرية الذي طبع بعض إشاراته وتعليقاته، إذ يُعرّض بعدم احترام الأوربيين لأوفاق مؤتمر الجزيرة الخضراء أثناء حديثه عن وجود جزيرة خضراء على ضفة وادي بوردو، «لكن لم يقع فيها مؤتمر دولي، ولا عهد قولي غير فعلي»[41]. وكذا قوله عند إشادته بصدق معاملة الإنجليز وقناعتهم إن ذلك «في التجارة لا في السياسة»[42]. ونختم بتعريضه بالشرطة الانجليزية التي كثيراً ما ضايقه سلوكها، إذ قال لأحد أفرادها بواسطة الترجمان ينتقد تعقيد وطول الإجراءات الإدارية: «لولا أن سبب خروج آدم من الجنة بيَّنَهُ القرآن لقلتُ إنه هرب من برودة أسئلة بُليس إنجليزي»[43].

ولا يسعنا إلاّ أن نتأسف لعدم نشر هذه الرحلة في إبانها، إذن لكان لها أثر فعال في النظرة إلى الغرب وقتئذ، ونضُمُّ صوتنا إلى صوت مترجمَيْها إلى اللغة الفرنسية متسائلين عن السبب الكامن وراء عدم تحقيق هذا النشر رغم مكانة صاحبها ووظائفه السامية وملاءمة مضامين رحلته لانتظارات كل من المخزن والإقامة العامة على السواء[44]. كما لاحظ المترجمان أن أسلوب الرحلة، وكثرة المؤشرات النصية المستحضرة للمتلقي تشي بكونها كُتبت لتُطبع[45].

---

(40) الرحلة الأوربية: 152-153.

(41) الرحلة الأوربية: 30.

(42) الرحلة الأوربية: 118. هذا بالإضافة إلى استغرابه من عدم توفير الانجليز مناديل مسح اليدين في المطاعم مع أن بلادهم بلاد الكتان: 125.

(43) المصدر السابق.

(44) *Voyage d'Europe*: 174.

(45) *Ibid.*

ومن المؤكد أن الرحلة الأوربية كانت موجهة للنشر إذ أن الحجوي مباشرة بعد عودته إلى المغرب، وقبل أن يعود إلى مدينته فاس زار مكاتب جريدة **السعادة** بالرباط ووعدها بموافاتها بما عزم أو بدأ فعلاً بكتابته عن رحلته هذه[46]، لكنه، للأسف، لم يف بهذا الوعد إذ لم نقف لها على أثر في الجريدة المذكورة.

وقد أسهم استحضار إمكان نشر الرحلة في تبسيط لغتها بما يلائم النشر الجماهيري الصحفي، غير أن أسلوب الحجوي، كما نستنتج من أسلوبه في مؤلفاته الأخرى العديدة، لم يكن بعيداً عن هذا الأسلوب المتداوَل الخالي من شوائب التصنع[47]. وقد لاحظ مترجماً الرحلة هذا النزوع في أسلوب الحجوي غير أنهما عَزَواه إلى تأثره بأحمد فارس الشدياق وبالنموذج الشرقي الذي نحا منذ زمن إلى اطِّراح الزخرفة[48].

والواقع أن النثر المغربي في هذه الفترة كان أحسن حالاً من نظيره المشرقي وأسلم لغة[49]. ينقل ابن المواز معاصر الحجوي قول الشيخ مصطفى بيرم في مؤتمر دولي سنة 1902 إن صناعة الإنشاء باللغة العربية في عصره «كادت تكون مقصورة على دولة مراكش، وأما غيرها فقد تذبذبوا وكادت كتابتهم تخرج عن الأسلوب العربي وصاروا لا يتحاشون اللحن بخلاف كُتاب المغرب، وهذا ديدنهم من قديم»[50]. أما التصنع فكان يكاد ينحصر في الدواوين الإدارية والمراسلات الرسمية[51]. والملاحظ أن التصنع وزخرف

(46) جريدة السعادة: 30/ 8/ 1919. وانظر ص 13 من هذا العمل.

(47) بل إن الحجوي في مؤلفاته الأخرى أقل احتفالاً بالسجع الذي طَبع مقاطع كثيرة من الرحلة الأوربية.

(48) وقد استشهدا أن رحلة الشدياق هي الرحلة الوحيدة التي اعتمدها ضمن مراجعه: *Voyge d'Europe*: 177 et 188.

(49) ويخرج القارئ المقارن بين رحلة الحجوي ورحلة الشدياق بانطباع يؤكد علو كعب الحجوي وتداول أسلوبه وجاذبيته.

(50) **خطوة الأقلام في التعليم والتربية في الإسلام**: 60-61.

(51) **الإحياء الشعري في المغرب الحديث بين الأصالة والتقليد**: 24.

الأسلوب في النثر المغربي إبان فترة كتابة الرحلة الأوربية يكاد ينحصر في السجع والجناس اللذين يُعتبران من مظاهر الثقافة والتكوين الشفويين[52] مما ميّز ذهنية المثقف والمبدع المغربي إلى عهد قريب[53].

ويبدو أن الحجوي سبق عصره بخطابه الإصلاحي الجريء المضَمَّن في هذه الرحلة في مناخ عام مُعادٍ لما هو أقل منه تطلعاً، ولعل من أقوى لحظات خطابه هذا انتباهه إلى دور المجتمع المدني في تقدم أوربا، يقول «فكل مدينة أو قرية أوربية ترى فيها المدارس مشيدة، ونوادي العلم عامرة، وقد نُظمت لذلك الجمعيات في كل مدينة أو قرية... فهم لا يتكلون على الحكومة في كل شيء مثلنا»[54]. غير أنه ركز على مظاهر ونتائج الحضارة الغربية ولم يفلح في لمس نسغها العميق المتمثل في قيم الحرية[55] والعدل والمساواة التي رَعَتْ وأفرَزَتْ ذلك العقل المتوثب المبدع الخلاق، فكان في ذلك شبيهاً، في العمق، بمواطنه الرحالة الجعايدي السلاوي الذي استقصى ودَقَّقَ وصْف مكونات وأجزاء معمل دار السكر وحركتها مُعَزِّزاً ذلك برسوم توضيحية، لكنه يعترف أنه لم يقف «على أصل الحركة الأولى التي ينشأ عنها سائر الحركات»[56].

لم يعدم الحجوي النية الصادقة في الانفتاح على الغرب إلا أن مثبطات موضوعية وذاتية وثقافية أحالت آلاً ما تاقتْ إليه نفسُه الظمأى للجديد، وصيرتْ تدقيقه الصارم يضيع في متاه حضارة باريز حيث جعل الغرب شرقاً[57] رغم تسلحه بدليل باريز السياحي[58]. ولمح إلى حيرته، في شكل

(52) الشفاهية والكتابة: 107؛ محاورات مع النثر العربي: 48.

(53) الإحياء الشعري في المغرب الحديث بين الأصالة والتقليد: 27-28.

(54) الرحلة الأوربية: 44.

(55) وإن كان أشار في طرة مضافة بعد تاريخ الفراغ من تدوين الرحلة بكثير إلى دور الحرية في العلم والتأليف .الرحلة الأوربية: 66.

(56) إتحاف الأخبار بغرائب الأخبار: 2/ 155.

(57) انظر الرحلة الأوربية: 71.

(58) انظر الرحلة الأوربية: 48.

تحذير لمواطنيه، أمام اختلاف رصيف السير في باريز عنها في فاس ثم انقلاب هذه القاعدة في انجلترا لتوافق جهة السير المأخوذ بها في فاس[59]. فالحجوي الذي جَوَّزَ، في فتوى، ارتداءَ لباس النصارى في بلادهم[60]. ظل يحمل في عُمقه مَخايل شخصيته وتكوينه الأصل لأن الوصف الرَّحْلي «يخضع عن وعي أو لا وعي لمنظر ثقافة الواصف»[61]، لذلك قرأ خريطة المدينة في الدليل جاعلاً الجنوب إلى أعلى على عادة أسلافه[62]، فأفضى به الأمر إلى فقدان البوصلة أو إضاعة الشمال كما يقول الفرنسيون.

---

(59) انظر الرحلة الأوربية: 114-115.

(60) الرحلة الأوربية: 107-108- و140.

(61) مكونات الأدب المقارن في العالم العربي: 479.

(62) انظر الرحلة الأوربية: 71.

كشاف حضاري وفهارس

الفهرس الكشاف للآيات القرآنية

الفهرس الكشاف للأحاديث النبوية الشريفة

الفهرس الكشاف للكتب الواردة في المتن

الفهرس الكشاف للأعلام البشرية

الفهرس الكشاف للأعلام الجغرافية والأماكن

الفهرس الكشاف للألفاظ الحضارية المستحدثة

الفهرس الكشاف للمصطلحات السياسية والعسكرية

الفهرس الكشاف للمصطلحات الدينية

الفهرس الكشاف للألفاظ العامية المغربية

لائحة المصادر والمراجع

القرآن الكريم. (رواية ورش).

1 ـ المخطوطات والمرقونات

إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار، إدريس الجعايدي، تحقيق عز المغرب معنينو، رسالة مرقونة بكلية الآداب- الرباط.

الإحياء الشعري في المغرب الحديث بين الأصالة والتقليد، سعيد الفاضلي، أطروحة مرقونة بكلية الآداب، جامعة شعيب الدكالي، الجديدة، المغرب.

انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره (الرحلة الوجدية)، محمد بن الحسن الحجوي، مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم ح 123.

أنس السائر في اختصار البدر السافر، محمد بن الحسن الحجوي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ج 245، (وهي تلخيص رحلة ابن عثمان).

أهم الأخبار عن حرب الثأر والاستعمار، محمد بن الحسن الحجوي، مخطوط بالخزانة العامة، رقم ح 122.

تقرير تاريخي، محمد بن الحسن الحجوي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ح 254.

تقييد في حكم الصلاة على غير النبي استقلالا، محمد بن الحسن الحجوي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ح 113، ح 114.

خطوة الأقلام في التعليم والتربية في الإسلام، أحمد بن المواز، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ح 40.

الرحلة الأندلسية الفيشية، محمد بن الحسن الحجوي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ح 260.

الرحلة الأوربية، محمد بن الحسن الحجوي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 4/ 115.

الرحلة الحجازية المصرية، محمد بن الحسن الحجوي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ح 161.

زهر الآس في بيوتات فاس، عبد الكبير بن هاشم الكتاني، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ك 1281.

محمد بن الحسن الحجوي والحماية، آسية بنعدادة، أطروحة مرقونة بكلية الآداب - الرباط.

معضلات العصر، محمد بن الحسن الحجوي، مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم ح 196.

2 ـ الكتب المطبوعة

إتحاف أعلام الناس بجمال مدينة مكناس، عبد الرحمن بن زيدان، المطبعة الوطنية الرباط، 1926.

الإتحاف الوجيز، تاريخ العدوتين، محمد بن علي الدكالي، تحقيق مصطفى بوشعراء، منشوارت الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، المغرب، 1986.

الاجتهاد والتحديث، دارسة في أصول الفكر السلفي في المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 2، 2001.

أحكام القرآن، أبو بكر ابن العربي، تحقيق محمد علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط 1، 1957.

الأدب العربي في المغرب الأقصى، محمد بن العباس القباج، مطابع فضالة، المحمدية، 1979، (مصور عن طبعة 1929).

أصول الفقه الإسلامي، زكريا عبد الرزاق المصري، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1998.

الإكسير في فكاك الأسير، محمد بن عثمان المكناسي، تحقيق وتعليق محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.

الآلة والأداة، معروف الرصافي، تحقيق عبد الحميد الرشودي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العربية العراقية، دار الرشيد للنشر، 1980.

انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره، دواعي الإصلاح والتنظيم، محمد الصغير الخلوفي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1994.

الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، 1979.

إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب، مطبعة الشرق، القاهرة، (د. ت).

الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية، زكي محمد مجاهد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1994.

أعلام المغرب العربي، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1979.

أمثال العوام في الأندلس، عبيد الله أحمد الزجالي القرطبي، تحقيق وشرح ومقارنة محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، (د. ت).

أوربا في مرآة الرحلة، سعيد بنسعيد العلوي، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1995.

بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مطبعة فونطانة، الجزائر، 1910.

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، ط 7، 1964.

تاريخ المغرب الكبير، الفترة المعاصرة، جلال يحيى، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين، عبد الله الجراري، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط 1، 1985.

تخليص الإبريز في تلخيص باريز، رفاعة الطهطاوي، ضمن الأعمال الكاملة

لرفاعة الطهطاوي، تحقيق محمد عمارة، بيروت، مؤسسة الدراسات العربية للدراسات والنشر، 1973.

تركية الفتاة وثورة 1908، رامزور أرنست، ترجمة صالح أحمد العلي، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960.

تفسير ألفاظ الصوفية، محيي الدين ابن عربي، تحقيق موفق فوزي الجبر، دار معد للطباعة والتوزيع، دمشق، ط 1، 1997.

جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، أحمد ابن القاضي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.

جني الآس في بناء مدينة فاس، علي الجزنائي، المطبعة الملكية، الرباط، 1967.

حاشية الرهوني على شرح المختصر وبهامشه حاشية محمد المدني كَنون على شرح الزرقاني، مطبعة بولاق، ط 1، 1306.

الحاوي للفتاوي، السيوطي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1959.

حديقة التعريس في بعض وصف ضخامة باريس، عبد الله الفاسي، المطبعة البلدية، فاس، 1916.

الحركة الريسونية من خلال الوثائق المغربية، عبد العزيز التمسماني خلوق، مطبعة سليكي إخوان، طنجة، 1997.

الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، (د. ت).

خطب ومحاضرات، محمد بن الحسن الحجوي، المطبعة الوطنية، الرباط، 1928.

دليل مؤرخ المغرب الأقصى، عبد السلام بن سودة، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط 2، ج 1، 1960، ج 2، 1965.

ديوان الخنساء، شرح وتحقيق عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، (د.ت).

ديوان الشافعي، جمع وتعليق محمد عفيف الزعبي، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، 1977.

رنات المثالث والمثاني في روايات الأغاني، الأب أنطوان صالحاني، بيروت، 1888.

ذكريات من ربيع الحياة، محمد الجزولي، مطبعة الأمنية، الرباط، 1971.

الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية، محمد الطاهر الفاسي، تحقيق وتعليق محمد الفاسي، منشورات جامعة محمد الخامس، 1967.

روضة النسرين في دولة بني مرين، إسماعيل ابن الأحمر، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، ط 2، 1991.

سنن ابن ماجة، تحقيق وتخريج خليل مامون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 1998.

سنن الترمذي، مراجعة سعيد عثمان، دار الفكر، ط 1، (د. ت).

سنن الدرامي، طبعة بيروت، (د. ت).

السنن الكبرى، البيهقي، طبعة بيروت، (د. ت).

السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت).

شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

شرح العالم الرباني والإمام العارف الصمداني الجامع بين علمي الأصول والمعاني سيدي عبد الباقي الزرقاني على مختصر خليل وبهامشه حاشية محمد بناني، المطبعة الكبرى العامرة، القاهرة، 1293.

شرح المعلقات السبع، الزوزني، دار الجيل، بيروت، (د. ت).

الشعر والشعراء، ابن قتيبة بعناية M. J. De Coeje، مطبعة بريل، ليدن، 1902.

الشفاهية والكتابية، والتر. أونج، ترجمة حسن البنا، مراجعة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة الكويت، عدد رقم 182، فبراير 1994.
الصحافة العربية، نشأتها تطورها، أديب مروة، دار المعارف، بيروت، ط 1، 1960.
صحيح البخاري، تحقيق محمد ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، 198.
صحيح البخاري، مراجعة وضبط الشيخ محمد علي، الشيخ هشام البخاري قطب، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط 1، 1999، (شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع).
صحيح مسلم، مؤسسة قرطبة، ط 1، 1991.
صحيح مسلم بشرح النووي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت).
صدفة اللقاء مع الجديد، رحلة الصفار إلى فرنسا، دراسة وتحقيق سوزان ميلار، تعريب ومشاركة في التحقيق خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط 1، 1995.
صفاء المورد في عدم القيام عند سماع المولد، محمد بن الحسن الحجوي، طبع بفاس، 1337 هـ.
الضعفاء، العقيلي، دار الكتب العلمية، (د. ت).
العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ناصيف اليازجي، دون دار طبع، (د. ت).
العز والصولة في معالم نظم الدولة، عبد الرحمن بن زيدان، المطبعة الملكية، الرباط، 1962.
العقد الفريد، ابن عبد ربه، القاهرة، 1965.
عقد الجزيرة الخضراء، عربي-فرنسي، مطبعة طنجة، 1907.
العلائق السياسية للدولة العلوية، عبد الرحمن بن زيدان، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 1999.

فاس منبع الإشعاع في القارة الإفريقية، عبد العزيز بنعبد الله، المطبعة الملكية، الرباط، 2001.

فتح الباري، ابن حجر، طبعة دار الفكر، (د. ت).

الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد بن الحسن الحجوي، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، 1396 هـ.

الفقه الإسلامي وأدلته، وهبه الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط 4، 1997.

فهرس الفهارس والأثبات ومعجم الشيوخ والمسلسلات، محمد عبد الحي الكتاني، المطبعة الجديدة، فاس، 1347 هـ.

فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان، محمد غريط، المطبعة الجديدة، فاس، ط 1، 1346 هـ.

فتح الباري، ابن حجر، دار الفكر، (د. ت).

الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد بن الحسن الحجوي، ج 1، مطبعة إدارة المعارف، الرباط ثم أكمل بمطبعة البلدية فاس، 1340 هـ. ج 2 وج 3 مطبعة النهضة، تونس، (د. ت)، ج 4 بفاس، (د. ت). (وميزناها عن الطبعة المشرقية بشفعها بوضع "طبعة المغرب" بين قوسين.

قصة الحضارة، ول ديورانت، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط 2، 1964.

القوانين الفقهية، ابن جزي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).

العرب والفكر التاريخي، عبد الله العروي، دار الحقيقة، بيروت، 1973.

كتاب جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطامش، ط 2، 1988.

كتاب الرحلة الموسومة بالواسطة في معرفة مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا، أحمد فارس الشدياق، مطبعة الدولة التونسية، ط 1، 1283 هـ.

كتاب سنن ابن ماجة وبهامشه حاشية عليه للإمام محمد بن عبد الهادي الحنفي، المطبعة العلمية، بمصر، 1313 هـ.

لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر، (د. ت).

اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، أبو عبد الله (محمد) السليماني، مطبعة الأمنية، الرباط، ط 1، 1971.

متنوعات محمد الفاسي، منشورات محمد الخامس، 1967.

محاورات مع النثر العربي، مصطفى ناصف، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد رقم 218، فبراير 1997.

محمد الخامس، محمد العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1975.

مختصر الدر الثمين والمورد المعين لأحمد بن محمد الفاسي على منظومة المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لعبد الواحد بن عاشر، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط، (د. ت).

مختصر العروة الوثقى، فهرست، مطبعة الثقافة، سلا، 1938.

المختصر في الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس، خليل بن إسحاق ابن يعقوب المالكي، المطبع الجمهوري المعمر، باريز، 1300 هـ/ 1883 م.

مذكرات حياة وجهاد، محمد بن الحسن الوزاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982.

مذكرات من التاريخ المغربي، إشراف علي الصقلي، AL TAMIRA S.A. MADRID. 1986.

المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، شرح وتعليق محمد جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 1986.

مسامرات الظريف بحسن التعريف، محمد بن عثمان السنوسي، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1994.

المصادر العربية لتاريخ المغرب، الفترة المعاصرة، الجزء الثاني، محمد المنوني، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1989.

معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1971.

معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

معجم فقه ابن حزم الظاهري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت).

معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحالة، دار العلم للملايين، بيروت، ط 2، 1968.

معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية، مصطفى عبد الكريم الخطيب، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1996.

معجم المطبوعات المغربية، إدريس بن الماحي الإدريسي القيطوني، مطابع سلا، 1988.

معلمة المغرب، تنسيق محمد حجي، مطابع سلا، (صدر آخر جزئين منها: 15-16، سنة 2002).

المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل الأندلس والمغرب، الونشريسي، تخريج جماعة من العلماء بإشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، سعيد علوش، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، شوسبريس، الدار البيضاء، ط 1، 1987.

من أعلام البصرة: سيبويه، هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابته، صاحب جعفر أبو جناح، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، 1974.

من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا، عبد الله الجراري، مطبعة الأمنية، الرباط، 1971.

المنهل، قاموس عربي فرنسي، سهيل إدريس، بمشاركة صبحي الصالح، دار

الآداب، بيروت، ط 29، 2001.

موسوعة أعلام المغرب، تنسيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1.

الموسوعة العسكرية، إشراف المقدم الهيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1979.

موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، جيرار جهامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط 1، 1988.

الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة المدن والقبائل، عبد العزيز بنعبد الله، مطبعة منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1977.

ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبي، تحقيق علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995.

النظام في الإسلام، محمد بن الحسن الحجوي، المطبعة الوطنية، الرباط، 1928.

الواقعي والمتخيل في الرحلة الأوربية إلى المغرب، عبد النبي ذاكر، منشورات كلية الآداب، أكادير، مطبعة منشورات كوثر، 1997.

الوئام في ظلال الإسلام بين العرب والقبائل البربر الكرام، محمد بن الحسن الحجوي، مطبعة النهضة، تونس، (د. ت).

3 ـ جرائد ومجلات:

البحث العلمي (مجلة)/ العدد: 29-30، 1979.

دعوة الحق (مجلة)، السنة 10، العدد 2.

دعوة الحق (مجلة)، السنة 13، العدد 8.

السعادة (جريدة): 3/ 7/ 1919.

السعادة (جريدة): 5/ 7/ 1919.

السعادة (جريدة): 8/ 7/ 1919.

السعادة (جريدة): 10/ 07/ 1919.

السعادة (جريدة): 15/ 07/ 1919.

السعادة (جريدة): 07/ 08/ 1919.

السعادة (جريدة): 30/ 08/ 1919.

السعادة (جريدة): 29/ 09/ 1922.

السعادة (جريدة): 02/ 10/ 1922.

السعادة (جريدة): 11/ 10/ 1922.

السعادة (جريدة): 13/ 10/ 1922.

السعادة (جريدة): 01/ 09/ 1938.

العلم (جريدة): 02/ 08/ 1958.

العلم (جريدة): 25/ 11/ 1998.

العلم (جريدة): 22/ 07/ 2000.

المناهل (مجلة): شتنبر 1996.

مراجع بلغات أجنبية

Aayane Al Maghrib Al Akça, Gouvion, Imprimerie Africaine, 1939.
Au Maroc avec le général D'amade, R. Rankin, Paris. 1909.
Catalogue des Manuscrits Arabes, M. Le Baron de Salane, imprimerie National, Paris, 1883-1895.
Dictionnaire Detaillé des noms des vêtements chez les arabes, R. Dozy, Librairie du Liban Riad Solh Square, Beirut, 1945.
Dictionnaire Encyclopédique Hachette, Hachette, Paris, 1980.
Encyclopédie Agricole Quillet, A. Sarotory, 6 Couturier, Librairie Aristide Quillet, Paris, 1930.
Esquisses historiques, Abdallah Laroui, centre culturel Arabe, 2ème ed, 2001.
Le dictionnaire Colin d'Arabe Dialectal Marocain, sous la direction de Zakia Sinaceur, Editions Al Manahil, Ministère des affaires culturelles, Maroc, 1993.
Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, 1830-1912, Abdallah Laroui, centre culturel Arabe, 1993.
Le Théâtre national de l'Opéra de France Geours, Jean Philippe, Saint Geours, Press Universitaire de France, 1992.
Lettres Chérifiennes, M. Nehlil, Paris, 1915.
Mémorias de Un veijo tangerrino, Isaac Larido, bermijo, Madrid, 1935.
Napoléon, Eric Delmotte, Marabout, Alleur, Belgique, 1990.
Voyage d'Europe, Le périple d'un Réformiste, Muhammd Ibn Al Hassan Al-Hajwi, Traduction et postface Alain Roussillon, Abdellah Saâf, Afrique Orient, 2001.

ملحق حول الجائزة

جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي 2003

جائزة سنوية تمنحها "دار السويدي" لأفضل الأعمال المحققة في أدب الرحلة والمؤلفات الجغرافية العربية والإسلامية قديماً، ووسيطاً، وحديثاً (من نهايات القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين) ولأفضل كتاب جديد في أدب الرحلة المعاصرة

في إطار مشروع "ارتياد الآفاق" الذي أطلقته "دار السويدي" من أبو ظبي وبيروت قبل عامين تعلن الدار، وهي مؤسسة ثقافية عربية غير ربحية، عن نتائج (جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي) التي تأسست مطلع عام 2003 وتمنح سنوياً لأفضل الأعمال المحققة في أدب الرحلة، وجاءت انسجاماً مع طموحات الدار في إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي.

فاز بالجائزة في دورتها الأولى سنة 2003 ثلاثة من المحققين المغاربة هم د. محمد بوكبوط، ود. سعيد فاضلي، ود. عبد الرحيم موذن، والشاعر العماني محمد الحارثي.

وقد اثبتت الجائزة في دورتها الأولى التوقعات المتفائلة لمشروع تنويري عربي يستهدف إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي من خلال تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية التي تنتمي إلى أدب الرحلة والأدب الجغرافي بصورة عامة، من جهة، وإلى تشجيع الأدباء والكتاب العرب على تدوين يومياتهم في السفر. فضلاً عن ترجمة التراث الإنساني في أدب الرحلة الموضوع في اللغات الأخرى.

تهدف الجائزة إلى تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في هذا

الميدان الخطير والمهمل، وإيماناً من "دار السويدي" بضرورة الإسهام في إرساء تقاليد حرّة في منح الجوائز، وتكريساً لعرف رمزي في تقدير العطاء الفكري، بما يؤدي بالضرورة إلى نبش المخبوء والمجهول من المخطوطات العربية والإسلامية الموجود في كنف المكتبات العربية والعالمية، وإخراجه إلى النور، وبالتالي إضاءة الزوايا الظليلة في الثقافة العربية عبر علاقتها بالمكان، والسفر فيه، والكشف عن نظرة العربي إلى الذات والآخر، من خلال أدب الرحلة بصفته من بين أبرز حقول الكتابة في التراث العربي، لم ينل اهتماماً يتناسب والأهمية المعطاة له في مختلف الثقافات.

أهمية هذا المشروع تتزايد في ظل التطورات الدراماتيكية التي يشهدها العالم، وتنعكس سلباً على علاقة العرب والمسلمين بالجغرافيات والثقافات الأخرى، فالأدب الجغرافي العربي (وضمناً الإثنوغرافيا العربية) من شأنه أن يكشف عن طبيعة النظرة والأفكار التي كوّنها العرب والمسلمون عن "الآخر" في مختلف الجغرافيات التي ارتادها رحالتهم وجغرافيوهم ودوّنوا انطباعاتهم عنها، وعن التصورات الخاصة بالعرب عن الحضارة الإنسانية والاختلاف الحضاري .

لجنة التحكيم

تشكلت لجنة التحكيم من 5 أعضاء هم د. شعيب حليفي (المغرب)، د. محمد لطفي اليوسفي (تونس)، الشاعر علي كنعان (سورية) د. شاكر لعيبي (العراق)، د. عبد النبي ذاكر (المغرب). وبلغ عدد المخطوطات المشاركة 22 مخطوطاً جاءت من 7 بلدان عربية، توزعت على الرحلة المعاصرة بصورة أكبر وعلى المخطوطات المحققة بصورة أقل. وقد جرت تصفية أولى تم بموجبها استبعاد الأعمال التي لم تستجب للشروط العلمية المنصوص عنها بالنسبة إلى التحقيق، واستبعد ما غاب عنه المستوى بالنسبة إلى الجائزة التي تمنحها الدار للأعمال المعاصرة. وقد نزعت أسماء المشاركين من المخطوطات قبل تسليمها لأعضاء لجنة التحكيم لدواعي السريّة وسلامة الأداء، وجاءت النتائج على النحو التالي:

المخطوطات الفائزة

. **مخطوطة لا تقل صفحاتها الأصلية عن 200 صفحة:**

فاز بها مخطوط رحلة "إحراز المعلى في حج بيت الله الحرام" 1785 لمحمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي. قام بالتحقيق د. محمد بوكبوط (المغرب)

. **مخطوطة لا تقل صفحاتها الأصلية عن 150 صفحة:**

فاز بها مخطوط "**الرحلة الأوروبية**" 1919 لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي. قام بتحقيق المخطوط د. سعيد فاضلي (المغرب).

. **مخطوطة لا تزيد صفحاتها الأصلية عن 100 صفحة:**

وفاز بها مخطوط "**الرحلة التتويجية لعاصمة البلاد الأنجليزية**" 1902 للحسن بن محمد الغسال. قام بالتحقيق د. عبد الرحيم مودن (المغرب).

جائزة الرحلة المعاصرة

أما جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة، وهي جائزة تمنحها "دار السويدي" عن أفضل كتاب في أدب الرحلة يضعه كاتب معاصر فقد فاز بها الشاعر العماني محمد الحارثي عن كتابه "**عين وجناح- رحلات في الجزر العذراء، زنجبار، تايلاند، فيتنام، الأندلس، والربع الخالي**" .

توزيع الجوائز في المغرب

صدرت الرحلات الثلاث في سلسلة "ارتياد الآفاق" والرحلة الرابعة في سلسلة "سندباد الجديد"

ومن المنتظر أن توزع الجوائز في احتفال يقام في الرباط خلال ندوة "الرحالة العرب والمسلمون: اكتشاف الآخر-المغرب منطلقاً وموئلاً " التي ستنعقد في أيام 14-15-16 نوفمبر القبل ويشرف عليها كل من "وزارة

الثقافة المغربية" والمشروع الجغرافي العربي "ارتياد الآفاق" في أبو ظبي، ويشارك في أعمالها عدد كبير من الأكاديميين والدارسين في حقل الأدب الجغرافي وتحمل هذه الدورة التأسيسية للندوة اسم دورة ابن بطوطة. وتأتي الندوة في إطار احتفالات الرباط عاصمة الثقافة العربية. وستسلم الجوائز بحضور الفائزين.

لم يكن مفاجئاً لـ"دار السويدي" ومشروع "ارتياد الآفاق" أن يأتي فوز المخطوطات الثلاث بالجائزة من المغرب، فالمغرب أخرج ابن بطوطة والمغاربة الحاليون هم من سلالة هذا الرحالة العظيم. وفي الأساس يمكن رد الأمر إلى النشاط الملحوظ للدارسين والأكاديميين المغاربة في أقسام التاريخ في الجامعات المختلفة في المغرب، وأيضاً إلى تمتع هؤلاء بوعي استثنائي للأهمية التي يشغلها حقل الأدب الجغرافي. فضلاً عن تبنيهم مناهج حديثة في قراءة النصوص والظواهر التي تتكشف عنها.

قبول الطلبات للدورة الثانية للجائزة

يفتح باب قبول الطلبات للمشاركة في الجائزة بدءاً من شهر أيار / مايو من كل عام، ويستمر مفتوحا لـ 8 أشهر، ويقفل مع مطلع كانون الثاني/ يناير من كل عام. ومن شروط الاشتراك في الجائزة:

- أن يكون النص محققاً وفق قواعد التحقيق العلمية المعتمدة في الأوساط الأكاديمية.
- تقبل المخطوطات التي هي رسائل أكاديمية لنيل درجات علمية.
- من حق الجهة المانحة للجائزة إجراء التعديلات الفنية التي تراها مناسبة على النص الفائز ليتوافق وصيغة النشر المعتمدة من الدار بالاتفاق مع المؤلف أو المحقق.
- أن يرسل النص في نسخة ورقية واحدة مرفقة بنسخة إلكترونية.

تستقبل النصوص على عنوان "دار السويدي" في أبو ظبي ص.ب 44480 أو على البريد الإلكتروني:

وتقبل طلبات المشاركة حتى موعد أقصاه 3/1 من كل عام.

جائزة للدراسات

وقد قررت "دار السويدي" استحداث جائزة خامسة تمنح سنوياً للدراسات الموضوعة في حقل الأدب الجغرافي.

قطوف من آراء لجنة التحكيم

في المخطوطات الثلاث الفائزة والصادرة في هذه السلسلة

*** رحلة المكناسي 1785**

إحراز المعلى والرقيب

في الحج إلى بيت الله الحرام

وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب

محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي

تحقيق د. محمد بوكبوط

*** د. شعيب حليفي**

عن الرحلة

العناصر التي تبرز أهمية وقيمة هذا النص متعددة لكون الفترة التاريخية وخط سير الرحلة عاملين أساسيين وحاسمين، إذا ما أضفنا عنصرا ثالثا يتمثل في مؤلف الرحلة ابن عثمان المكناسي، السفير الأديب الذي يملك رصيدا ثقافيا هاما وحنكة ديبلوماسية.

عن التحقيق

المحقق كان صائبا في مرحلتين: تحقيق النص وضبطه ثم التقديم له وبناء جسور دقيقة ومتينة لفهمه والتواصل معه. والمقدمة التي مهدت للتحقيق كانت جيدة تنم عن دراية شاملة.

* د. محمد علي اليوسفي

عن الرحلة:

يستمد هذا العمل قيمته الفكرية والأدبية والتاريخية من كون المؤلف لم يكتف بوصف الأماكن والأمصار التي زارها بل وسع دائرة الجنس الأدبي الذي يكتب فيه أي الرحلة. فهي سياحة في المكان والفكر معاً. فقد ضم النص أراء وتأملات فكرية وأدبية.

عن التحقيق

تمكن المحقق في المقدمة التي وضعها من الإحاطة بتغريبة الكتاب وتغريبة منتجه إذ كشف عن الغبن الذي تعرض له طيلة أحقاب ظل الكتاب خلالها يقتبس إلى النهب دون ذكر له أو لمؤلفه. في حين ينهض هذا التحقيق على دقة علمية واضحة، وحرص على التمسك بالضوابط الأكاديمية.

إن إخراج كتاب "كتاب إحراز المعلى" من العتمة إلى ضوء النهار من شأنه أن يثري المكتبة العربية ويرد الاعتبار للنص ومنتجه. وهذا العمل يستحق فعلا أن ينال الجائزة التي رشح لها عن جدارة واقتدار.

* أ. علي كنعان

عن الرحلة

عمل جدير بنيل الجائزة لعدة أسباب، منها: أنها من كنوز الخزائن المغربية المكنونة في مخطوطات لم تنشر من قبل، وهي ترصد مرحلة هامة من تاريخ الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر خلال الصراع العثماني الروسي.

عن التحقيق

يبدو جهد المحقق جليا وكبيرا في دراسة النص وفحصه، بنسختيه (أ) و(ب)، وتعليق حواشيه وإلقاء مزيد من الضوء على حياة المؤلف ومكانته

العلمية والدبلوماسية (...) وتقصّي مختلف الإشارات والدراسات القديمة والحديثة التي تناولت هذا النص كليا أو جزئيا.

* د. شاكر لعيبي

عن الرحلة

عنصران قويان يمنحان هذه الرحلة قيمتها الأدبية والأرشيفية، الأول: يتعلق بالمساهمة السياسية الكبيرة لمؤلفها في صنع الأحداث في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. والثاني: الثقافة العالية للمصنّف ودقة ملاحظاته ورصوداته.

عن التحقيق

سعى المحقق بقدر كبير من المهارة والدقة والمنهجية في إخراج العمل بأحسن الهيئات الممكنة. فقد نقّب وتابع أسماء الأعلام الواردة في نص المخطوطة ووثقها وعاود التحقّق منها، كما عاود التأكّد من الكلمات غير العربية التي يستخدمها المؤلف مما كان شائعاً في عصره بتأثير الهيمنة التركية كالقشلة والأكراك وأركلة.

* د. عبد النبي ذاكر

عن الرحلة

قيمة هذه المخطوطة تكمن في كونها رحلة شاملة إلى حد ما، جمعت بين الرحلة الحجية والزيارية والسفارية (...) صاحب النص دبلوماسي مغربي محنك ينتمي لأواخر القرن الثامن عشر، راسخ القدم في أدب الرحلة يشهد لذلك تصنيفه لرحلتين أخريين.

عن التحقيق

تحقيق علمي أكاديمي رصين، نهض على التعريف بأهمية المخطوط،

وقيمة صاحبه، وسرد منهج التحقيق المتمثل في المقابلة بين نسختين مخطوطتين.

*** الرحلة الأوروبية 1919**

محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي

حققها وقدّم لها د. سعيد الفاضلي

* د. شعيب حليفي

عن الرحلة

هذا النص الرحلي شهادة متعددة الأوجه والقراءات عن طموح العالم إلى مستقبل بدون حروب، واستمرار ارتباط أوربا بمستعمراتها. من جانب آخر تبرز الرحلة بجلاء وجهة نظر صريحة من طرف مؤلفها الحجوي، المثقف السياسي المتفتح، ووعيه الداعي إلى الاقتداء بحداثة الغرب.

عن التحقيق

جيد على كافة المستويات ويحترم قواعد التحقيق خصوصا وأنه معزز بالهوامش الشارحة والتعليقات المفيدة والمفسرة فضلا عن التقديم والفهارس المدققة.

* د. محمد لطفي اليوسفي

عن الرحلة

ترجع أهمية هذا الكتاب إلى كون مؤلفه مغربي من عملاء الاستعمار الفرنسي. حتى أن المغاربة امتنعوا عن الصلاة في المكان الذي دفن فيه. الكتاب يمثل من هذا المنظور وثيقة فكرية وتاريخية هامة. إنه يتنزل في صميم ما يمكن أن ننعته بالخطاب الاستشراقي العربي الذي يرى في الغرب دار السعادة القصوى ويحرص على استنساخ القيم الغربية والحضارة الغربية وجعل الشعوب العربية تخجل بانتمائها الحضاري فتسعى إلى تبديله.

عن التحقيق

مقدمة التحقيق علمية على نحو صارم ثمة ضبط علمي للهوامش فهي حافلة بما يجعل منها دليلا مهما ييسر القراءة على القارئ.

عمل جدير بالتقدير وبنيل جائزة عربية.

*أ. علي كنعان

عن الرحلة

أهمية هذه الرحلة نابعة من أهمية المرحلة التاريخية التي ترصدها في أعقاب الحرب العالمية الأولى، فضلا عن المكانة السياسية والأدبية لكاتبها وهاجسه التنويري.

عن التحقيق

المحقق درس النص بأناة بالغة وعلق حواشيه وأوضح خفاياه بشروح مستفيضة وعرف بالأعلام الجغرافية والتاريخية، فأضفى عمله على الرحلة أهمية كبيرة.

*د. شاكر لعيبي

عن الرحلة

تقدّم هذه الرحلة مسحاً لأجزاء كبيرة من فرنسا في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى. تقدم الرحلة بحثاً عن أسئلة تنويرية ونهضوية ملتبسة، ويتقدّم الحجوي لهذا السبب بوصفه حالة رمزية لحيرة العالم العربي الإسلامي الخاضع للاستعمار. هذه الرحلة تضيء تلك المنطقة الحرجة بين استشرافات المثقفين المغاربة لمعارف اللحظة وبين طموحاتهم، بل مصائرهم الفردية.

عن التحقيق

التحقيق هو من الدقة بمكان، ويتبع المنهج العلمي في تحقيق

المخطوطات، مصحّحاً الكثير من هفوات وعثرات التحقيق الأول، مُضيفاً إليها عناصر جديدة من أجل إضاءة النص بنور جديد والتعريف بمصادر مؤلفه الأدبية والثقافية والمعرفية.

*** د. عبد النبي ذاكر**

عن الرحلة

قيمة هذه الرحلة في كون صاحبها مثقف من عيار كبير، له نصوص رحلية أخرى. فالرحلة في حد ذاتها رؤية فقيه متنور للآخر في مطالع القرن العشرين، يتمتع بدقة الملاحظة وحصافة الرأي وحسن التفهم، دون أن يثنيه عن انتقاد الذات والسخرية من تخلفها، في لغة هادئة مسترسلة، وأسلوب لا تصنع فيه.

عن التحقيق

تتجسد قيمة هذا التحقيق في إلقاء الضوء على شخصية الحجوي الثعالبي المثقف والسياسي. ويتميز التحقيق، علاوة على التقديم الموسع والتعليق المستفيض ولائحة المصادر والمراجع، بسرد لائحة شاملة للفهارس.

*** الرحلة التويجية إلى عاصمة البلاد الإنجليزية 1902**

الحسن بن محمد الغسال الطنجي

حققها وقدّم لها د. عبد الرحيم مودّن

*** د. شعيب حليفي**

عن الرحلة

تجيء قيمة الرحلة لتكشف عن وجهة نظر مغربية/عربية تجاه المجتمع الأوروبي المتمثل في إنجلترا، باعتباره الآخر المتقدم القوي المالك لأدوات التكنولوجيا والتنمية والباحث عن مستعمرات وأسواق.

عن التحقيق

استطاع المحقق عبر مقدمة مفصلة تقديم أفكار خاصة بنص الحسن الغسال من خلال إضاءته من جوانب شتى تضع النص الرحلي [المحقق] ومؤلفه في السياق التاريخي والسياسي والفكري الذي وجد فيه. ويعتبر هذا التحقيق متقدما على نشر سابق للنص نفسه سنة 1979 بإشراف الأستاذ عبد الهادي التازي.

* د. محمد لطفي اليوسفي

عن الرحلة

مخطوط يجسد ما يمكن أن ننعته بـ"أدب الرحلة المضاد" فالمخطوط ينبني على مقاومة التمثلات الاستشراقية التي تعج بها كتب الرحالة الغربيين الذين زاروا الشرق وكتبوا عنه نصوصا تبتني صورة دونية للشرق وناسه وحضارته عبر تكريس متخيلات مخترعة.

عن التحقيق

حرص المحقق في طبعته الكتاب على تبيان ظروف كتابة الغسال لمؤلفه. كما حرص أيضا على تنزيل الكتاب في إطار التاريخ الثقافي المغربي والعالمي. وتبين منطلقات الغسال في مؤلفه مبرزاً مميزات الكتاب داخل أدب الرحلة في الثقافة العربية.

الرحلة تجمع إلى السيرة الذاتية بعدا توثيقا واضحا.

* أ. علي كنعان

عن الرحلة:

هذه الرحلة، على صغر حجمها، تكشف الهاجس الحضاري المستنير لمؤلفها وهو يشاهد مظاهر التقدم في مجتمع أجنبي منظم يحتفي بالعلم

والعمل معا، بينما ما تزال البلاد العربية ترزح تحت ظلمات الجهل والأمية والتناحر.

عن التحقيق:

الجهد العلمي واضح في تحقيق النص وتعليق حواشيه، ويتجلى ذلك بدءا من المقدمة المستفيضة التي أشارت إلى إشكالية النهضة بين "الأنا" و "الآخر" حتى في مسألة اللغة وقدرتها على التعبير، كما أضاءت جوانب متعددة من حياة الكاتب وأعماله.

* د. شاكر لعيبي

عن الرحلة:

على الرغم من قصر هذه الرحلة فإنها من المتعة بمكان، لأنها مهمومة بمشكلة التحديث الذي كان يجابهه العالم العربي الإسلامي، ولأنها مكتوبة بروح من التحرر الذي يهجر قليلا أو كثيرا فكرة (دار الكفر)، ولأنها كذلك تُظهر حياديةً نسبيةً للغسّال مؤلفها.

هذه الرحلة تقدّم فكرة قيمة عن الإشكالية الفعلية لبدايات الترجمة في المغرب العربي.

عن التحقيق:

جاء التحقيق موفياً بالغرض وفق قواعد علمية دقيقة، وتمكنت المقدمة من الإحاطة بالرحالة ورحلته على نحو كاشف.

* د. عبد النبي ذاكر

عن الرحلة:

على الرغم من صغر حجم هذه الرحلة، إلا أنها تعطينا صورة متفتحة عن لقاء عقل عربي إسلامي متنور بمعالم حضارة غربية [إنجليزية أساسا] في البدايات الأولى من القرن العشرين.

عن التحقيق:

قيمة التحقيق تتجلى أساسا في التحقيق اللغوي العامي والفصيح والمعرب من الكلمات الأجنبية. وفي التأطير التاريخي للمتن الرحلي المحقق وتحليله والتعليق عليه ومقارنته بنصوص سابقة (...) ثم تنوير أعلام الأشخاص والأماكن.



المحتويات